حُمرة السماء في أحوال سيد الشهداء (ع)

(دراسة في اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الحسين (ع)
وقوة الإدراك في عاشوراء)

السيد زهير طالب الأعرجي

حُمرة السماء في أحوال
سيد الشهداء (ع)

(دراسة في اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الحسين (ع)
وقوة الإدراك في عاشوراء)

زهير طالب الأعرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[1].

ورد في المصادر التاريخية: لما قُتِلَ الحسين بن علي احمرّت لقتله السماء وانكسفت الشمس[2]. وعلى ذلك كان عنوان الكتاب.

---

[1] سورة الأحزاب: الآية 33.

[2] الصواعق المحرقة – ابن حجر ص 294.

اسم الكتاب: حُمرة السماء في أحوال سيد الشهداء (ع)

(دراسة في اللحظات الأخيرة من حياة الإمام الحسين (ع)

وقوة الإدراك في عاشوراء)

1440 هـ - 2018 م

Book's Title: The Last moments of Imam Hussain's Life:
The power of perfect mind.
Author: Dr. Zuhair Talib Araji

بسم الله الرحيم الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله حمد الشاكرين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما هو أهله، وصلى الله على محمد المصطفى نبي الرحمة خاتم النبيين (ص) وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاةً دائمةً زاكيةً إلى قيام يوم الدين.

لهذا الكتاب: قصةٌ وإطروحةٌ.

تتلخص القصة في إنني كنتُ راغباً رغبةً شديدةً منذ فترة طويلة في دراسة شخصية الإمام الحسين (ع)، واكتشاف أسرار واقعة الطف، ودور الإمام (ع) في بناء شخصية المسلم على أساس الإخلاص للمبدأ، والإيثار من أجله.

وفي ضوء ذلك، قررتُ في وقتٍ واحدٍ كتابة كتابين ذو منهجين مختلفين، حول الإمام الحسين (ع) في فكره ومنهجه.

الكتاب الأول وهو الذي بين يديك عزيزي القارئ: (حُمرة السماء في أحوال سيد الشهداء عليه السلام) مختصر شامل يعرض حياة الحسين بن علي (ع) وإمامته، لكنه يركّز على القدرة الإدراكية الخارقة للإمام (ع) في الساعات الأخيرة من عاشوراء، وعدم تغيرها بفعل المؤثرات الخارجية القاسية كالظمأ الشديد، والضربات والطعنات، ومقتل الأبناء والأخوة والأصحاب، وإحتمالية تعرض العيال للأسر والذل.

كان ذلك الإدراك الشريف المتصل بالله تعالى واعياً لحجم الأحداث، وهيئتها، وحركتها، وعددها، وكثافتها. بحيث أقرَّ الأعداء بأنهم لم

يروا مكثوراً أمضى جنَاناً منه، بل كان نور وجهه مشرقاً بالإيمان يتلو آيات الله، وما يفتأ عن ذكره تعالى حتى آخر رمق له.

أما الكتاب الثاني: (الإمام الحسين (ع) سيد الشهداء)، فهو كتابٌ موسّعٌ في أكثر من 700 صفحة، يتناول حياة سيد الشهداء (ع)، ويناقش فيه مباني القيام ضد الحاكم الفاسق من وجهة نظر المذاهب المختلفة، وبحوث أخرى.

أطروحة كتاب (حُمرة السماء) تتلخص في أن قوة الإيمان عند الإمام الشهيد (ع)، وارتباطه الشديد بالله تعالى، وذوبان تفكيره في ربه العظيم حطّمَ العلاقة المألوفة بين العقل والجسد. فأصبح التفكير العقلي الذائب في الله تعالى يفترق رويداً رويداً عن الجسد المتألم. ولذلك قال القائل من أعدائه: شغلني نورُ وجهه عن الفكرة في قتله. والعادة إنّ المتألم يميل وجهه إلى الإصفرار والذبول، ولكن إشراقة وجهه (ع) كانت تعكس مقدار ارتباط قلبه وعقله بالله عزوجل.

اللهم تعلم انني لم ابذل هذا الجهد إلا ابتغاء وجهك الكريم، ومرضاتك في الدارين. فاسألك يا ربي الكريم، ان تتقبله بقبولٍ حسنٍ، وان تجعله ذخراً لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من اتى الله بقلبٍ سليمٍ.

المؤلف

الخامس عشر من شهر محرم الحرام 1440 هـ

محتويات الكتاب:

الفصل الأول: الإمام الحسين (ع): حياةٌ حافلةٌ بالعطاء
الفصل الثاني: الإمامة ولياقات الإمام (ع)
الفصل الثالث: صبيان معركة الطف ونساؤها
الفصل الرابع: المعركة العقلية في الطف
الفصل الخامس: واقعة الطف والقوة العقلية للإمام المكثور (ع)
الفصل السادس: قضية الماء في السياسة الأموية ضد الحسين (ع)
الفصل السابع: الإرث العقلي والعاطفي لواقعة الطف (الإنسان، الجماعة، الأرض)
مصادر التوثيق

الفصل الاول

الإمام الحسين (ع): حياةٌ حافلةٌ بالعطاء

مقدمة. في مسجد المدينة مع رسول الله (ص). ما بعد رحيل جده المصطفى (ص) وأمه الزهراء (ع). في عهد والده (ع). في ظل أخيه الإمام الحسن (ع). إمامة الحسين (ع). وضع معالم الطريق. الرحلة الأخيرة للإمام الحسين (ع).

مقدمة

عند ترجمةِ حياةِ إنسانٍ ذو شخصية عظيمة بعظم التاريخ، يبدأ الباحث غالباً من ولادته، ثم يتناول سرد الأحداث المهمة في مراحل نضجه وتطوره مع الحياة، لكننا في هذا البحث عن الإمام الشهيد الحسين بن علي (ع) نبدأ بآخر لحظات حياته، وهي اللحظات القليلة المتبقية من معركة الطف في عاشوراء سنة واحد وستين للهجرة النبوية.

رفع الحسين (ع) يديه بالدعاء إلى الله تعالى، وقد أشتد به الحال، فقال (ع) وبقوة إدراك كاملة: (اللهُمَّ متعاليَ المكانِ، عظيم الجبروتِ، شديد المحالِ، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما يشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء. قريبٌ إذا دُعيت، محيطٌ بما خلقت. قابلُ التوبة لمن تاب إليك، قادرٌ على ما أردت، تدرك ما طلبت. مشكورٌ إذا شُكرت، ذكورٌ إذا ذكرت. أدعوكَ مُحتاجاً، وأرغبُ إليك فقيراً، وأفزعُ إليك خائفاً. وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكلُ عليك كافياً. اللهمَّ أُحكم بيننا وبين قومنا، فإنهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد (ص) الذي اصطفيته بالرسالة، وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، يا أرحم الراحمين. صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك يا غياث المستغيثين. ما لي ربٌ سواك، ولا معبودٌ غيرك. صبراً على حكمك يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا

نفاذ له. يا محيي الموتى، يا قائماً على كلِ نفسٍ بما كسبت، أحكم بيني وبينهم، وأنتَ خيرُ الحاكمين)[3].

قال (ع) هذا الدعاء الثري بالمعاني الضخمة، رغم العطش الشديد الذي أصابه حيث مُنِعَ من شرب الماء لأيامٍ في صحراء الغاضرية، مع ثلاث وثلاثين طعنة، وأربع وثلاثين ضربة في جسده، وفجعه بمقتل أهل بيته (ع) من ذرية رسول الله (ص): اثنان من أبنائه، وستة من أشقائه، وثلاثة من أبناء أخيه، وأربعة من أولاد عمه، وأربعة من أحفاد أعمامه، ومقتل ثلاث وخمسين رجلاً من أصحابه. وكانت عياله، وهم من يعتالون عليه أطفالاً ونساءً ومرضى في مخيم قريب من ساحة المعركة يخشون الأسر.

كانت الكلمات الأخيرة للإمام الحسين (ع) قبل استشهاده (ع) في الطف، قد أظهرت قوة الإدراك عند الإمام المكثور (ع)، وقد شهدَ شاهدٌ من أهلها في مقتله (ع) بالقول: "فوالله ما رأيت مكثوراً[4] قط قد قُتِلَ وُلدُه، وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، و لا أمضى جَناناً[5] ولا أجرأ مقدماً منه، والله ما رأيتُ قبله ولا بعده مثله ..."[6].

---

[3] إقبال الأعمال – ابن طاووس ج 3 ص 305.

[4] مكثوراً من كثرة القتلى في أهله (ع) وأصحابه. يُقال: رجلٌ مكثورٌ: مغلوبٌ في الكثرة. وقد حُورت لاحقاً فكُتبت: مكسوراً أي منهزماً كسيراً (راجع تاريخ الطبري ج 4 ص 345)، وهو كذب محض!

[5] الجَنانُ: القلبُ.

[6] تاريخ الطبري ج 4 ص 345.

كيف تحمّلَ حبيب رسول الله (ص) الإمام الثالث (ع) من أئمة أهل البيت (ع) إجتماع تلك الضربات والطعنات في جسده، مع العطش الشديد، وقلّة الناصر، وكثرة القتلى من أهل بيته (ع) وأصحابه، وقرب عياله من ساحة المعركة، مع هواجس الأسر والإذلال والمصير المجهول؟! ولم يزل يدعو بهذا الدعاء العظيم بكامل قوته العقلية؟ مع إن العطش والجرح والقرح تُضعف القوة العقلية للإنسان. نترك الجواب على ذلك إلى الوريقات القادمة عندما نعود لموضوع الطف ولحظاته الأخيرة.

ولكن لو أردنا فهم حياة هذا الإمام العظيم (ع) الذي تهفو لذكره قلوب الملايين من البشر كل يوم، تعيّن علينا الرجوع ستٍ وخمسين سنة إلى الوراء من وقوع معركة الطف، أي إلى الثالث من شعبان سنة أربع للهجرة النبوية حيث تميّز ذلك اليوم في المدينة المنورة بأن شَهِدَ مولِدَ نورٍ متلألئٍ من أنوار النبوة والولاية من الأسرة الهاشمية الطاهرة.

في مسجد المدينة المنوّرة مع رسول الله (ص)

أول من استلم الوليد المبارك هو رسول الله محمد (ص) خاتم الأنبياء والمرسلين، وناداه يا ولدي، وعوّذه بالله من الشيطان الرجيم، وأذنَّ في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى.

دخل الحسين (ع) عالَم الدنيا ليرى أن له جدّاً رحيماً مبعوثاً إلى البشرية كافة يبلّغها رسالة السماء، وأن له أباً كريماً يدور مع الحق أينما دار، وأن له أمّاً طاهرةً هي بهجةُ قلبِ أبيها، ويرضى الله لرضاها،

ويغضب لغضبها. وأن له أخاً كريماً يُشاطره في يومٍ ما هموم الدين والإمامة.

ترعرع الحسين (ع) وهو على مقربةٍ من جده المصطفى (ص)؛ كان لجده تسع حجرات في مسجد المدينة المنورة، وكان لعلي وفاطمة (ع) حجرة واحدة. فكان الحسين خلال مدة ست سنوات وأشهراً ينشرح برؤية جده خاتم الأنبياء كل يوم في المسجد، ولا يفصله عنه إلا جدارٌ من سعف النخيل، وقليل من الآجر.

كان (ع) يسمع وهو في طفولته إشارة الذي لا ينطق عن الهوى (ص) إليه وإلى أخيه الحسن (ع) بأنهما سيدا شباب أهل الجنة[7]، وأنهما إمامان قاما أو قعدا[8]، وأنهما أبناه فمن أحبهما فقد أحبه (ص)[9]، وذلك غيضٌ من فيض من أحاديث أهل البيت (ع). وكان (ص) يؤكد على الحسين (ع) بأن الله اختار من صلبه تسعة أئمة، تاسعهم قائمهم[10]. أدرك الحسين (ع) مغزى مراد النبي (ص) من تكرار ذلك، إنه كان يُريد إفهام الأمة من حوله بمركزية أهل البيت (ع) في الدين، وما تعنيه إمامتهم الحقة لهم.

ومع صغر الحسين (ع) سنّاً مع جده المصطفى (ص) إلا أنه كان من أهل التمييز، كيف لا وإنّ المعصوم (ع) له طهارة المولد، وحسن

---

[7] المستدرك على الصحيحين – النيسابوري ج 3 ص 182.

[8] الإرشاد – الشيخ المفيد ص 204.

[9] تاريخ مدينة دمشق – ابن عساكر ج 4 ص 155.

[10] كمال الدين – الشيخ الصدوق ج 1 ص 269.

المنشأ، ولا يلهو ولا يلعب[11]، وله عمودٌ من نور يربطه بالسماء يسدد له مواقفه من الصغر[12]. فكان (ع) يروي لاحقاً ما سمعه عنه (ص) في تلك السن.

ومنها: أنه (ع) سأل رسول الله (ص) عن تأويل الآية الكريمة: (... وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ...)[13]. فقال (ص): (والله ما عنى [بها] غيركم، وأنتم أولوا الأرحام. فإذا متُّ فأبوك عليّ أولى بي وبمكاني، فإذا مضى أبوك فأخوك الحسن أولى به، فإذا مضى الحسن فأنتَ أولى به) [14].

ومنها: سمعتُ جدي رسول الله (ص) يقول: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار...)[15]

وأسرة كريمة كأسرة علي وفاطمة (ع) وابنيهما الحسنين (ع) لابد أن تكون مثالاً نموذجياً لمبادئ الإسلام في الإيثار والتضحية، والصدق، وهداية الناس إلى الحق. عاصر الحسين (ع) في صباه ثلاثة شواهد بقيت معالمها شاخصةً طول حياته وحتى آخر لحظة من لحظاتها، كلها حصلت في المدينة المنورة وعلى مقربةٍ من رسول الله (ص)، حيثُ الحجرات المتقاربة في مسجد النبي (ص) التي كانت تجمعهم ليلاً ونهاراً، وهي:

---

[11] الكافي – الكليني ج 1 ص 311.

[12] الحدائق الناضرة – المحقق البحراني ج 5 ص 338.

[13] سورة الأنفال: آية 75.

[14] كفاية الأثر – الخزاز ص 175.

[15] معادن الحكمة – علم الهدى ج 2 ص 48.

أولاً: الإيثار اللامتناهي: في إطعام المسكين، واليتيم، والأسير، وقوة صبر الحسين (ع) على ذلك، كما قالت الآية الكريمة: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)[16]. حيث قدمَّ عليٌّ وفاطمةٌ والحسن والحسين (عليهم السلام) طعامهم الوحيد وهي أقراص من الشعير وهم صيام، لمدة ثلاثة أيام متوالية، لأهل الحاجة والمسكنة، وهم: المسكين، واليتيم، والأسير.

وما بين إيثار سورة الدهر بتقديم إفطارهم للمحتاجين الجياع من شرائح المجتمع وبين إيثار الحسين (ع) في الطف بتقديم نفسه وعياله قرباناً وتضحية لله تعالى خمسون عاماً. وبين الإيثار الأول وهو ابن ست سنوات بوجود رسول الله (ص)، وبين الإيثار الأخير وهو في سن السادسة والخمسين من العمر غريباً وحيداً، رحلةٌ طويلةٌ مملوءة بالعلم والعبادة والعطاء غير المنقطع، والإخلاص لله تعالى، ولرسالته السماوية.

كان الإطعام خالصاً لوجه الله تعالى: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا)[17]، كما كان الإستشهاد في الطف خالصاً لوجه الله تعالى، وما بين هذا وذاك صفحاتٌ مضيئةٌ من تاريخ أهل البيت (ع).

وكما أن حكم إطعام الأسير من أسارى المشركين قد نظرَ إلى الإنسان ككائن كريم ينبغي أن لا يجوع، مؤمناً كان أو مشركاً، مسالماً كان

---

[16] سورة الإنسان: الآية 8-10.

[17] سورة الإنسان: الآية 9.

أو محارباً، كما صرحَ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[18]، كان سقي الإمام الحسين (ع)، وهو في طريقه إلى الكوفة، الجنود العطاشى في كتيبة الحر بن يزيد الرياحي في زهاء ألف فارس هم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة. فأمر الحسين (ع) فتيانه بسقايتهم وإروائهم من الماء، وترشيف الخيل ترشيفاً، ففعلوا ما أمرهم (ع) وملئوا القصاع وأرشفوا الخيل وشربوا حتى رووا.

ولم يتوقف الإرواء على إعطائهم الماء، بل قام الحسين (ع) بمساعدتهم على السقاء، يقول أحد الجنود الذين كانوا مع الحرّ: لما رأى الحسين (ع) ما بي وفرسي من العطش قال: (أَنِخِ الرّاوِيَةَ)، والراوية في لغة العراق السقاء، وفي لغة الحجاز الجمل. فاختلط الأمر على الجندي، فقال له الحسين (ع): (يا بنَ الأخِ أَنِخِ الجَمَلَ)، فانخته فقال: (إِشْرَبْ)، وكلما شربتُ سالَ الماءُ من السقاء، فقال الحسين (ع): (إِخْنِثِ السَّقاءَ) أي اعطفه. فلم أدرِ كيف أفعل، فقامَ فخنثه، فشربتُ وسقيتُ فرسي[19].

كانت سقاية الإمام الحسين (ع) في صحراء البادية لكتيبة الحر الرياحي بمثابة النظر إلى الإنسان ككائنٍ كريمٍ ينبغي أن لا يموت عطشاً، مع وجود الماء عند الطرف الآخر. ولكن – وبإستثناء قائدهم الحرّ الرياحي – وعندما توفر الماء في كربلاء لهؤلاء الجنود، منعوا الحسين (ع)

---

[18] سورة الإنسان: الآية 8.

[19] تاريخ الطبري ج 3 ص 305.

من الوصول إلى مصدره، معبّرِين في ذلك المنع عن الجانب المظلم عند الإنسان عندما يسوقه الشر إلى الإيغال في الظلم والقسوة!

الثاني: المباهلة: أثبتت المباهلة وحدة مصير أهل البيت (ع)، فعندما تحدى نصارى نجران النبي محمد (ص) بألوهية عيسى المزعومة، أمره الله تعالى بأخذ أحب الناس إليه، وعرْضِهم للمباهلة، أي الملاعنة وإنزال العذاب بالكاذب. فجاء مصطحباً علي بن أبي طالب (ع) الذي سمّاه بـ (نفسي) مع أنه ابن عمه، وفاطمة الزهراء (ع) التي سماها بـ (نساءنا) مع أنها ابنته، والحسن والحسين (ع) الذي سماهما بـ (أبناءنا) مع أنهما حفيداه، حيث قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[20].

رفعت المباهلة العلاقة الدينية بين النبي محمد (ص) وأهل بيته (ع) إلى مستوى أعلى من العلاقة الرحمية، فجعلت علي (ع) بمنزلة نفس النبي (ص)، والحسن والحسين (ع) بمنزلة ابناه، وفاطمة (ع) بمنزلة أمُّ أبيها ونساءه.

وتلك العلاقة الدينية علاقة مبدأ، حيث تمثّلُ النفس والأبناء والنساء – بالمفهوم الديني الجديد – ترابط المبدأ الرسالي، فتلك أسرةٌ رساليةٌ

---

[20] سورة آل عمران: الآية 59 – 61.

مرتبطةٌ بالعلم والتقوى، والبذل والتضحية والإيثار. وكل شيء في تلك الأسرة المثالية مرتبطٌ بالسماء ورسالتها.

وبعد خمسين عاماً، وقف الحسين (ع) موقفاً مشابهاً، ولكن ليس أمام نصارى نجران، بل أمام جيش الكوفة بمن تخلَّقَ بأخلاق بني أمية. خصوصاً عندما تقدم ابنه علي بن الحسين (ويُعرف بعلي الأكبر) للقتال، وعمره واحد وعشرون سنة، نظر إليه الحسين (ع)، وكأنه أراد أن يباهل به هؤلاء القوم كما باهلَ جده المصطفى (ص) به وبأخيه (ع)، وبأمه وأبيه (عليهما السلام)، ثم قال: (اللهمَّ اشهدْ على هؤلاءِ، فقد بَرَزَ إليهم أشبُه الناسِ خَلقاً وخُلُقاً ومنطِقاً برسولِك محمد (ص)، وكُنَّا إذا اشتقْنَا إلى رؤيةِ نبيِّك نظرْنَا إليه ...)[21].

الثالث: حادثة الكساء وآية التطهير: والأمر الثالث الذي له رمزية خطيرة على صعيد الإسلام ما سُمي بحديث الكساء، وهو أن كساءً واحداً جمع أهل البيت الخمسة (ع)، وهم: خاتم الأنبياء محمد (ص)، والإمام علي بن أبي طالب (ع)، والصدّيقة فاطمة الزهراء (ع)، والإمام الحسن (ع)، والإمام الحسين (ع). وهم المذكورون في سورة الإنسان في موضوع الإيثار، وهم نفسُهم المذكورون في سورة آل عمران في موضوع المباهلة أيضاً.

---

[21] الملهوف على قتلى الطفوف – ابن طاووس ص 67.

فهؤلاء الأطهار (ع) وإن عاشوا تحت سقف مسجد واحد ترتبطُ به منازل النبي (ص) ومنزل فاطمة (ع)، إلا أنه (ص) أرادها واضحةً بيّنةً لكل من له سمعٌ أو آذان، أن يسمع قوله (ص): (اللهم أنّ هؤلاء أهل بيتي وحامتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)[22].

وفي روايةٍ أكثر تفصيلاً، قال (ص): (اللهم إنَّ هؤلاءِ أهل بيتي وخاصَّتي، وحامَّتي، لحمهم لحمي، ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم، ويحزنني ما يُحزنهم، أنا حربٌ لمن حاربهم، وسلمٌ لمن سالمهم، وعدوٌّ لمن عاداهُم، ومُحبٌّ لمن أحبهم. إنهم مني وأنا منهم، فاجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك عليَّ وعليهم، وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)[23].

أرادها (ص) واضحةً جليةً بأن أهل بيته (ع) هم القدوة الذين يجب طاعتهم (ع)، وهم الرموز العليا للمعاني السامية في الإسلام، وإن كل ما يصيبهم من ألمٍ أو حزنٍ أو سلمٍ أو حربٍ إنما يصيبه (ص) هو بالذات.

ولنا أن نتسائل: هل رنّتْ أصداء تلك الكلمات الشريفة من نبي الرحمة وخاتم المرسلين (ص) في مسامع الناس بعد خمسين سنة من ورودها؟ أين قوله (ص): (أنا حربٌ لمن حاربهم، وسلمٌ لمن سالمهم)؟ ألم تكن واقعة الطف ضد الحسين (ع) حربٌ ضد النبي (ص)؟

---

[22] صحيح مسلم ج 2 ص 283.

[23] المنتخب – الطريحي ص 253.

إستمع إلى الإمام الحسين (ع) وهو يخاطب معاوية ويذكّره بعمق إرتباطه برسول الله (ص)، ويقول: (أنا ابنُ ماءِ السماءِ، وعروقِ الثَّرى. أنا ابنُ من سادَ أهلَ الدنيا بالحَسَبِ الناقِبِ، والشرفِ الفائقِ، والقديمِ السابقِ، أنا ابنُ مَنْ رضاهُ رضى الرحمنِ، وسَخَطُهُ سَخَطُ الرحمنِ ...)[24].

هذا ما ورثه الحسين (ع) من جده المصطفى (ص) حباً لا يقدّر بثمن، وعلماً جمّاً صافياً من السماء كصفاء الماء من عيون الجبال. فلم يورِّث النبي (ص) عندما توفي في السنة الحادية عشرة للهجرة لأبنته الوحيدة (ع) مالاً، إنما ورثَّ لها العلم والمعرفة. وكذلك الحسنين (ع) فلم يورِثا مالاً، إنما وَرثا منه (ص) العلم، والصفات الفاضلة. فلما أتت فاطمة الزهراء (ع) مصطحبةً الحسن والحسين (ع) تقودهما بفخرٍ إلى أبيها المشغوف بحبهما، سائلةً إياه (ص) بتوريثهما، قال (ص): (أما حسنٌ فإن له هيبتي وسؤددي[25]، وأما حسينٌ فإن له جرأتي وجودي)[26].

وهكذا كان، فقد وَرَثَ الإمام الحسين (ع) من جده المصطفى (ص): الجرأة والجود، صفتان فاضلتان بذلهما خالصتين لوجه الله تعالى. فمن مصاديق الجرأة: عدم المبالاة بالموت في الله، والتضحية والإيثار. ومن مصاديق الجود بيع النفس لله تعالى. والجود بالنفس أقصى غاية الجود، كما قالت العرب:

---

[24] إحقاق الحق – التستري ج 11 ص 595.

[25] السؤدد: المجد والسيادة والشرف.

[26] أسد الغابة – ابن الأثير ج 5 ص 467.

يجودُ بالنفسِ إن ضنَّ البخيلُ بها +++ والجودُ بالنفسِ أقصى غاية الجودِ

ما بعد رحيل: رسول الله (ص) وفاطمة الزهراء (ع)

عَظُمَ مصاب الحسين (ع) بفقدان جده المصطفى (ص) في الثامن والعشرين من صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، وفقدان أمه الزهراء (ع) في الثالث عشر من جمادي الأولى من نفس السنة، أي من وفاة جده المصطفى (ص) إلى وفاة أمه الزهراء (ع) أقل من ثلاثة أشهر.

فقد تسارعت الأحداث خلال تلك الفترة، وهو لا يزال حدثٌ لم يدخل سن الثامنة بعد، لكنه كان يتذكر وصايا رسول الله (ص)، وما جرى على أبيه علي بن أبي طالب (ع)، وما جرى على أمه البتول فاطمة بنت النبي محمد (ص) من أحداث.

وبعد وفاتها (ع) غسّلها الإمام علي (ع)، وحنّطها من فضلة حنوط رسول الله (ص)، وكفّنها، ثم نادى أبناءها وبناتها للتزود من أمهم (ع) قبل الفراق. فأقبل الحسن والحسين (ع) وهما يناديان: (واحسرتا لا تنطفئ أبداً من فقدِ جدنا محمد المصطفى (ص)، وأمُنّا الزهراء (ع). يا أمَّ الحسن، يا أمَّ الحسين إذا لقيتِ جدّنا محمداً المصطفى (ص) فاقرئيه منا السلام ...)[27].

ويمرّ الزمنُ مسرعاً، ولا نعلم من سيرة الإمام الحسين (ع) من السنة الثانية عشرة للهجرة وحتى السنة الخامسة والثلاثين أي حوالي أربع

---

[27] بحار الأنوار ج 43 ص 179.

وعشرين سنة إلا القليل المتناثر في كتب التاريخ. ويا لها من خسارةٍ عظيمةٍ للثقافة الإنسانية أبعدتْ أهل البيت (ع) من أخذ دورهم الطبيعي في حياة المسلمين! ولكن مع ذلك هناك القليل من شذراتِ أقوال الإمام (ع) الحسين (ع) وحكمه في مناسبات:

فعندما نُفي أبو ذر (رضوان الله عليه) إلى الربذة من قبل الخليفة الثالث لإعتراضه على أسلوب العطاء والصرف في بيت مال المسلمين، شيّعه الإمام أمير المؤمنين (ع) مع ابنيه الحسن والحسين (ع)، وغيرهم من المؤمنين.

والملفِت مخاطبة الإمام الحسين (ع) لأبي ذر، وهو قولٌ مختصرٌ لكنه جامعٌ مانعٌ، ثريٌّ في المعاني، قال (ع): (رحمك الله يا أبا ذر، إن القومَ إنما إمتهنوك بالبلاء، لأنك منعتهم دينك، فمنعوك دنياهم. فما أحوجك غداً إلى ما منعتهم، وأغناك عما منعوك)[28]. وهو قولٌ يعكس ما كان يجيشُ في فؤاده (ع) من القوة في الله، والوقوف مع الحق.

فهو يقول لأبي ذر: إن محنتك هي أنك لم تبع نفسك لهم، بل ثبتَّ على دينك ومنعتهم من مقايضة دينك بدنياك. وهذا القول دليلٌ قويٌّ على أن الإمام الحسين (ع) كان قوياً صلباً مع الحق من البداية، ولذلك فلم يكن موقفه عند رفض بيعة يزيد بن معاوية لاحقاً وليد الساعة، بل كان (ع) يسير على منهج الثبات على الحق، واستراتيجية الجهاد مع الإيثار العظيم، من بداية حياته.

---

[28] بحار الأنوار ج 32 ص 412.

في عهد والده الإمام أمير المؤمنين (ع)

لما تسنّم[29] الإمامُ عليٌّ بن أبي طالب (ع) الخلافةَ خرج إلى المسجد متعمماً بعمامة رسول الله (ص)، لابساً بردته (ص)، متنعلاً نعله (ص)، متقلداً سيفه (ص)، ثم خطب خطبته الشهيرة: (... هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله، هذا ما زقّني رسول الله زقاً زقاً، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين...)[30]. إلا أنهم لم يسألوه سؤالاً ذاتَ مغزى لأنهم لم يمتلكوا أدوات العلم، ولم يمتلكوا العلم الكافي للسؤال والإستفهام والتلقي!

ثم طلب (ع) من الحسين (ع) أن يتكلم في تلك المناسبة الفريدة، فصعد المنبر فحمد الله وصلى على النبي صلاةً موجزة، ثم قال (ع): (معاشِرَ الناسِ سمعتُ رسولَ اللهِ (ص) وهو يقول: أنّ علياً (ع) مدينةُ هدى، فمن دخلها نجى ومن تخلف عنها هلك)[31].

فأوجزَ الكلام في حضرة أبيه (ع)، لكنه قدَّمَ معنىً يعدُّ بمثابة دستور دولة الإمام علي (ع). فالخليفة الجديد مدينةُ هداية، لمن شاء أخذَ بها فاهتدى، ومن شاء تخلّفَ عنها فهلك. وقوله (ع) يحاكي القرآن الكريم في قوله تعالى: (... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[32].

---

[29] تسنَّمَ: من سنَّمَ الشيء أي رفعه وأعلاه. وتسنَّمَ الخلافة أي رفعها إلى مستوى الفضيلة، ولم ترفعه بشيء.

[30] أمالي الصدوق ص 280.

[31] أمالي الصدوق ص 280.

[32] سورة الرعد: الآية 7.

وما ميّزَ شخصية الحسين (ع) في تلك الفترة من حياته ميزتان: البلاغة، والشجاعة.

أولاً: فعلى صعيد **البلاغة،** فقد أجرى الله تعالى على لسانه (ع) ينابيع الحكمة والمعرفة، ففي دعاء الإستسقاء يقول (ع): (اللهمَّ مُعْطِي الخيراتِ ومُنْزِلَ البركاتِ أرسِلْ السماءَ علينا مِدْراراً، واسقِنْا غيثاً مِغْزاراً، واسعاً غَدَقاً، مُجَلَّلاً سَحّاً[33]، سُفُوحاً[34] فُجاجاً[35]، تُنَفّسُ بهِ الضَّعفَ من عبادِكَ وتُحيي بهِ الميّتَ من بلادِكَ، آمينَ ربَّ العالمين)[36].

وفي خطابه (ع) لأهل الكوفة عندما أمره أبوه (ع) حثّ الناس على مواجهة معاوية واتباعه، قال (ع): (يا أهلَ الكوفةِ أنتم الأحبة الكُرماءُ، والشِّعارُ دون الدِّثارِ، فجِدُّوا في إحياءِ ما دَثَرَ بينكم، وتسهيلِ ما توعَّرَ عليكم[37]. ألا إنَّ الحربَ شرُّها ذريعٌ[38]، وطعمُها فظيع، وهي جُرَعٌ مُستحساةٌ، فمَنْ أخذَ لها أهبَّتَها، واستعدَّ لها عُدَّتَها، ولم يألم كلُومَها عند حُلولِها فذاكَ صاحبُها. ومَن عاجلها قبل أوانِ فُرصتها واستبصارِ سعيهِ

---

[33] سَحّاً: صبّاً غير منقطع.

[34] سَفَحَ سُفوحاً: إنصبَّ صباً.

[35] فُجاجاً: الماءُ الذي يشق الأرض.

[36] عيون المعجزات – حسين بن عبد الوهاب ص 64.

[37] توعَّرَ: تعسّر وصعب.

[38] ذريعٌ: فظيعٌ.

فيها فذاك قَمَنٌ[39] أن لا ينفَعَ قومَهُ وأن يهلك نفسَهُ. نسألُ اللهَ بقوتِهِ أن يُدْعِمَكُمْ بالفئة)[40]. كان زمن ذلك الخطاب أكثر من عشرين عاماً من واقعة الطف. لكن في السنة الستين للهجرة تغيرت الناس، وتقلبت الأهواء، وأصبح الغدر، وتغير الولاء سمة العصر!

ولما سُئلَ عن سبب تجوال أمير المؤمنين (ع) في طرق البصرة عشية معركة الجمل بثوبين دون لبس الدرع أو حمل السيف، أجاب الحسين (ع): (حَمَلَهُ على ذلك علمُهُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطِئَهُ، وأنَّ ما أخطأَهُ لم يكن ليُصيبَهُ)[41].

ثانياً: وعلى صعيد **الشجاعة،** فقد رافق الإمام الحسين (ع) والده أمير المؤمنين (ع) في جميع معاركه مع الناكثين والقاسطين والمارقين، وكان فيها بطلاً مقداماً.

ففي صفين، عندما اشتكى المسلمون العطش، لأن جنود معاوية البغاة منعوا الماء عن جيش الإمام أمير المؤمنين (ع)، مضى الحسين (ع) إلى نهر الفرات في كتيبةٍ من الجنود بعد أن أخذ إذن والده (ع)، فهزمهم، وبنى خيمته وحطّ فوارسه، فكان أولُ فتحٍ فُتِحَ ببركة الحسين (ع).

---

[39] قَمَنٌ: جديرٌ.

[40] بحار الأنوار ج 32 ص 405.

[41] نور الثقلين – الحويزي ج 2 ص 28.

وبعد حوالي عشرين سنة يتصرف جيش بني أمية تصرفاً مشابهاً بمنع الماء عن الحسين (ع) وأصحابه وأهل بيته (ع). وليس من أخلاقية القتال في الإسلام منع الماء عن الإنسان في أي فئةٍ كان إنحيازُه! وقد بلغ بالبعض الإدعاء بأن المسلمين في بدر منعوا الماء عن المشركين، وهو ليس كذلك! كما سيأتي بإذنه تعالى.

والفارق إن معركة صفين لم يكن فيها عيالٌ ولا صبيةٌ ولا رضعٌ، بينما كان العيال والصبية في الطف. وكان تعداد جيش الإمام أمير المؤمنين (ع) في صفين، وهو جيش الدولة الرسمي أكثر من مائة ألف مقاتل أمامَ عددٍ مقاربٍ من جيش معاوية. أما في معركة الطف فقد كان جيش بني أمية آلافاً مؤلفة، بينما كان معسكر الإمام الحسين (ع) لا يتجاوز اثنين وسبعين رجلاً استشهدوا جميعاً.

وكان أمير المؤمنين (ع) يتحرز من اندفاع الحسنين (ع) نحو القتال مخافة انقطاع نسل رسول الله (ص). فكان يقول: (أيها الناس، إملكوا عني هذين الغلامين [يقصد الحسن والحسين عليهما السلام]، فاني أنفسُ بهما عن القتل أخاف أن ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله)"[42]. وفي ذلك دلالة على شجاعة الحسين (ع) في معارك صفين، وغيرها من معارك الإسلام.

لم تدم خلافة العدل والإيمان والتقوى إلا أربع سنوات ونيّف. فاستشهد الإمام أمير المؤمنين (ع) في الليلة الحادية والعشرين من شهر

---

[42] جواهر العقدين – السمهودي ص 211.

رمضان سنة أربعين للهجرة. فخرجَ العالَمُ يبكي علياً (ع)، وكان الحسين (ع) يردد: (لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ. إنا للهِ وإنا إليه راجعون ...)[43]. وسوف يردد (ع) ذلك الذكر العظيم كثيراً في حياته، خصوصاً في اللحظات الأخيرة في الطف.

يصفُ أبو عبد الله (ع) دفن أبيه الإمام (ع) قائلاً: (خرجنا به ليلاً حتى مررنا بهِ على مسجدِ الأشعثِ، حتى خرجنا بهِ إلى ظهرِ ناحيةِ الغريّ)[44]. وتكتم الحسنان على موقع دفن أبيهما (ع) مخافةَ أن تنبشه بنو أمية.

ولا فارق عند بني أمية بين نبش قبر الإمام أمير المؤمنين (ع) وبين ترك أجساد الشهداء من ذرية النبي (ص) عاريةً في صحراء الغاضرية تأكلها السباع الضارية! فهم أبعد ما يكونون عن عدل الإسلام، وسماحته العليا، وأخلاقه الفاضلة.

في ظل أخيه الإمام الحسن (ع)

تميزت فترة صحبة الحسين (ع) لأخيه الإمام الحسن (ع) بعد استشهاد والدهما (ع)، والتي أمتدت لعشر سنوات، بعلامتين:

الأولى: الطاعة التامة لأخيه الإمام الحسن (ع): فقد كان الحسين (ع) يطيع الحسن (ع) طاعة تامة لأنه إمامٌ زمانه المفترضُ الطاعةِ، وكان لا

---

[43] بحار الأنوار ج 42 ص 295.

[44] كامل الزيارات ص 34.

يتكلم بمحضره فيما يخص مسائل الإمامة الكبرى، مع أن الفرق بين سنّيهما لا يتجاوز ستة أشهر أو تسعاً على أكثر التقادير.

فقد كان الإمام الحسن (ع) الخليفة المنصوص عليه من قبل رسول الله (ص)، ومن قبل أمير المؤمنين علي (ع)، إلا إن معاوية بن أبي سفيان، وهو الباغي على الإمام المنصوب (ع) سارَ بجيشٍ نحو العراق. فما كان من الإمام (ع) إلا التهيؤ لتنظيمِ جيشٍ موازٍ لمواجهة جيش الشام، لكن النخبة من قادة الإمام الحسن (ع) خانوا الأمانة، يكشفه لنا كتاب الإمام الحسن (ع) لهم: (يا أهل العراق ما أصنع بجماعتكم معي وهذا كتاب قيس بن سعد[45] يخبرني بأنّ أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية. أما والله ما هذا بمنكرٍ منكم ...)[46].

وخيانة النخبة تعدُّ من أعظم المحن التي تزعزع الحركات الدينية أو الإجتماعية، لأن الإمام الحق أو القائد إنما يعتمد على النخبة في تنظيم العمل الإجتماعي والديني مع الأمة.

---

[45] ورد في المصادر التاريخية: "ولم يزل قيس بن سعد مع علي حتى قُتِلَ علي، فصار مع الحسن بن علي. فوجهه على مقدمته يريد الشام. ثم صالح الحسن بن علي معاوية، فرجع قيس إلى المدينة فلم يزل بها حتى توفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان" الطبقات الكبرى لإبن سعد ج 6 ص 34. والظاهر: أن الهدنة سُميت صلحاً، وهكذا سارت الروايات في كتب مدرسة الحديث. والأصح: هادنَ بشروط بدل صالحَ. فكانت هدنةً مشروطةً ولم تكن صلحاً. ولو كانت صلحاً دائماً لما خرج الحسين (ع)! لكننا ننقل النصوص كما هي للأمانة العلمية مع اختلافنا بمحتواها.

[46] الفتوح – ابن أعثم ج 3 ص 291.

وإذا كان أهل الشرف أو النخبة التي تطيع القائد وتنقل أفكاره إلى الناس قد تخلّت عن الإمام (ع)، فإن أي تحرك عسكري بدونها لا يكون سليماً. فلم يبقَ للإمام الحسن (ع) من خيار إلا إمضاء الهدنة مع معاوية، وهو (ع) كارهٌ لذلك.

وعلى صعيدٍ مشابهٍ نذكر أن الإمام الحسين (ع) أخذ بموقف النخبة في الكوفة أيضاً، فكانت رسائلهم تفصحُ عن دعوتهم له (ع)، وتصوّرٍ له وجود الناصر المدافع عن الحق الذي كان بحاجة ماسة إلى قائد يقوده نحو الهدى. لكنهم نكثوا العهد وخانوا الأمانة وهو في طريقه إليهم! فكان عليه (ع) أن يمضي في ذلك الطريق إلى النهاية.

نستقرأ من موقف الإمام الحسين (ع) عندما سأله الناس حول الهدنة مع معاوية، أنَّ رأيه (ع) كان مشابهاً لرأي أخيه (ع)، وبالتحديد فإنه (ع) قال: (قد كانَ صلحٌ ! ... فانتظروا ما دامَ هذا الرجلُ حيّاً، فإنْ يهلك نظرنا ونظرتم)[47]. كان كارهاً للهدنة، ولكنه كان مطيعاً لأمرِ أخيه (ع).

الثانية: النظرة البعيدة للأمور: لم يترك الإمام الحسين (ع) الأمور تجري دون تنظيم هدفٍ بعيدٍ، بل كان ينظر نظرةً بعيدةَ المدى، فهو يرى المستقبل الآتي بعينٍ ثاقبةٍ، ولذلك أوصى (ع) من جاءه من أتباع أهل البيت (ع) كمحمد بن بشر الهمداني، وسفيان بن أبي ليلى[48] وغيرهم:

---

[47] أنساب الأشراف – البلاذري ج 3 ص 150.

[48] من أصحاب الإمام الحسن (ع) (رجال الكشي ج 1 ص 6).

(ليكُنْ كُلُ امرئٍ منكم حِلْساً مِنْ أحلاسِ بيته[49] ما دامَ هذا الرجلُ حيّاً، فإن يُهلكْ وأنتم أحياءٌ رَجَونا أن يُخيّر اللهُ لنا، ويُؤتينا رُشدَنا، ولا يكلنا إلى أنفُسِنا (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)[50])[51].

وقد ورد قوله (ع) وهو في الرحيل من الكوفة: (مقامي بين أرضٍ وسماءٍ، ونُزولي حيثُ حَلَّتْ الشيعةُ الأصلابَ[52]، والأكبادَ الصُّلابَ[53]، لا يتضعضعنَ للضّيمِ، ولا يأنفونَ. تجرٌّ مفاصِلُهُمْ ليُحيىَ بهم أهلَ ميراثٍ على ورثةِ بيته)[54].

وتلك الرواية تدلّ على تنبؤه (ع) بمقتله في كربلاء، وعلى كراهيته للهدنة مع معاوية. لكن الإمام الحسن (ع) كان مجبوراً على قبول الهدنة بسبب خيانة النخبة من جيشه (ع) كما ذكرنا. وبكلمة، فقد كان الحسن والحسين (ع) يران المصلحة كلٌ بحسب حاله، ومقتضى زمانه، وكلاهما مصيبان: فهما الإمامان قاما أو قعدا.

---

[49] حِلْساً من أحلاسِ بيته: أي لا يبرحه.

[50] سورة النحل: الآية 128.

[51] انساب الاشراف ج 3 ص 150.

[52] الأصلاب: جمع صُلب، وهو الشديد القوي.

[53] الصُّلاب: الصُّلْب الفقار من الظهر، والمعنى أن مكانه (ع) بين شيعته حيث حلَّ الزمان، أي في جيله أو في الأجيال اللاحقة. وكان (ع) صادقاً في كل ذلك. فشيعته (ع) في كل جيل، وفي كل زمان.

[54] دلائل الإمامة – محمد بن جرير ص 75.

لم تكن فترة الإمام الحسن (ع) تمرّ دون مصاعب، بل كانت تحمل الكثير من التبعات المثقلة بالقيود، فقد نقض معاوية عهده معه (ع)، وقام بسجن أصحابه (ع) وقتلهم، وحاول قتل الإمام الحسن (ع) نفسه فسقاه السُم مرتين، ولكن الله تعالى أراد له إضافةً في الحياة، وفي المرة الثالثة كان السمُّ قاتلاً، توفي على أثره في آخر شهر صفر سنة تسع وأربعين[55].

وعندما دُفن (ع)، رثاه الإمام الحسين (ع) قائلاً: (... فإلى روحٍ وريحانٍ وجنّةِ نعيمٍ، أعظمَ اللهُ لنا ولكمُ الأجرَ عليهِ، ووهبَ لنا ولكم السلوةَ وحُسنَ الأسى عنه)[56].

فقام الإمام الحسين (ع) بعد ذلك بمهام الإمامة الشرعية.

إمامة الحسين بن علي (ع) (49 – 61 للهجرة)

بسبب الظروف الصعبة نَهَجَ الإمام الحسين (ع) منهجاً خاصاً في إمامته. فهو (ع) لم يدعُ إلى نفسه علناً بسبب التقية التي كان عليها، والهدنة التي تعهد بها أخوه الحسن (ع) إلى معاوية. فالتزم (ع) بذلك، وجرى في ذلك المنهج مجرى أخيه (ع). ففهمَ الناسُ الأمرَ، وأصبح الخواص يراجعونه بكتمان، ويفدُ إليه شيعته من المناطق الإسلامية المختلفة بسرية تامة.

---

[55] بحار الأنوار ج 44 ص 134.

[56] عيون الأخبار – ابن قتيبة ج 2 ص 314.

وخلال السنوات العشر بعد وفاة الحسن (ع)، قام الإمام الحسين (ع) بعملين رائدين، هما: إحترام العهد المبرم سابقاً، وتهيئة الأرض المناسِبة لقيامه (ع). نشرح ذلك بإختصار:

الأول: إحترام العهد المبرم: وهو العهد المتفق عليه بين الإمام الحسن (ع) ومعاوية ما دام حياً. ومع رغبة الناس في خروج الإمام الحسين (ع) سنة خمسين هجرية على بني أمية، إلا أنه (ع) إلتزم بالعهد المبرم بين أخيه الحسن (ع) ومعاوية. فكتب إلى أهل الكوفة الذين دعوه للخروج، بأنه ما زال على العهد المُبرم في السنة الحادية والأربعين من الهجرة. والأحرار لا تنقِض العهود، ولا تنتَهِك المواثيق.

وكان قد كتب (ع) إلى معاوية رسالة يُعلن فيها أنه ملتزمٌ بالعهد المبرم بينهما: (وأما ما ذكرتَ أنَّهُ انتهى إليكَ عني، فإنَّهُ إنما رقاهُ إليكَ الملاّقُونَ المشاّؤُنَ بالنميمِ، وما أريدُ لكَ حَرْباً ولا عليكَ خِلافاً...) [57]. وهذا لا يعني إن معاوية كان محقاً، بل لأن الإتفاق المبرم بين الطرفين ينبغي الإلتزام به شرعاً، حتى لو كان الطرف الآخر طرفٌ ظالمٌ لا يحترم المواثيق.

ويبدو أن الإمام الحسين (ع) قد علِمَ أن دعوة أهل الكوفة له بالخروج – في حياة معاوية – لم تكن صادقة على مستوى النوايا، بل كانت وسيلةً من وسائل استخدام أسم أهل البيت (ع) لمنافع خاصة كانوا

[57] رجال الكشي – الشيخ الطوسي ج 1 ص 250.

يبغونها، ولذلك أشار (ع) على محمد بن الحنفية بإنَّ: (القومَ إنما يُريدُون أن يأكُلُوا بنا، ويستطيلوا بنا، ويستنبطوا دماءَ الناسِ ودماءَنا)[58].

والمشهور إن الناس في العراق والحجاز قد بايعوا يزيد في حياة معاوية، لأن الأخير كان يدعو الناس لذلك. ويبدو أيضاً أن ذلك قد شجّع أهل الكوفة بالكتابة إليه (ع)، ودعوتهم بإلحاح للخروج إليهم في خلافة معاوية! فرفض إلتزاماً بالمبدأ الإسلامي في حرمة نقض العهد بعنوان أولي، وحفظاً على دماء المسلمين وأرواحهم وأعراضهم، بعنوان ثانوي.

وبالمقابل فقد دعا (ع) أهل الكوفة إلى ممارسة التقية الواجبة شرعاً في تلك الفترة الحرجة، فقال (ع): (فالصِقُوا بالأرضِ، وأخفُوا الشخصَ، واكتموا الهوى، واحترِسُوا من الأظماءِ[59] ما دامَ ابنُ هندٍ[60] حيّاً، فإنْ يحدُثْ به حَدَثٌ وأنا حيٌّ يأتِكُمْ رأيي إن شاءَ اللهُ)[61].

ولم يهدأ لمعاوية بالٌ وهو يرى الناسُ تمدُّ أبصارها إلى الإمام الحسين (ع)، فأشار على والي المدينة (الوليد بن عتبة) بأن يحجب أهل العراق عن ملاقاته (ع)، ففعل ذلك؛ فخاطبه الإمام (ع): (يا ظالماً لنفسهِ،

---

[58] البداية والنهاية – ابن كثير ج 8 ص 174.

[59] احترسوا من الأظَّماء: جمع الظَّمء، وهو حبس الأبل عن الماء إلى غاية الورِد. ومن المجاز: أنا ظمآنٌ إلى لقائِك. والمعنى: الإحتراس عن التردد إليه (ع) ما دام معاوية حياً.

[60] ابنُ هند: يقصد به معاوية بن أبي سفيان.

[61] أنساب الأشراف ج 3 ص 151.

عاصـياً لربّـهِ، عـلامَ تحـولُ بينـي وبـين قـومٍ عرفـوا مـن حقـي مـا جَهِلتَـهُ أنتَ؟)[62].

فالإمـام (ع) يـذكّر بـأن الإتصـال بالنـاس لا يمسّ الإتفـاق المبـرم، ذلـك لأن النـاس تعـرف منزلـة الحسـين (ع)، وموقعـه فـي الإسـلام، بينمـا جهلت بنـو أميـة منزلتـه (ع) أو تجاهلـت، بـل حاولـت تجهيـل النـاس بتلك المنزلة العظيمة عند الله تعالى ورسوله (ص).

الثاني: تهيئة الأرض لأمر الحسين (ع):

كان (ع) واعياً مدرِكاً لما ستجلبه السنوات العشر العجاف المقبلة مـن حكم معاويـة، ولـذلك كـان يبنـي خطتـه حجراً علـى حجر فـي جهـاد الظالمين، والخروج على الفاسقين الذين انتهكوا حرمة الدين الحنيف.

وجهـاد الحـاكم الظـالم أو الفاسـق يتطلـب خطـةً ومنهجـاً، فهـو لا يمكـن أن يـتمَّ بـين ليلـة وضـحاها، وهكذا بـذر الإمـام الحسـين (ع) بـذور مقارعة الظالمين الذين تولوا الحكم، وخالفوا وصية رسول الله (ص). ومن ذلك: إدانته علماء البلاط، ووعظ معاوية وجهاً لوجه، ووضع معالم للطريق في المستقبل المنظور.

أ- **إدانة علماء البلاط:** فقد شجع الوضع السياسي والإجتماعي الذي خلقه حكم بنـي أميـة علـى إنشـاء طبقـة مـن وعّـاظ السـلاطين، وعلمـاء الـبلاط. فانتشر في طول البلاد وعرضها من يمجّد السلطان، ويبرر ظلمه بالرعية،

[62] أنساب الأشراف ج 3 ص 156.

طلباً للمال والجاه. فوقف الحسين (ع) موقفاً قوياً جريئاً من هؤلاء، وأدان (ع) علماء السلاطين الذين كانوا يبررون للناس أعمال بني أمية تبريراً دينياً، فيربطونه بقضاءِ اللهِ تعالى وقدرهِ!

كتب (ع) رسالة بليغة موَجّهة إلى سلاطين البلاط، ذكَّرَ فيها بقاعدة كلية وهي قاعدة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسترشداً بقوله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...)[63]. وبتطبيق تلك القاعدة تستقيم الفرائض سهلُها وصعبُها، وتُرَدُّ المظالم، ويُخالَفُ الظالم، فيقعُ كلُ شيءٍ في موضعه، قال (ع):

(... أنَّ مجاري الأمورِ والأحكامِ على أيدي العلماءِ باللهِ، الأمناءِ على حلالهِ وحرامهِ، فأنتم المسلُوبونَ تلك المنزلةَ، وما سُلبتم ذلك إلا بتفَرُّقِكُمْ عن الحقّ واختلافِكُمْ في السُنَّةِ بعد البيّنةِ الواضحةِ، ولو صبرتُم على الاذى وتحمَّلتُم المؤُونةَ في ذاتِ اللهِ كانت أمورُ اللهِ عليكم تردُ، وعنكم تصدُرُ، وإليكم ترجِعُ. ولكنكم مكَّنتُمُ الظَّلمةَ من منزِلَتِكُمْ، وأسلمتُم أمورَ اللهِ في أيديهم يعملونَ بالشبهاتِ، ويسيرونَ في الشهواتِ.

سلَّطهُم على ذلك فرارُكُم منَ الموتِ وإعجابُكُم بالحياةِ التي هي مفارقتُكُم، فأسلمتُمُ الضُعفاءَ في أيديهم. فمِنْ بينِ مُستَعبدٍ مقهورٍ وبين مُستَضعفٍ على معيشته مغلوبٌ، يتقلَّبون في المُلكِ بآرائِهم ويستشعرونَ الخزيَ بأهوائِهم، إقتداءً بالأشرار، وجُرأةً على الجبار، في كلِّ بلدٍ منهم على

---

[63] سورة التوبة: الآية 71.

منبرِهِ خطيبٌ يصقعُ. فالأرضُ لهم شاغرةٌ، وأيديهم فيها مبسوطةٌ، والناس لهم خَوَلٌ لا يدفعونَ يدَ لامسٍ)[64].

أشار الإمام (ع) إلى إن علمهم الذي تعلموه ينبغي أن يرتبط بمواعظهم إبتغاءً لطلب الحق، لأن العالِمَ بالدين هو مدار اهتمام المجتمع، فالشريف يهاب العالِم، والضعيف يكرمه، وعموم الناس يؤثرونه على أنفسهم؛ وكلُّ ذلك بسبب فضل العلم.

فلابد للعالِم من القيام بحق الله تعالى في مساعدة الضعيف، ونصرة المظلوم، وقول الحق، وإزهاق الباطل. ولكن علماء البلاط لا يعملون بذلك مداهنةً لسلاطينهم ورؤسائهم. فقد وضعوا قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في خانة مهملاتهم، وسلّموا في أيدي السلاطين أمور الله تعالى، حيث يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات.

والملاحَظ إن الإمام (ع) يُرجِع سبب خنوع هؤلاء الوعّاظ لسلاطينهم إلى مسألة نفسية، وهي فرارهم من الموت، وإعجابهم بالحياة مع الترف والبذخ، وإقتدائهم بالإشرار، وجرأتهم على الجبار. فما منهم إلا غاشٍ غشومٍ، ومتصدّقٍ ظلومٍ، وعاملٍ غيرِ رحيم.

وكأنه أرادَ أن يذكّرهم بأن الشهادة مع الأباء والكرامة أفضل من العيش مع الذل تحت رحمةِ حاكمٍ ظالمٍ فاسقٍ. أو بكلمة أخرى إنّ خنوعهم للحاكم الظالم كان سببه الفرار من الموت. وقد أثبت (ع) أن كلماته

---

[64] تحف العقول – ابن شعبة ص 168.

الشريفة لا تتقادم مع الزمن، فبعد عشر سنوات قال كلاماً مشابهاً قبل الطف بقليل: (لا واللهِ لا أُعطيهم بيدي إعطاءَ الذليلِ، ولا أُقِرُّ إقرارَ العبيدِ! عبادَ اللهِ (...إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ)[65]، (...إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)[66]...)[67]. وكأنه أراد أن لا يطلق الكلمات دون أن يطبّقها على أرض الواقع حرفاً بحرف، وكلمةً بكلمة؛ فما قاله أول حياته (ع) يطبقه في آخر حياته. وما طبّقه أول حياته (ع) قاله قبل مماته. تلك عظمة الحسين (ع)، وإمامته.

ثم ختم (ع) رسالته بتذكيرهم بأن نصيحته لهم ليست تنافساً في سلطانٍ فانٍ، ولا إلتماساً في حطام دنيا زائلة، بل هو إظهارٌ للإصلاح في أرض الله تعالى، فقال (ع): (اللهمَّ إنكَ تعلمُ إنه لم يكُنْ منّا تنافساً في سلطانٍ، ولا إلتماساً من فُضُولِ الحُطامِ، ولكن لِنُرِيَ المعالِمَ من دينكَ، ونُظهِرَ الإصلاحَ في بلادِكَ، ويأمنَ المظلومونَ من عبادِكَ، ويُعمَلَ بفرائضِكَ وسُنَّتِكَ وأحكامِكَ، فإنّكم إلاّ تنصُرونا وتنصفونا قويَ الظلمةُ عليكم، وعَمِلوا في إطفاء نورِ نبيكم)[68].

ب – وعظ معاوية بن أبي سفيان وجهاً لوجه: وعندما سافر معاوية للحج سنة خمسين للهجرة، وكان هدف الرحلة أصلاً الدعوة لإستخلاف ابنه يزيد؛

---

[65] سورة الدخان: الآية 20.

[66] سورة غافر: الآية 27.

[67] مقتل الحسين – أبو مخنف ص 86.

[68] تحف العقول ص 168.

وكان ذلك بعد وفاة الإمام الحسن (ع). وصل المدينة المنورة ضمن مسعى لكسب البيعة المبكرة ليزيد من قبل عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عباس، وأراد منهم الإقرار بصحة خلافة يزيد. والظاهر أنهم أقروا له بذلك تحت التأثير والتهديد والوعيد والإغراءات المالية.

لكن بقي الإمام الحسين (ع) عقبةً أمامه، فكيف يقوم معاوية بن أبي سفيان بمساومة إمامٍ حبيبٍ لرسول الله (ص)، ذو صلابةٍ في مبدأه الشرعي، وذو قوةٍ في علمه ومعرفته؟ لم يتسنَ لمعاوية وحاشيته القيام بذلك! لكن الإمام (ع) فاجأهم بهجومٍ لاذعٍ دمَّرَ متبنياتهم وخططهم.

فما أن سنحت الفرصة للإمام (ع) بالتكلم في موقفٍ جمعه مع معاوية، حتى قام (ع) يُدينُ أفعال معاوية في تفضيل الظالمين، والإستئثار بأموال المسلمين، ومنع عطاء فقراء المؤمنين الموالين لأهل البيت (ع)، وركب الأعاليل، وفعل الأفاعيل، فقال (ع) مخاطباً معاوية وجهاً لوجه:

(... وفهمتُ ما ذَكرتَهُ عن يزيدَ من إكتمالِهِ وسياستِهِ لأُمةِ محمدٍ، تُريدُ أن تُوهِمَ الناسَ في يزيدَ، كأنّكَ تصِفُ محجوباً، أو تنعِتُ غائباً، أو تخبِرُ عما كان مما احتويته بعلمٍ خاصٍّ، وقد دلَّ يزيدُ من نفسهِ على موقعِ رأيه، فخُذْ ليزيدَ فيما أخذَ به من استقرائهِ الكلابَ المُهارشَةَ عند التحارُش[69]،

---

[69] الكلاب المهارشَة: هي الكلاب التي تتواثب على بعضها البعض. يُقال: الإهتراشُ: هو تقاتلُ الكلابِ. والتهريش بين الكلاب: التحريشُ بينها.

والحمامِ السَّبْقِ لأترابِهِنَّ[70]، والقيناتِ ذواتِ المعازفِ[71]، وضروبِ الملاهي، تجدْهُ باصِراً، ودعْ عنك ما تُحاوِلُ.

فما أغناك أن تلقى اللهَ في جور هذا الخلقِ بأكثرَ مما أنتَ لاقيه، فوَاللهِ ما برِحتَ تُقدِّرُ باطلاً في جورٍ، وحَنَقَاً في ظلمٍ، حتى ملأتَ الأسقيةَ، وما بينك وبين الموتِ إلا غمضَةٌ، فتقدِمَ على عملٍ محفوظٍ في يومٍ مشهودٍ، ولاتَ حينَ مناصٍ. ورأيتُكَ عرضتَ بنا بعد هذا الأمرِ، ومنعتنا عن آبائنا، ولقد – لعمرُ اللهِ– أورثنا الرسولُ (ص) ولادةً، وجئتَ بها [عند] ما حاججتُمْ به القائمَ[72] عندَ موتِ الرسولِ. فأذْعَنَ للحُجَّةِ بذلكَ، وردَّهُ الايمانُ إلى النصفِ، فركبتمُ الأعاليلَ، وفعلتُمُ الأفاعيلَ، وقلتم: كانَ ويكونُ، حتى أتاك الأمرُ يا معاويةُ من طريقٍ كان قصْدُها لغيركَ...)[73]. وفصاحةُ لسانه (ع)، وقوة حجته (ع) يغنينا عن الشرح والإسهاب.

وعندما ذهب معاوية إلى العمرة، وزار المدينة المنورة ثانية في سنة ست وخمسين للهجرة لم يتجرأ على دعوة الإمام الحسين (ع) لفتح موضوع بيعة يزيد مرة أخرى. وبقي الأمر على ذلك الحال حتى موت معاوية.

---

[70] الحمام السبَّق لأترابهن: الحمامُ جنسٌ من الطير، والسبَّق لأترابهن: هو الحمام الذي يدربه صاحبه للتسابق واللهو.

[71] القينات ذواتِ المعازفِ: المغنيّات مع أدوات طربهنَّ.

[72] القائم: يقصد به الإمام علي بن أبي طالب (ع).

[73] تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 228.

وضع معالم الطريق

(طريق الخروج على الحاكم الفاسق)

خطط الإمام الحسين (ع) للخروج على يزيد بن معاوية بإعتباره إنساناً لا يليق بالخلافة، منذُ أن طُرِحَ اسم يزيد كخليفة مستقبلي يرث معاوية بن أبي سفيان. كان ذلك بعد استشهاد الإمام الحسن بن علي (ع) بقليل. يدلُّ على ذلك نتائج سفرات معاوية إلى العراق والحجاز، خصوصاً السفرة الأولى للمدينة المنورة سنة خمسين للهجرة محاولاً إقناع الإمام الحسين (ع) مع آخرين بصحة خلافة يزيد. فكانت استراتيجية الإمام الحسين (ع) هو أن يبني أساساً فكرياً لتثبيت ولاية أهل البيت (ع)، ويهدم قواعد ولاية الحاكم الفاسق.

أولاً: تثبيت دور أئمة أهل البيت (ع) في الأمة:

خشيَّ الإمامُ الحسين (ع) إنزلاق الأمر بالمسلمين في ظل حكم أقرب إلى العلمانية والفجور إلى إهمالهم دينهم، فيندرس ذكر الله تعالى، ويصبح الدين السماوي في خبر كان. وقد صرح بتلك المخاوف في حجه في السنة التاسعة والخمسين للهجرة، أي قبل موت معاوية بسنة واحدة، وكان معه عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وجمعٌ من بني هاشم، وجمعٌ من مواليه واتباعه، قال (ع):

(أما بعدُ: فإنَّ هذا الطاغيةَ قدْ فعلَ بنا وبشيعتنا ما قد رأيتُمْ وعلِمتُم وشهِدتُم، وإني أريدُ أن أسألَكُم عن شيءٍ ... اسمعُوا مقالتي واكتُبْوا قولي ثم ارجِعوا إلى أمصارِكُم وقبائلِكُم فمَنْ أمنتُم من الناسِ ووثقتُم بهِ فادعوهُمْ إلى

ما تعلمونَ من حقنا، فإني اتخوَّفُ أن يدرُسَ هذا الأمرُ، ويذهَبَ الحقُ ويُغلَبْ (... وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[74]...)[75]. ثم حدثَّهم بولاية علي بن أبي طالب (ع)، وما جرى في شأنها من أحداث ووقائع.

أنصبَّ حديث الإمام الحسين (ع) على التذكير بفضائل النبوة والإمامة مخافة إندراس الأمر، وذهاب الحق، وتغلب الباطل عليه. ولاشك أن التذكير بالثقلين في تلك المناسبة، وقبل سنة من إستشهاده (ع) فيه دلالة على إهتمام الإمام (ع) بنقل الأمانة الدينية سليمةً صافيةً مصانةً عن التحريف؛ تماماً كما فعل النبي (ص) يوم الغدير قبل سبعين يوماً من وفاته (ص).

ينبغي التذكر بأن أهل البيت (ع) كانوا يحاربون سياسة بني أمية في سب عليّ (ع) من على منابرهم، عبر ذكر فضائله (ع) في الحج والمناسبات التي كانت تتاح لهم.

وكان الحسين (ع) يجمع الناس في المناسبات من أجل ذكر فضائل أمير المؤمنين علي (ع) في وقت كان فيه بنو أمية يلعنون في أذانهم وإقامتهم خمس مرات في اليوم، من باهلَ (ص) به نصارى نجران. وتلك القضية تستحق وقفة تأمل، فقد كان بنو أمية لا يعبأون بلعن من تبقى من أهل البيت (ع) فحسب، بل بقتلهم بطريقة لم يسبقهم إليها سابق!

---

[74] سورة الصف: الآية 8.

[75] (كتاب) سُليم بن قيس ص 168.

وبهدفِ فهمٍ أفضلٍ لمهمة الحسين (ع) في تثبيت دور أهل البيت (ع) في أمة محمد (ص)، فسوف نناقش ذلك على نطاقين: فكري وإجتماعي.

أ- **على النطاق الفكري:** كانت وظيفة الإمام الحسين (ع) إعلام الأمة بدينها، وتذكيرها بواجباتها، وتصحيح مواقفها، وإرشادها إلى الفضائل. وكان من أساليبه (ع) في الإرشاد الإختلاط بالناس، ومعرفة وجوه القوم، وإجابتهم على مسائلهم مباشرة دون وسيط.

فعندما يعلِّم الناس التوحيد، يشرح لهم بأبسط العبارات طرق المعرفة، ويقول لهم: (أيها الناس إن الله ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته [عن عبادة] من سواه). فاستفهمه رجل: ما معرفة الله؟ قال (ع): (معرفةُ أهلِ كلِ زمانٍ إمامهم الذي يجب عليهم طاعته)[76].

لأن الإمام الحق يهدي الأمة إلى معرفة الله تعالى حقيقةً. ومفهوماً أن الحاكم الفاسق يحرم الناس من معرفة الله تعالى، فتنحرف الأمة عن الطريق، وتسلك سلوك معصية الله سبحانه حتى وإن لم تنطق بكلمة الجحود!

ويقول (ع) في وصف الله تبارك وتعالى: (أصفُ لك إلهي، بما وصف به نفسه، وأعرّفه بما عرّف به نفسه: لا يُدْرَكُ بالحواس ولا يقاسُ

---

[76] علل الشرائع – الشيخ الصدوق ج 1 ص 9.

بالناس، قريبٌ غير ملتصق، بعيدٌ غير منتقص، يوحَّد ولا يُبغَض، معروفٌ بالآيات، موصوفٌ بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال ...)[77].

ويجيب (ع) الحسن البصري بالقول: (إنّ الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغَلَبة، ولا يهمل العباد في الهَلَكة. ولكنه المالك لما ملّكهم، والقادر لما عليه أقدرهم. فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن الله صادّاً عنها مبطّئاً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أنْ يمنّ عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به. فإن فعل وإن لم يفعل فليس هو [الذي] حملهم عليها قسراً، ولا كلّفهم جبراً ... الحمدُ للهِ الذي جعل عبادَه أقوياء، لما أمرهم به، ينالون بتلك القوة، ونهاهم عنه، وجعل العذر لمن لم يجعل له السبب، جهداً متقبلاً)[78].

وعندما يرسل له رجل من عامة المسلمين خطاباً مختصراً يسأله: عظني بحرفين؟ يكتب الإمام (ع) إليه: (من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو، وأسرع لمجيء ما يحذر)[79].

كانت الناس تعشق الحسين (ع) لأنه حفيد رسول الله (ص) الذي أوصى به الناس، وأحبه (ص) حباً جماً. و" كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا، ويرى هذا من النعم عليه. وكانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما رضي الله

---

[77] مختصر تاريخ دمشق – ابن منظور ج 7 ص 130.

[78] الفقه المنسوب للإمام الرضا (ع) ص 408.

[79] الكافي ج 2 ص 373.

عنهما وارضاهما"[80]. وهذا يدل على وجود القاعدة الصامتة من الناس بين الأمة التي كانت تحب أهل البيت (ع)، لكنها كانت تخشى الظالم الغشوم! فالحب كان موقوراً في القلب، لكن فعلهم كان مرهوناً ببطش الظالم وقسوته!!

وفي خطبةٍ له (ع) أمام الناس، وبحضور معاوية وحاشيته، أعلنها صريحة واضحة: (نحنُ حزبُ اللهِ الغالبونَ، وعترةُ رسولِ اللهِ (ص) الأقربونَ، وأهلُ بيتهِ الطيبونَ، وأحدُ الثقلينِ الذين جعلنا رسولَ اللهِ (ص) ثانيَ كتاب اللهِ تباركَ وتعالى، الذي فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ، لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ، ولا مِنْ خلفهِ، والمعوّلُ علينا في تفسيرهِ، ولا يُبطئنا تأويلَه، بل نتبعُ حقائقَهُ.

فأطيعُونا فإن طاعتَنا مفروضةٌ، إن كانتْ بطاعةِ اللهِ ورسولهِ مقرونةٌ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: (...أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ...)[81]، وقال: (... وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً)[82].

وأحذِّرُكُم الإصغاءَ إلى هُتُوفِ الشيطانِ بِكُم، فإنَّهُ لكم عدوٌّ مبينٌ، فتكونوا كأوليائهِ الذين قالَ لهم: (... لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي

---

[80] البداية والنهاية ج 8 ص 36.

[81] سورة النساء: آية 59.

[82] سورة النساء: آية 83.

جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ ...)[83]. فتلقُونَ للسيوفِ ضَرْباً، وللرماحِ وَرْداً، وللعَمَدِ حَطْماً[84]، وللسهامِ غرَضَاً، ثم لا يقبَلُ من نفسٍ إيمانُها لم تكُنْ آمنتْ من قبلُ أو كسَبتْ في ايمانِها خيراً)[85].

فقد أجمَلَ (ع) في هذه الكلمة المهمة أهم مبادئ الإسلام في الولاية الشرعية، فشرح باقتضاب أهم صفات عترة النبي (ص) بكونهم أحد الثقلين. فالقرآن الكريم: الثقل الأكبر، وأهل البيت (ع): الثقل الأصغر. وهؤلاء الأطهار (ع) هم أولوا الأمر، وطاعتهم واجبة شرعاً. وبذلك نسف الإمام الحسين (ع) مباني الأمويين الزاعمة بكون آل أبي سفيان ولاة الأمر على المسلمين، وكون حكمهم هو حكم الإسلام، وربْطهم ذلك بقضاء الله وقدره، ودعْوتهم المسلمين بالطاعة والتسليم لهم!

والفكرة التي أراد (ع) أن يوصلها إلى الأمة فتستوعبها وتفهمها هي إنّ رسول الله (ص) وصفَ أهل البيت (ع) بوصفين أساسيين. الأول: إنهم الثقل الأصغر بعد القرآن الكريم. الثاني: أنهم ولاة الأمر حقيقةً وواقعاً. وقد وصفهم القرآن الكريم قبل ذلك بوصفٍ مشابهٍ. إذن أهل البيت (ع) هم قطب الرحى في الحياة الإسلامية، فكراً ومنهجاً وسيرةً وفضيلةً. وكل من ادعى غير ذلك هو إدعاء مزيّف، بل هو أثرٌ من آثار هتوف الشيطان.

---

[83] سورة الأنفال: آية 48.

[84] العَمَدْ: جمع عمود، وعَمَدَ الخيمةَ أقامَ أعمدتها، وحطمها: هدَّمها.

[85] الاحتجاج – الطبرسي ج 2 ص 22.

ب- على النطاق الإجتماعي: ودعوة الناس لأهل البيت (ع) كان يتطلبُ جهداً بالغاً في ذلك الوقت، لأن الأمة قد إنزلقت في الترف والملذات التي جلبها شراء الضمائر بالدنانير والدراهم بين الناس. حاول معاوية تجريد أهل البيت (ع) من مزاياهم المنصوصة في الكتاب والسنّة نظرياً مثل مضمون آية المودة، وآية التطهير؛ وعملياً مثل حرمانهم التواصل مع الفقراء، وقتل أتباعهم المخلصين أمثال حجر بن عدي، وعمرو بن الحمق من أصحاب رسول الله (ص)، وأصحاب علي بن أبي طالب (ع) المصليّن العابدين.

وكان جود الإمام الحسين (ع) وكرمه وسخائه قد وضعه في موضع الدَيْن. فانتهز معاوية تلك الفرصة، فكتب له (ع) وأرسل إليه مائتي ألف دينار يريد أن يشتري منه عين أبي ينزر التي حفرها الإمام أمير المؤمنين (ع) بيده، وأوقفها على فقراء المدينة وأبناء السبيل، فأبى الحسين (ع) بيعها لمعاوية، وقال: (إنما تصدَّقَ بها أبي ليقيَ اللهُ بها وجهَهُ حرَّ النار، ولستُ بائعها بشيءٍ)[86].

وكانت الناس تقصد الإمام الحسين (ع) في حاجاتها المالية، لأن أهل البيت (ع) أهل الكرم والعطاء والجود، ولا يقصد معاوية طلباً للمال إلا من باع ضميره للشيطان. ومن ذلك: يقصده الإعرابي فيسلّم عليه ويسأله حاجته، ويقول: سمعتُ جدك (ص) يقول: (إذا سألتم حاجة فاسألوها من أربعة: إما عربي شريف، أو مولى كريم، أو حامل القرآن، أو صاحب وجه

---

[86] الكامل في اللغة والأدب – المبّرد ج 3 ص 208.

صبيح). فأما العرب فشُرِّفتَ بجدك، وأما الكرم فدأبكم وسيرتكم، وأما القرآن ففي بيوتكم نزل، وأما الوجه الصبيح فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: (إذا أردتم أن تنظروا إليّ فانظروا إلى الحسن والحسين)[87]. فيقضي له الحسين (ع) حاجته، ويفيض عليه بأكثر مما طلب.

ثانياً: محاربة فكرة الحكم الوراثي الفاسق:

المشهور تاريخياً أن معاوية كان يطمح من بداية ولايته على الشام زمن الخليفة الثاني، بالتخطيط لإتخاذ نظام سياسي يعتمد على نظام الحكومة الوراثية حيث يرث الإبن أباه في إدارة الدولة، وتوزيع الثروات. فكان معاوية بن أبي سفيان الأب المؤسس لذلك النظام المستحدَث خلافاً لكتاب الله المجيد، وسنّة رسوله محمد (ص) .

ولم يكن ذلك معهوداً زمن رسول الله (ص)، ولم تنزل فيه آية من قرآن ولا رواية من حديث. فبدأ وبصورة تدريجية في حياة الإمام الحسن بن علي (ع) بالدعوة لولاية العهد لابنه يزيد. فحارب الإمام الحسن (ع) تلك الفكرة، ثم بعد إستشهاده (ع) حاربها الإمام الحسين (ع).

كتب الحسين (ع) إليه كتاباً يُقرّعُهُ فيه ويُبَكّتُهُ بأمورٍ صنعها، كان فيه: (... ثُمَّ ولَّيتَ ابنكَ وهو غلامٌ يشرَبُ الشرابَ ويلهو بالكلابِ، فخُنتَ أمانتَكَ وأخربتَ رعيتَكَ، ولم تُؤدِّ نصيحةَ ربّكَ، فكيفَ تُولّي على أمةِ محمدٍ من يشربُ المُسكِرَ؟ وشاربُ المسكرِ من الفاسقينَ، وشاربُ المُسكرِ من

---

[87] التفسير الكبير – الفخر الرازي ج 1 ص 182.

الأشرارِ. وليسَ شاربُ المُسكرِ بأمينٍ على درهمٍ، فكيف على الأمةِ؟ فعَنْ قليلٍ ترِدُ على عملِكَ حين تُطوى صحائِفُ الاستغفارِ)[88].

ففي كلمات ذلك الكتاب إشارة صريحة إلى فسق يزيد، ترجمها لاحقاً باتخاذ الموقف العملي الرافض لولاية الفاسق، وذلك عندما أراد والي المدينة إجباره (ع) على البيعة ليزيد، فردّه الحسين (ع) ردّاً متطابقاً مع رسالته الآنفة الذكر، فقال (ع): (إنا أهلُ بيتِ النبوة، ومعدنُ الرسالة، ومختلفُ الملائكة. بنا فتحَ اللهُ، وبنا ختمَ، ويزيدٌ فاسقٌ، فاجرٌ، شاربُ الخمر، قاتلُ النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله)[89].

نستخلص من ذلك أن فكر الإمام الحسين (ع) طابق فعله وسيرته، مهما اختلفت الأوقات والأزمان. وهذا الإنسجام في الفكر والعمل، أو في النظرية والمصداق – وعلى مدى حقبة زمنية طويلة – من أهم خصائص إمامة أهل البيت (ع).

كانت محاربة الإمام (ع) فكرة الحكم الوراثي الفاسق التي جاء بها معاوية أحد المرتكزات الأساسية في تفكيره (ع) الإستراتيجي في طلب الاصلاح في أمة جده محمد (ص). ذلك أن الرضا بحكم الفاسق هو تهديمٌ لأركان الدين الذي أرسله الله تعالى لنبيه المصطفى (ص) قبل نصف قرن فقط من الزمان!

---

[88] دعائم الإسلام – القاضي النعمان ج 2 ص 133.

[89] مقتل الحسين – الخوارزمي ج 1 ص 184.

ثالثاً: تربية النفوس على المبدأ الأصيل

واشتهرت بين محدثي الشيعة مواقفه التعبدية (ع) في عرفات، ومناجاته الطويلة وهو واقفٌ في ميسرة جبل عرفة، والناس من حوله يدعون بدعائه. يقول في مقطع من دعائه يوم عرفة:

(...اللهُمَّ اجعلني أخشاك كأني أراكَ، واجعل غنايَ في نفسي، واليقينَ في قلبي، والإخلاصَ في عملي، والنورَ في بصري، والبصيرةَ في ديني.

اللهُمَّ ما أخافُ فاكفني، وما أحذرُ فقِني، وفي نفسي وديني فاحرُسني، وفي سفري فاحفظني، وفي أهلي ومالي فاخلفُني، وفيما رزقتني فبارك لي، وفي نفسي فذللني، وفي أعينِ الناسِ فعظّمني، ومن شرِ الجنِ والإنسِ فسلّمني، وبذنُوبي فلا تفضحني، وبسريرتي فلا تُخزِني، وبعملي فلا تبتلِني، ونعمَكَ فلا تسلُبني، وإلى غيركَ فلا تكلني.

إلهي إلى من تكلْني، إلى قريبٍ فيقطعُني، أم إلى بعيدٍ فيتجهمُني، أم إلى المستضعَفِين لي وأنتَ ربي ومليكُ أمري، أشكو إليكَ غُربتي، وبُعدَ داري، وهواني على من ملَّكتَهُ أمري)[90].

ويعدُّ دعاء عرفة أحد أعظم الأدعية التي أطلقها أهل البيت (ع) في تصوير الألوهية المطلقة، وعظمة الخالق، وطاعة المخلوقات لخالقها، وضعف الإنسان وأدوار خلقه، ونِعَمِ الله التي لا تحصى عليه، وتركيبة

[90] بحار الأنوار ج 95 ص 226.

القلب والنفس، ووحشة الإنسان في عالم الصراع والتنافس، وطبيعة الذنب والمغفرة، وإسلوب التمجيد والتحميد.

ولاشك أنّ منسك عرفة من المناسك التي يمكث فيها الحجيج على جبل عرفات إبتهالاً وصلاةً وذكراً لله تعالى. فلا غرابة أن يقبل المسلمون على هذا الدعاء الشامل، الذي كان له الصدى الأعظم بين المسلمين في ذلك الزمان، بل في كل زمان.

يعدُّ هذا الدعاء نقلة روحية يخاطب (ع) بها الأمة التي غرقت في ملذات بني أمية، وباعت ضميرها للظالم. فأراد الإمام (ع) أن يوقظها من سباتها، ويقرِّبها إلى الله تبارك وتعالى عبر تقريب صفاته التي وصفها تبارك وتعالى لنا بنفسه.

يقول في مقطع آخر من دعائه (ع): (أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلتَ الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجئوا إلى غيرك. أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث إستبانت لهم المعالم. ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغي عنك متحولاً. كيف يرجى سواك وأنت ما قطعتَ الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيركَ وأنت ما بدلّتَ عادة الإمتنان؟

يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين. أنت الذاكر قبل الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء

قبـل طلـب الطـالبين، وأنـت الوهـاب لمـا وهبتنـا مـن المستقرضـين. إلهـي أُطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذُبني بمنك حتى أقبل إليك)[91].

رابعاً: رفض المساومة في الدين

ومن أخطر المساومات السياسية التي أراد معاوية بن أبي سفيان أن يلعبها مع أهل البيت (ع) هو طلب تزويج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر لإبنه. أي أراد معاوية تزويج إبنة زينب بنت علي (ع) من يزيد بن معاوية!

الزواج السياسي: فقد كتب معاوية إلى عامله على الحجاز مروان بن الحكم يأمره أن يخطب أم كلثوم بنت زينب (ع) لابنه يزيد. فذهبوا إلى أبيها، فقيل لهم إن أمرها بيد خالها سيدنا الحسين (ع).

فلما اجتمع الناس في مسجد رسول الله (ص) أقبل مروان وجلس إلى الحسين (ع) قائلاً: "إن أمير المؤمنين [معاوية] أمرني بذلك، وأن أجعل مهرها حكم أبيها بالغاً ما بلغ، مع صلح ما بين هذين الحيين[92]، مع قضاء دينه، واعلم أن من يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبطه بكم، والعجب

---

[91] إقبال الأعمال ص 339.

[92] يقصد ان في ذلك التزويج هدف المصالحة بين بني هاشم وبني أمية.

كيف يستمهر يزيد؟ وهو كفؤ من لا كفؤ له، وبوجهه يستسقى الغمام، فرُدَّ خيراً يا أبا عبد الله"[93].

ردّ الإمام الحسين (ع): فقال الحسين (ع) وهو على وقاره المعهود: (الحمدُ للهِ الذي اختارَنا لنفسهِ وارتضانا لدينهِ، واصطفانا على خلقهِ، وأنزلَ علينا كتابَهُ ووحيَهُ. وأيمُ اللهِ لا ينقصُنا أحدٌ من حقنا شيئاً إلا انتقصَهُ اللهُ من حقهِ في عاجلِ دنياهُ وآخرته، ولا يكون علينا دولةً إلا كانتْ لنا العاقبةُ ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ.

يا مروانُ قد قلتَ فسمِعنا.

أما قولُكَ: مَهرُها حكمُ أبيها بالغاً ما بلَغَ، فلَعمْري لو أردنا ذلكَ ما عَدْونا سُنَّةَ رسولِ اللهِ (ص) في بناتِهِ ونسائهِ وأهلِ بيتهِ، وهو اثنتا عشرةَ أوقيةً يكونُ أربعمائةً وثمانينَ درهماً.

وأما قولُكَ: مع قضاءِ دينِ أبيها، فمتى كُنَّ نساؤنا يقضينَ عنّا ديونَنا!

وأما صلحُ ما بينَ هذينِ الحيَّينِ، فإنا قومٌ عاديناكُم في اللهِ ولم نكُنْ نُصالِحُكُم للدنيا، فلعَمْري فلقد أعيا النسبُ فكيفَ السببُ؟

وأما قولُكَ: العجبُ ليزيدَ كيفَ يستمهِرُ؟ فقد استمهرَ مَنْ هوَ خيرٌ مِنَ يزيدَ ومِنْ أبِ يزيدَ ومِنْ جدِّ يزيدَ.

---

[93] المناقب – ابن شهرآشوب ج 4 ص 38.

وأما قولُكَ: إنَّ يزيدَ كفؤُ مَنْ لا كُفْؤَ لهُ، فمَنْ كانَ كُفُؤهُ قبلَ اليومِ فهوَ كفؤُهُ اليومَ، ما زادتْهُ إمارَتهُ في الكفاءةِ شيئاً.

وأما قولُكَ: بوجهِهِ يُستسقَى الغَمامُ، فإنما كانَ ذلكَ بوجهِ رسولِ اللهِ (ص).

وأما قولُكَ: مَنْ يَغبِطُنا بهِ أكثرُ ممن يَغبِطُهُ بنا، فإنما يَغبِطُنا بهِ أهلُ الجهلِ ويَغبِطُه بنا أهلُ العقلِ).

ثم قال (ع) بعد كلام: (فاشهَدُوا جميعاً أني قد زوَّجتُ أمَّ كلثومَ بنتَ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ من ابنِ عَمّها القاسمِ بنِ محمدِ بنِ جعفرٍ على أربعمائةٍ وثمانينَ درهماً، وقد نَحَلتُها ضيعتي بالمدينةِ ... ففيها لهما غِنىً إن شاءَ اللهُ) [94].

المناظرة الفريدة: وكانت تلك المناظرة التاريخية فريدة من نوعها. فقد أراد معاوية من عملية تزويج إبنة عبد الله بن جعفر من يزيد بن معاوية التقارب بين بني أمية وبني هاشم. ولو تم ذلك النكاح، على إفتراض مباركة الإمام الحسين (ع) له، لكان أعظم محاولة لترسيخ حكم بني أمية! لأن اقتران يزيد – الخليفة المرتقب – بإبنة أخت الحسين (ع) (أي ابنة زينب بنت الإمام علي عليه السلام) يعني إمضاءً لسلوك معاوية ويزيد. والنكاح يورث تقارباً رحمياً وإجتماعياً بين الناس.

---

[94] المناقب ج4 ص 38.

وطبيعة تلك الدعوة الغريبة كان فيها إمتهاناً لكرامة أهل البيت (ع)، لأنه أراد المساومة على المهر، وجعله مهراً غالياً بالغاً ما بلغ. أي مهما طَلَبَ أبوها من مهرٍ، كان معاوية مستعداً لتلبيته. مع أنّ أهل البيت (ع) كان يتبعون سنّة النبي (ص) في تزويج بناتهم بما يسمونه (مهر فاطمة الزهراء عليها السلام) الذي يساوي أربعمائة وثمانين درهماً من الفضة.

ثم أراد أن يقضي دين أبيها شرط نكاحها من يزيد، وهو خلاف الأصل الشرعي في النكاح.

والملفِت أن مروان بن الحكم قد وضع منزلة أهل البيت (ع) في الدرجة الدنيا بقوله: "واعلم أن من يغبطكم بيزيد أكثر ممن يغبطه بكم"، أي أنكم تتشرفون بيزيد، ولا يتشرف بكم. وهذا يخالف نص القرآن الكريم في آية التطهير: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[95].

وادعى بأن يزيد كان من السمو والعلو بحيث لا يوجد له كفؤ، وتَعجَّبَ كيف يستمهر يزيد! أي ينبغي أن توهب له النساء دون أن يستمهرن. وهذا مخالف لأحكام القرآن والشريعة التي أوجبت المهر على الرجال. وحصرت حكم الاختصاص دون صداق للنبي (ص) وحده، كما

---

[95] سورة الأحزاب: الآية 33.

ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله: (... وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...)[96].

ثم ادعى بأن يزيد يستسقى بوجهه الغمام، أي أن يزيد بتقواه المزعوم وتعبده يستمطر الغيث كرامة له من الله تعالى. وهذا يخالف النصوص التاريخية التي أثبتت بإنه كان يشرب الخمر، ويلهو مع الكلاب، ويلعب بالقيان.

تحليل رد الإمام (ع): ردَّ الإمام الحسين (ع) كل تلك المدعيات رداً شرعياً وافياً:

1- أثبت أنه (ع) يتبع سنّة رسول الله (ص) في المهر وهو أربعمائة وثمانين درهماً.

2- نفى الحسين (ع) أن يكون التزويج وسيلة من وسائل قضاء الدَيْن. فالمهر هو حق المرأة في النكاح، وينبغي شرعاً أن لا يتعدى ذلك بفوائد مالية تعود إلى الأب.

3- أراد معاوية من التزويج – ظاهراً – الصلح بين بني أمية وبني هاشم حتى يستتب له أمر الملك والسلطنة. فأجابه الحسين (ع): (... إنا قوم عاديناكم في الله ولم نكن نصالحكم للدنيا). فالصراع والمعركة بين الحيين (بنو أمية وبنو هاشم) – من وجهة نظر أهل البيت (ع) – كان ولا يزال من أجل الدين ورسالة السماء لا من أجل الدنيا وميزاتها.

---

[96] سورة الأحزاب: الآية 50.

ثمَّ ردَّ قوله الذي زعم فيه بأنهم سيتشرفون بيزيد، فقال (ع): (إنما يغبطنا به أهل الجهل، ويغبطه بنا أهل العقل). أي إنّ الذين يجهلون مقام أهل البيت (ع) وشرفهم وحقهم إنما يستبشرون بتزويج بناتنا لأهل المناصب الدنيوية. أما أهل العقل الذين يعرفون فضل أهل البيت (ع) فيرون أن الذي يتزوج من العترة الطاهرة إنما يفوز بالفضل والكرامة الأبدية.

4- ردَّ قوله "العجب ليزيد كيف يستمهر"، فقال (ع): ان رسول الله (ص) قد تزوج بمهرٍ معلومٍ، وهو (ص): (خيرٌ من يزيد ومن أب يزيد ومن جد يزيد).

5- ردَّ قوله بأن "يزيد يستسقى بوجهه الغمام"، بأنّ ذلك كان (بوجه رسول الله صلى الله عليه وآله) وهو خاتم الأنبياء (ص)، وله منزلة عظيمة عند أهل الأرض وعند أهل السماء.

ثمَّ أتم الإمام الحسين (ع) قضية الزواج، بعد أن رفض طلب يزيد وفضح إدعاءات مروان. فزوَّجها من ابن عمها على المهر الشرعي وهو أربعمائة وثمانون درهماً، ونحلهما ضيعة له في المدينة.

تلك الحادثة تلخص طبيعة الصراع بين بني أمية وبين أهل البيت (ع). فبني أمية تُريد إدامة السلطة وراثةً من السابق إلى اللاحق، فكانت تتوسل بشتى الوسائل الدنيوية من أجل تحقيق ذلك. بينما كان هدف أهل البيت (ع) الحفاظ على الإسلام، والقرآن الكريم، وسنّة رسول الله (ص) حفظاً دائماً، وكانوا مستعدون لبذل المهج والنفوس من أجل الوصول إلى ذلك.

الرحلة الأخيرة للحسين (ع)

عندما مات معاوية في النصف من رجب سنة ستين هجرية، كان قد أوصى إلى ابنه يزيد بن معاوية بالخلافة. وكان الإعداد لولاية يزيد قبل حوالي عشر سنوات من ذلك. فبدأ يزيد عهداً دموياً مرعباً لم تشهد له الأمة مثيلاً. وبعد أن أقرَّ بعمال أبيه على أعمالهم، وثبتهم في مناصبهم، كتب إلى والي المدينة رسالة يخبره فيها بموت معاوية، ومعها قصاصة ورق أو قطعة جلد لها مغزى كبير. كتبَ في تلك القطعة: "خذ الحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً. ومن أبى فاضرب عنقه وأبعث برأسه إليَّ"[97].

رفض البيعة ليزيد: وفي حين أمضى ابن عمر، وابن أبي بكر، وابن الزبير البيعة ليزيد رغبةً أو رهبةً، بقي الحسين (ع) ثابتاً على عدم بيعة الفاسق، وكان لسانه ينطق بالحق، قائلاً (ع): (يا عتبة قد علمتَ إنا أهلُ بيتِ الكرامةِ، ومعدِنُ الرسالةِ، وأعلامُ الحقِّ الذي أودعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ قُلُوبَنا وأنطقَ بهِ ألسنتَنا، فنطقتْ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ولقد سمعتُ جديَّ رسولَ اللهِ (ص) يقول: (أنّ الخلافةَ محرمةٌ على ولدِ أبي سفيان)، وكيف أبايعُ أهلَ بيتٍ قد قالَ فيهم رسولُ اللهِ (ص) هذا؟)[98].

---

[97] البداية والنهاية ج 8 ص 143.

[98] بحار الأنوار ج 44 ص 315، 325.

وبذلك رفض الإمام الحسين (ع) بيعة يزيد بن معاوية، وعندها بدأ الخطوة الأولى في طريقه نحو واقعة فريدة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، يكون فيها الإيثار بالنفس في سبيل المبدأ سيّد عناصرها.

كان جواب الإمام الحسين (ع) لوالي المدينة كلمةَ حقٍ أمامَ سلطان جائر. فقد اشترط (ع) في خصائص الإمام الحق أن ينطق حقاً بإذن الله، وأن يكون ثمرةً لبيتٍ خصّه الله بالنبوة والإمامة. أما يزيد فهو رجل ليست له أهلية لتسنّم منصبٍ من هذا الطراز بشهادة المسلمين، ومن بيت حُرِّمتْ عليهم الخلافة حسب تعبير النبي (ص). فكيف يجوز شرعاً بيعة المفضول من قبل الفاضل، أو بيعة الفاسق من قبل المؤمن، أو بيعة المخطئ الجاهل من قبل العالِم؟ ولاشك أن موقف الإمام الحسين (ع) كان يقتضي صراعاً وكفاحاً. وصراعٌ من هذا القبيل، بين الحق والباطل، يستحق الموت في سبيله بكل تأكيد.

وفي خضم الرحلة الأخيرة للحسين (ع) من المدينة المنورة إلى الكوفة مروراً بمكة المكرمة، كان لابد من فهم طبيعة الحيثيات التي دفعت الإمام (ع) للذهاب إلى العراق، والتي كان منها: وجود الناصر، ووجوب إستجابته لمن دعاه إليه (ع) مهما كان الثمن!

أولاً: الإمام الحسين (ع) وأهل الكوفة: وجود الناصر

وكتبَ أهل العراق، بعد موت معاوية، وأخْذِ البيعة ليزيد، إلى الحسين (ع) بلسان حالٍ يقول: أن أقدم علينا، إنما تُقدم على جُندٍ لك مجنّدة.

وكان من كَتَبَ إليه سليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة، ورفاعة بن شدّاد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. والظاهر أن أولئك الأشخاص كانوا من نخبة مجتمع الكوفة.

وعند ذلك وجد الإمام الحسين (ع) إنَّ التكليف الشرعي يحتّم عليه – كإمامٍ للأمة – الخروج إلى العراق لوجود الناصر. فبعث سفيره مسلم بن عقيل إليهم، ثم خرج هو وأهل بيته (ع) على أثره، على أمل إقامة العدل، وتطبيق حكم الله عزّ وجلّ في الأرض.

وكانت رسائلهم في غاية الدقة، لأنهم كانوا على علمٍ بشروط الولاية الشرعية، وصفات الإمام المعصوم (ع). وقد عاش الإمام علي (ع) وابنيه الحسن والحسين (ع) بينهم مدةً تتجاوز الخمس سنوات.

فحوى رسائل أهل الكوفة: فكانت فحوى رسائلهم مع نصوصها:

1– إدانة الحاكم الظالم: " الحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد، الذي انتزى على هذه الأمة، فابتزّها، وغصبها فيئها، وتأمّر عليها بغير رضىً منها؛ ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبُعداً له كما بَعُدت ثمود"[99].

2– الحاجة إلى الإمام الحق (ع): " إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحق"[100].

---

[99] تاريخ الطبري ج 3 ص 378. والكامل في التاريخ – ابن الأثير ج 2 ص 524.

[100] بحار الأنوار ج 44 ص 334.

3- وجود الناصر: " بل نقاتل عدوّك، ونقتل أنفسنا دونك"، "... فإذا شئت فأقدم على جندٍ لك مجنّد"[101].

رسالة الحسين (ع) إلى أهل الكوفة: حينها كتب الحسين (ع) رسالته الرئيسية إلى أهل الكوفة، والتي تصور رؤيته للإسلام ولموقع المسلمين في تلك الحقبة الزمنية الحرجة: (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ مِنَ الحُسينِ بن عليٍّ إلى الملأِ مِنَ المؤمنينَ والمسلمينَ. أما بعدُ: فإنَّ هانِئاً وسعيداً قدِما عليَّ بكُتُبِكُم، وكانا آخِرَ من قَدِمَ عليَّ من رُسُلِكُم. وقد فَهِمتُ كُلَّ الذي إقتصَصْتُمْ وذكرتُم ومقالةَ جُلِّكُم إنه ليسَ علينا إمامٌ فأقبِلْ لعلَّ اللهَ أن يجمَعَنا بكَ على الهدى والحق.

وقد بعثتُ إليكم أخي وابنَ عمي وثقتي من أهلِ بيتي مُسلِمَ بنَ عقيلٍ وأمرتُهُ أن يكتُبَ إليَّ بحالِكُمْ وأمرِكُم ورأيِكُم.

فإنْ كَتَبَ إليَّ أنه قد أجمَعَ رأيُ مَلَئِكُمْ، وذوي الفضلِ والحِجَى[102] منكم، على مثلِ ما قَدِمَتْ عليَّ بهِ رُسُلكُم وقرأتُ في كُتُبِكُم، أقدِمُ عليكم وشيكاً إن شاءَ اللهُ، فلعمري ما الإمامُ إلاّ العامِلُ بالكتابِ، والآخِذُ بالقسطِ، والدائنُ بالحقِّ، والحابِسُ نفسَهُ على ذاتِ اللهِ والسلام)[103].

---

[101] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 89.

[102] ذوي الحِجَى: ذوي العقل.

[103] تاريخ الطبري ج 3 ص 278.

لخصَّ الحسين (ع) واجبات الإمام الحق بالنقاط التالية، مع تفصيلٍ نفهمه من آيات القرآن الكريم، وأحاديث أهل البيت (ع) إجمالاً:

1- الإمام هو العامل بالكتاب: بمعنى أنّ الإمام هو الذي يعمل بتعاليم القرآن الكريم في أبواب أصول الدين وفروعه، ولا يتبع أهواء الناس وعقائدهم، بل يأمرهم بالأوامر الشرعية، وينهاهم بالنواهي الشرعية. ولاشك أن الإيمان لا يكتمل إلا بالعمل الصالح. ولذلك فإنّ الإمام، وباعتباره مورداً للتأسي، وقدوةٌ بذاته، مكلّفٌ بالعمل بالكتاب في إقامة الشريعة ونظامها، وتوزيع الثروات الإجتماعية بالعدالة، وعدم محاباة فئة على أخرى.

2- الآخِذُ بالقسط: وهو الذي يحكم بين الناس بالعدل، ويكونُ شهيداً على أمته، وهو الذي يمنع الفساد عن طريق تطبيق الحدود ونشر الفضيلة بين الناس، وينهاهم عن أكل الأموال بالباطل، والتطفيف في الوزن، والربا، والسرقة، وكنز الذهب والفضة، وحبسها عن منفعة الناس. وهو الذي ينشر الاخلاق بينهم عن طريق النهي عن الغيبة، وكتم الشهادة، والحلف على المعصية، والغمز واللمز، واللّيّ والنجوى بالإثم والعدوان، والزنا، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والظلم والبغي، وعبادة الأصنام.

3- الدائنُ بالحقّ: الدائن في اللغة هو صاحب المال. ومعناه إنّ للإمام أنْ يأخذ بقدر حقه فيما يتعلق بحاجاته ولا يجوز له الإفراط في ذلك منعاً للظلم وإنصافاً للمظلوم من الظالم. وبإعتبار أنّ الإمامة هي سلطة على النفوس

والأموال، فإن الإمام لابد أن يكون دائناً بالحق فلا يأكل أكثر من حقه، لقوله تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ...)[104].

4- الحابسُ نفسه على ذات الله: وبذلك يكون الإمام أداةً لتثبيت التوحيد المطلق ونفي الشريك. فهو الذائبٌ في معرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته، لأنه يعلم أن الله هو خير الرازقين، وخير الحاكمين، وخير الفاتحين، وخير الغافرين، وهو رب العرش ورب العزة ورب السموات السبع، وهو فالق الإصباح وفالق الحب والنوى، وهو عالم غيب السموات والارض، وعالم الغيب والشهادة، وهو نور السموات والارض، وهو غافر الذنب وقابل التوب ذو الطول رفيع الدرجات، رب كل شيء.

وبذلك يكون الإمام في طاعة الله لا في معصيته، ويقوم بتذكير الناس بخالقهم وبواجباتهم نحوه، وبثوابهم وعقابهم.

دعوات عدم الخروج: ومع ذلك الموقف القوي من الإمامة والولاية، لم يلتفت الإمام (ع) إلى دعوات الذين حاولوا ثنيه عن الخروج إلى الكوفة التي تراوحت بين: "أنت سيد العرب في دهرك هذا، فوالله لئن هلكت ليهلكن أهل بيتك بهلاكك"[105]، وإنَّ "أهل العراق عبيد الدنيا فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحبّ إليه ممن ينصره فأذكّرك اللهُ في

---

[104] سورة البقرة: الآية 188.

[105] الفتوح ج 5 ص 25.

نفسك"[106]، إلى القول : "... لا أرى إلا إنّك تصالح كما صالح أخوك (ع)" [107].

وكانت بعض "النصائح" غريبة إلى درجة لا تصدّق، فقد أشار البعض عليه بالخروج إلى بلاد اليمن أو الإلتحاق بالرمال، وشعوب الجبال!

دليل الإمام الحسين (ع): ولم تكن تلك النصائح ذات بال ولم تغير رأيه فيما هو عازمٌ عليه، لأن الحسين (ع) كان مأموراً بالذهاب إلى الكوفة، لتوفر شروط إقامة الإمامة الحقة، ووجود الناصر ظاهراً، وطلبهم القدوم إليهم. وقد كان واضحاً مع مسلم بن عقيل عندما أرسله إلى الكوفة سفيراً له، قال (ع): (... فإنْ رأيتَ الناسَ مُجتمعينَ على بيعتي فعجِّل لي بالخبرِ حتى أعملَ على حسبِ ذلكَ إن شاءَ اللهُ تعالى)[108].

وكان واضحاً مع ابن عباس أيضاً حين قال له: (أنا اعرفُ بمصرعي منكَ، وما وَكْدي[109] من الدنيا إلا فراقُها...)[110].

وكان واضحاً مع غيرهم حين قال (ع): (وهذِهِ كتبُ أهلِ الكوفةِ ورسُلُهُمْ وقد وجَبَ عليَّ إجابتُهُم وقامَ لهُمُ العُذْرُ عليَّ عندَ اللهِ سبحانَهُ) [111].

---

[106] ترجمة الإمام الحسين (ع) من تاريخ مدينة دمشق _ ابن عساكر ص 202.

[107] الثاقب في المناقب – ابن حمزة ص 322.

[108] الفتوح ج 5 ص 36.

[109] وكدي: قصدي.

[110] بحار الأنوار ج 78 ص 273.

وهنا بيت القصيد: وجوب إجابتهم عليه (ع)، وثبوت العذر لهم عند الله! إي أنه لو لم يذهب إليهم – مع علمه بالمصير المحتوم – لكان محاسَباً إمام الله تعالى، بل لكان النقد الموجَّه لإمامته بصيغة هذا السؤال: لِمَ لم تذهب إليهم وقد تحققت لديك شروط الإمامة بوجود الناصر؟!

ولنا في قصة النبي يونس (ع) حكمةً وعبرةً. فكان على الحسين (ع) الذهاب إلى الكوفة، وهو يعلمُ ضمناً بمقتله (ع) وسبي أهل بيته (ع). وهذا من أعظم الإيثار في الله، لم يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق في علم الله تبارك وتعالى.

الوثيقة الفاضلة لعملٍ آتٍ: وكانت وصيته (ع) في المدينة إلى أخيه محمد بن الحنفية وثيقةَ عملٍ لمستقبلٍ قريبٍ آتٍ: (أني لم أخرجْ أشِراً، ولا بَطِراً، ولا مُفسِداً، ولا ظالِماً، وإنما خرجتُ لطلبِ الإصلاحِ في أمَّةِ جدي (ص). أُريدُ أنْ آمُرَ بالمعروفِ وأنهى عن المنكرِ، وأسيرَ بسيرةِ جدّي (ص) وأبي عليّ بنِ أبي طالبٍ (ع)، فمن قبِلَني بقبولِ الحقِ فاللهُ أولى بالحقِ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبرُ حتى يقضيَ اللهُ بيني وبينَ القومِ بالحقِ وهو خيرُ الحاكمينَ، وهذهِ وصيتي يا أخي إليكَ وما توفيقي إلا باللهِ عليهِ توكلتُ وإليه انيبُ)[112].

---

[111] تجد روايات تحمل نفس المعنى في تذكرة خواص الأمة ص 216، والملهوف على قتلى الطفوف ص 26، وتاريخ الطبري ج 3 ص 293، والفتوح ج 5 ص 111.

[112] المناقب ج 4 ص 89، وبحار الانوار ج 44 ص 329.

وقوله (ع): (أني لم أخرجْ أشِراً، ولا بَطِراً...) محاكاةً لقوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)[113]. والمعنى لا تكونوا كالذين خرجوا غروراً وتكبراً (بطراً)، وتزيّناً ولبساً للحلي (رئاء الناس)، وصدّاً عن سبيل الله تعالى.

وقد اشتملت هذه الآية والآيات التي قبلها على أمور ستة هي دستور المعركة الفاضلة في الإسلام، وهي: الثبات في ساحة المعركة، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع بين جنود الحق، وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس، وأن لا يصدّون عن سبيل الله. وكان ذلك أيضاً دستور الإمام الحسين (ع) في معركة الطف أمام العدو.

فخرج (ع)، كما أمر الله تعالى، طالباً للإصلاح في أمة جده المصطفى (ص) لُيرجِع الإسلام إلى عهده الأول زمن رسول الله (ص)، وزمن علي بن أبي طالب (ع) نقياً صافياً، بعيداً عن شهوات السلطة، وظلم الناس، ومعصية الله تعالى.

وتلك الوثيقة لا تقبل مجالاً للشك بأنه خرج لطلب الإصلاح في أمة جده (ص)، التي حرفتها أيدي الظالمين من بني أمية، وتطبيق قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهكوها، وأن يسير بسيرة جده محمد المصطفى (ص)، وأبيه عليّ المرتضى (ع).

---

[113] سورة الأنفال: الآية 47.

ثانياً: تنبؤه (ع) بإستشهاده

لم يغبْ عن الإمام (ع) أنه بسفره إلى الكوفة إنما هو ذاهبٌ إلى الموت، ذلك لأن الناس في تلك المدينة كانت تحركها الأهواء السياسية، وكان بيع الضمائر وشراؤها أمراً متعارَفاً فيها. والمال في السياسة كالدم في الجسد؛ وحمل المال إلى الناس لشراء ضمائرهم عند الحاكم الظالم يشابه حمل الدم للأوكسجين من أجل إنعاش الجسد.

وكان (ع) يعلم في أعماق قلبه بأن المال الأموي سوف يشتري ضمائر أهل الكوفة، ولكن ما عساه أن يفعل وقد تحققت شروط الإمامة بدعوتهم إياه (ع)، فكان لابد من تحقيق الإستجابة لطلبهم بأي ثمن كان!

قال (ع) وهو يتوقع الموت الحتمي في نهاية سفرته إلى الكوفة: (خُطَّ الموتُ على وُلْدِ آدمَ مخَطَّ القلادةِ على جَيدِ الفتاةِ[114]، وما أَوْلَهَني إلى أسلافي[115] إشتياقُ يعقوبَ إلى يُوسُفَ، وخيّرَ لي مَصْرَعاً أنا لاقيهِ. كأني بأوصالي تقَطِّعُها عُسْلانُ الفَلَواتِ[116] بين النواويسِ وكربلاءَ فيملأَنَ مني

---

[114] مخطّ القلادة على جَيد الفتاة: جَيد الفتاة أي عنقها، والجَيد هو موضع القلادة. والمعنى أن الموت خُطَّ على الإنسان كما أن القلادة خَطّت أثرها على عنق المرأة.

[115] أولهني إلى أسلافي: الوَلَه هو الحب الشديد، والسلف: كل من تقدَّمَ الإنسان من آباء وذوي قرابة في السن والفضل. وهو (ع) يتحدث عن اشتياقه للموت في سبيل الله تعالى بتلك الدرجة الشديدة من الإشتياق.

[116] عُسلان الفلوات: العاسِلُ هو الذئب، والجمع: عُسلان. والفلوات: جمع فلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة.

أكراشاً جَوْفاً، وأجرِبةً سُغْباً، لا محيصَ عن يومٍ خُطَّ بالقلَمِ. رِضَى اللهِ رضانا أهلَ البيتِ، نصبِرُ على بلائِهِ ويُوَفيّنا أجرَ الصابرينَ) [117].

وكانت رسالته إلى اهل الكوفة مع مسلم بن عقيل واضحة غاية الوضوح، فقد تنبأ (ع) بالمسألة من طرفيها، الطرف الأول: وفائهم بالبيعة، فإن وفوا فذلك ما عزمَ عليه من السفر إليهم. والطرف الثاني: نكثهم تلك البيعة! فإن نكثوا فليس ذلك منهم بجديد، فقد نكثوا من قبل بيعة الإمام عليّ بن أبي طالب (ع)، وبيعة الإمام الحسن بن علي (ع).

قال (ع): (فقدْ علِمتُم أنَّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم قد قالَ في حياتهِ: من رأى سلطاناً جائراً مسّتَحِلاً لحرمِ اللهِ ناكثاً لعهدِ اللهِ مخالفاً لسنَّةِ رسولِ اللهِ، يعملُ في عبادِ اللهِ بالإثمِ والعدوانِ ثمَّ لم يغيّر بقولٍ ولا فعلٍ كانَ حقيقاً على اللهِ أن يدْخِلَهُ مدخلَهُ. وقد علِمتُم أنَّ هؤلاءِ القومِ قد لزِمُوا طاعةَ الشيطانِ، وتولَّوا عن طاعةِ الرَّحمنِ، وأظهَرُوا في الأرضِ الفسادَ، وعطَّلوا الحدوُدَ والأحكامَ، واستأثَرُوا بالفيءِ، وأحلُّوا حرامَ اللهِ، وحرَّمُوا حلالَهُ، وإني أحقُّ بهذا الأمرِ لقرابتي من رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّم.

وقد أتتني كتُبُكُم وقد قدمَتْ عليَّ رسلُكُم ببيعتِكُم أنّكم لا تُسلِّمونني ولا تخذُلُونني فإن وَفَيتُم لي ببيعتِكُم فقد أصبتُمْ حظَّكُم ورُشْدَكُم، ونفسي مع أنفُسِكُم، وأهلي ووَلَدي مع أهليكُم وأولادِكُم، فلكُم بي أُسوةٌ.

---

[117] مثير الاحزان – ابن نما ص 41، وكشف الغمة – الأربلي ج 2 ص 203.

وإنْ لم تفعَلُوا ونقضتُم عهُودَكُم ونكثتُم بيعتَكُم، فلعمري ما هيَ منْكُم بنُكْرٍ...) [118].

القبول بالقضاء الحتمي: كان الحسين (ع) مؤمناً بما قدّره الله تعالى له، يحكيه قوله (ع) إلى الفرزدق، وهو في طريقه إلى الكوفة: (إن نزلَ القضاءُ بما نحبُّ ونرضى فنحمدُ اللهَ على نعمائهِ. وهو المستعانُ على أداءِ الشكرِ، وإن حالَ القضاءُ دون الرجاء، فلم يبعد من كانَ الحقُ نيَّته، والتقوى سريرتَه) [119].

وقوله (ع) إلى ابنه علي بن الحسين (ع) وهم في طريقهم إلى الكوفة، بتفاصيل رؤيا رآها عندما أطبق جفنيه للحظات، يقول له المنادي: يا حسينُ! إنكُمْ تسرُعُونَ المسيرَ، والمنايا بكم تُسْرَعُ إلى الجنَّةِ: (فعلِمْتُ أنَّ أنفُسَنا نُعِيتْ إلينا) [120].

وفي كلامه لكتيبة الحر بن يزيد الرياحي: (...ألا تَرَوْنَ إلى الحقِّ لا يُعمَلُ بهِ، وإلى الباطلِ لا يُتَناهى عنهُ، ليَرْغَبَ المؤمِنُ في لقاءِ ربِّهِ حقّاً حقّاً، فإني لا أرى الموتَ إلا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلاّ بَرَماً)[121].

وفي طريقه إلى الكوفة، وبعد الإعلان عن مقتل مسلم بن عقيل، روي أنه (ع) قال: (أيها الناسُ فمَنْ كانَ منكُمْ يصبرُ على حدِّ السيفِ

[118] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 234.
[119] الإرشاد ص 218.
[120] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 226.
[121] ترجمة الإمام الحسين (ع) من تاريخ مدينة دمشق ص 214.

وطعنِ الاسنَّةِ فليَقُمْ معنا وإلا فلينصرِفْ عنّا)[122]. (اللهمَّ اجعلِ الجنَّةَ لنا ولأشياعِنا منزِلاً كريماً إنك على كُلِّ شيءٍ قديرٌ)[123].

كل تلك الأقوال تدلُّ دلالة قطعية على أنه قد وطَّنَ نفسه على الموت في سبيل الله تعالى، واعتبر أن قضاءه تعالى هو أن يراه قتيلاً، وأن يرى أهل بيته (ع) سبايا، فقَبلَ ذلك القضاء لأن فيه رضى الله تعالى، فأصبح الموتَ عنده سعادةً ما بعدها سعادة.

ثالثاً: الرحلة المضنية إلى الكوفة

خرج الإمام (ع) من مكة في الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة، وأُجبر على أخذ طريق الغاضرية والوصول إلى كربلاء في الثاني من محرم الحرام سنة واحد وستين. استغرقت رحلتهم الشاقة حوالي ثلاثة أسابيع. ومنعوا عن الوصول إلى الماء في السابع من محرم الحرام.

وعندما تحركت قافلة الحسين (ع) من مكة كانت تحمل معها طوامير[124] أهل الكوفة وكتبهم التي أرسلوها له، وكان (ع) يعتبرها دليلاً مادياً على وجود الناصر، وكان (ع) يردّ الذين كانوا يشككون بجدوى ذهابه إلى الكوفة بالقول: (هذِهِ كتُبُهُم وبيعتُهُم)[125].

---

[122] ينابيع المودة – القندوزي ص 406.

[123] ينابيع المودة ص 405.

[124] طوامير جمع طومار أو طامور وهي الصحف.

[125] ترجمة الإمام الحسين (ع) من تاريخ مدينة دمشق ص 192.

التحرك في الكوفة: وفي الكوفة لم يرق التحرك نحو مبايعة الحسين (ع) جميع أهلها، بل كانت الشريحة الموالية لبني أمية تحث يزيد بن معاوية على التعامل بقسوة مع أهل تلك المدينة المهمة في عالَم الإسلام، عاصمة دولة أمير المؤمنين (ع). فهذا عبد الله بن مسلم، وعمارة بن عقبة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص يكتبون إلى يزيد أن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة فبايعته الشيعة للحسين (ع)، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً.

وكان قد اجتمع على مسلم بن عقيل الكثير من أهل الكوفة، وقد ورد في الروايات مبايعة ثمانية عشر ألفاً له[126]. وقيل أكثر من ذلك.

ولكن الناسُ على الأغلب: (عبيدُ المالِ، والدينُ لَعِقٌ على ألسنتِهم، يحوطُونَهُ ما درَّتْ به معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاءِ قلَّ الديانُونَ) [127]، كما قال (ع) بصدق.

وتسارعت الأحداث في الكوفة، فقام يزيد بن معاوية بعزل النعمان بن بشير عن ولاية تلك المدينة، وولّى عبيد الله بن زياد عليها بالإضافة إلى ولايته على البصرة.

انقلاب ميزان الولاء: وعندما أيقن أهل الكوفة إستفحال قوة يزيد، إنقلب ميزان الولاء من مسلم بن عقيل وما يمثله إلى عبيد الله بن زياد وما يمثله.

---

[126] تاريخ الطبري ج 6 ص 211.

[127] كشف الغمة ج 2 ص 207.

فخُذل مسلم وتخلى عنه من بايعه، وبقي وحيداً، حتى حانت له الفرصة بمقاتلة جنود عبيد الله بن زياد، فجُرح وأُخذ اسيراً وضربت عنقه من فوق قصر الامارة، وكان يكبّر، ويستغفر الله، ويصلي على ملائكته ورسله، ويقول: " اللهم أُحكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذبونا وأذلونا ".

وقام الوالي الجديد بقتل هانئ بن عروة أيضاً، وهو من أشراف الكوفة، وبعث برأسيهما إلى يزيد بن معاوية، فأجابه الأخير: "... عملت عمل الحازم، وصِلْتَ صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت وصدّقت ظني بك ورأيي فيك ..."[128].

وفي الثعلبية التي أمضى الحسين (ع) ليلته فيها، ورده خبر مقتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة، فقال (ع): (إنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ. رحمةُ اللهِ عليهما). وردد ذلك مراراً[129]. ولكنه - ظاهراً - لم يعلن عن مقتلهما، إلا بعد وصوله إلى مكان يُطلق عليه: زُبالة.

فأعلن من هناك بمقتل مجموعة مؤمنة قريبة من قلبه (ع)، وهم: سفيره مسلم بن عقيل، وناصره في الكوفة هانئ بن مروة، وأخوه من الرضاعة عبد الله بن يقطر؛ فنادى (ع): (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ أما بعدُ. فقدْ أتانا خبرٌ فضيعٌ! قَتْلُ مُسلمِ بنِ عقيلٍ، وهانيء بن عُرْوةِ، وعبدِ اللهِ بنِ

---

[128] الإرشاد ص 199-200.

[129] تاريخ الطبري ج 3 ص 302.

يَقْطُرِ، وقد خذلتنا شيعَتُنا، فمنْ أحَبَّ مِنكُمُ الإنصِرافَ فلينصرِفْ، ليسَ عليهِ منا ذمامٌ)[130].

تفرّق الناس عنه (ع): فتفرق الناسُ عنه تفرّقاً، فأخذوا يميناً وشمالاً، حتى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من المدينة.

وإنما فعل ذلك لأنه إنما تبعه الأعراب، لأنهم ظنّوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فكَرِهَ أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون علامَ يقدمون، وقد عَلِمَ أنهم إذا بيّن لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته، والموت معه[131]. وتلك أخلاقية فاضلة تُضاف إلى قاموس أخلاقه في الصدق، والوضوح مع الناس.

وروي أيضاً أنه (ع) قال: (أيها الناسُ فمَنْ كانَ منكُمْ يصبرُ على حدِّ السيفِ وطعنِ الاسنَّةِ فليَقُمْ معنا وإلا فلينصرِفْ عنّا)[132]. (اللهمَّ اجعلِ الجنَّةَ لنا ولأشياعِنا منزلاً كريماً إنك على كُلِّ شيءٍ قديرٌ)[133].

ولم تكن رحلة الحسين (ع) إلى الكوفة رحلةً يسيرةً، فقد بلغهُ تولية عبيد الله بن زياد على الكوفة من قبل يزيد، واستشهاد سفيره مسلم بن عقيل وآخرين من أصحابه ومواليه، وتغير مزاج أهل الكوفة ونكثهم بيعته (ع)، ونقض وعدهم المكتوب على الصحف التي أرسلوها بالموت دونه. وأخيراً

---

[130] تاريخ الطبري ج 6 ص 226.

[131] الإرشاد ص 233، والبداية والنهاية ج 8 ص 182.

[132] ينابيع المودة ص 406.

[133] ينابيع المودة ص 405.

وليس آخراً اعتراض كتيبة الحر بن يزيد الرياحي قافلة الحسين (ع)، وإجبارها على المسير إلى منطقة وسطى بين الكوفة والمدينة، أي منعه من الوصول إلى الكوفة وعدم السماح له بالرجوع إلى المدينة.

نموذج الإنسان الكوفي: ولو طُلِبَ منا عرضَ مثالٍ لإنسان الكوفة النموذجي زمن الحسين (ع)، لعرضنا اسم عبيد الله بن الحر الجعفي، من سكان الكوفة. فقد خرج منها مخافة أن يدخلها الحسين (ع) وهو فيها فلا ينصره! حيث لم يبقَ في الكوفة شيعة ولا أنصار لأهل البيت (ع) إلا وقد مالوا إلى الدنيا وسلاطنتها، ما عدا القلّة النادرة!

وعندما قرر الحسين (ع) زيارته، وهو في موضعٍ صحراويٍ ناءٍ عن الكوفة، جلس عنده وحمد الله وأثنى عليه. قال (ع) له: (أما بعدُ، يا ابنَ الحُرّ! فإنَّ مِصْرَكُمْ هذهِ كتَبُوا إليَّ وخَبَّرُوني أنـَّهُم مُجتمِعونَ على نُصرَتي، وأن يقُوموا دُوني ويُقاتلوا عَدُوّي، وأنَّهُم سألُوني القُدُومَ عليهم، فقَدِمْتُ. ولستُ أدري القومَ على ما زَعَمُوا، لأنَّهُم قد أعانُوا على قتلِ ابنِ عمي مُسلمِ بنِ عقيلٍ رحمهُ اللهُ وشيعتِهِ، وأجمَعُوا على ابنِ مرجانةَ عُبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ يُبايعُني ليزيدَ بنِ معاويةَ. وأنتَ يا ابنَ الحُرِّ! فاعلم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مؤاخِذُكَ بما كسبتَ وأسلفتَ من الذنوبِ في الأيامِ الخاليةِ، وأنا أدعُوكَ في وقتي هذا إلى توبةٍ تغسِلُ بها ما عليكَ من الذنوبِ، وأدعُوكَ إلى نُصرَتِنا أهلَ البيتِ، فإن أُعطينا حَقَّنا حَمَدنا اللهَ على ذلكَ وقبِلناهُ، وإن مُنِعنا حَقَّنا ورُكبنا بالظلمِ كُنتَ من أعواني على طلبِ الحقِّ).

فقال عبيد الله بن الحرّ: " والله يا بن بنت رسول الله! لو كان لك بالكوفة أعوان يقاتلون معك لكنت أنا أشدّهم على عدوّك، ولكني رأيت شيعتك بالكوفة وقد لزموا منازلهم خوفاً من بني أمية، ومن سيوفهم. فأنشدك بالله أن تطلب مني هذه المنزلة، وأنا أواسيك بكل ما أقدر عليه وهذه فرسي ملجمة، والله ما طلبتُ عليها شيئاً إلاّ أذقته حياض الموت، ولا طُلِبتْ وأنا عليها فلُحِقتْ، وخذ سيفي هذا فوالله ما ضربتُ به إلاّ قطعتُ ".

فقال له الحسين (ع): (يا ابنَ الحُرِّ! ما جئناكَ لِفَرَسِكَ وسَيفِكَ، إنما أتيناكَ لنسألكَ النُّصرَةَ، فإن كنتَ قد بَخِلتَ علينا بنفسِكَ فلا حاجةَ لنا في شيءٍ من مالِكَ، ولم أكُن بالذي أتّخِذُ المُضلّينَ عَضُداً، لأني سمعتُ رسولَ اللهِ (ص) وهو يقولُ: مَنْ سمعَ واعيةَ أهل بيتي، ولم ينصرهُم على حقِّهِم إلاّ أكبّهُ اللهُ على وجهِهِ في النارِ)[134].

ذلك نموذجٌ يُقاس به أهل الكوفة ممن انضموا إلى جيش عبيد الله بن زياد بعد أن نكثوا عهدهم بمناصرة الحسين (ع). فقد هرب ذلك الكوفي من الكوفة مخافة نصرة الحسين (ع)، وقدمَّ له (ع) بالمقابل فرساً وسيفاً بدل تقديم نفسه، وكان عذرهُ بعدم مناصرة الحسين (ع) أنه لم يبقَ له أنصاراً في الكوفة، فآلَ أن لا ينصره بنفسه.

وتلك القصة لها أبعاد مهمة تكشف لنا حقيقة جوهرية وهي أن الإيمان بالحق لم يدخل قلوب هؤلاء ولا عقولهم، بل أن صليل السيف كان يسلب إيمانهم الرقيق. وكان الخوف من القتل السلاح الرئيسي القاتل في

---

[134] الفتوح ج 5 ص 83.

تلك المعركة النفسية. وقد استخدمه بنو أمية مع الناس في الكوفة بفعالية منقطعة النظير. فانقلب الناس في الكوفة بين ليلة وضحاها من موالين مبايعين ظاهراً إلى محاربين قُساة يحركهم العقل الجمعي الظالم!

أفهمه الإمام الحسين (ع) أنه لا يبحث عن وسائل وأدوات تقوي صراعه مع الباطل كالفرس أو السيف، بل كان يبحث عن الإنسان ذو المعرفة الحقة التي تدعوه إلى التضحية والإيثار بكل ما يملك، ولم يجد الحسين (ع) ذلك في إنسان الكوفة النموذجي.

كان الإمام (ع) يبحث عن الإنسان المؤمن المضحي، فهو سلاح الإمام (ع) وذخيرته في تلك المعركة. فإذا انتفى وجود ذلك الإنسان الجوهري، فلا ذخيرة في المعركة حتى مع وجود السلاح والعتاد.

رابعاً: ثقل الهواء بعبادة الحسين (ع) في كربلاء

إذا صح أن الهواء يحمل ذبذبات صوت دعاء العبد ومناجاته إلى الله تبارك وتعالى، فإن نسيم كربلاء كان مثقلاً بعبادة الحسين (ع)، فما أن دخل تلك الأرض الطاهرة حتى تزاحمت مفردات الذكر الألهي بالتسبيح والتكبير والتحميد، والتضرع إلى الله تعالى، والأمل بحسن الوفادة عليه مضرجاً بدمٍ نقيٍ سيُسفك من أجل الله تعالى. مصداق ذلك أنه (ع) كان يُكثر من قوله: (لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ باللهِ العليّ العظيمِ).

وكان من دعائه (ع) في قنوته: (اللهم من آوى إلى مأوى فأنت مأواي، ومن لجأ إلى ملجأ فأنت ملجأي. اللهم صلّ على محمد وآل محمد، واسمع ندائي، وأجب دعائي، واجعل مآبي عندك ومثواي، وأحرسني في

بلواي من إفتنان الإمتحان، ولمة الشيطان، بعظمتك التي لا يشوبها وَلِع نفسٍ بتَفْتين[135]، ولا وارد طيف بتظنين[136]، ولا يلمّ بها فرح حتى تقلبني إليك بإرادتك غير ظنين ولا مظنون[137]، ولا مراب ولا مرتاب، إنك أنت أرحم الراحمين)[138].

فقد جعجعَ الحرُّ بالحسين (ع) وأهله إلى منطقة ليس فيها ماء ولا سكن، اسمها كَرْبَلاء، في يوم الخميس الثاني من المحرَّم سنة إحدى وستين[139]، وفي اليوم السابع من المحرّم بعث عمر بن سعد بعمرو بن الحجَّاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة[140]، وحالوا بين الحسين (ع) وأهله وأصحابه وبين نهر الفرات، وأقسموا بان لا يذوقوا من الماء قطرةً حتى يموت هو وأهل بيته وأصحابه عطَشاً.

---

135 وَلِع نفسٍ بتَفْتين: وَلِع النفس هو التعلق الشديد. وتَفْتين: مصدر فَتَّنَ. وفَتَّنَ الناسَ بأعماله: أوقعهم في الفتنة. والمعنى أنه (ع) يدعو الله سبحانه بعظمته التي لا يشوبها وقوعٌ في الفتنة.

136 وارد طيف بتظنين: الطَّيفُ هو الغضبُ. التظنّي من الظنّ، وأصله التظنُّنُ. وتظنَّن بالأمر: ظنّه، أو علمه بغير يقين. والمعنى أنه (ع) يدعو الله سبحانه بعظمته التي لا يشوبها غضبٌ بغير يقين.

137 الظنينُ: المتهم باقتراف جناية. والمظنون: على وزن مفعول هو المظنون ظناً على غير حق.

138 مهج الدعوات – ابن طاووس ص 49.

139 الإرشاد ص 226.

140 الشريعة: مورد الماء الذي يُستقى منه بدون دلو (أو رِشاء).

وفي التاسع من المحرم زحف عمر بن سعد بجيشه نحو الحسين (ع) واصحابه، مهدداً الإمام (ع) بأحد خيارين إما النزول على حكم عبيد الله بن زياد ثم الأسر، وإما المنازلة والقتال.

وعندما وصل خبر زحف الجيش نحو معسكر الحسين (ع)، قال لأخيه العباس بن علي: (إرجَعْ إليهم فإن إستطعتَ أن تُؤَخِّرهُمْ إلى غدْوَةٍ وتدفعَهُم عنّا العشيةَ، لعلّنا نُصلّي لربّنا الليلةَ وندعُوهُ ونستغفِرُهُ، فهو يعلَمُ أني كنتُ أحِبُّ الصلاةَ لهُ وتلاوةَ كتابهِ وكثرةَ الدعاءِ والاستغفارِ)[141]. فأجابه القوم إلى ذلك.

وبات الحسين (ع) تلك الليلة راكعاً ساجداً باكياً مستغفراً متضرعاً إلى الله، تالياً كتاب الله، وبات أهل بيته (ع) وأصحابه ولهم دويّ كدويّ النحل. وبقي الإمام (ع) وأصحابه على تلك الحالة حتى صلاة الفجر.

وصف المؤرخون وضع الحسين (ع) وأصحابه تلك الليلة بهذا الوصف: لما أمسى (ع) وأصحابه "قاموا الليل كلّه يصلّون ويستغفرون، ويدعون ويتضرعون ... وكان الحسين (ع) يقرأ، على ما سمعه الأعداء: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ...)[142]..."[143]. وكان لهم، كما قال

---

[141] تاريخ الطبري ج 3 ص 314.

[142] سورة آل عمران: الآية 178 – 179.

[143] البداية والنهاية ج 8 ص 192.

ابن نما (ت 645 هـ) في تلك الليلة "دويٌّ كـ [دويّ] النحل من الصلاة والتلاوة"[144].

وبعد إحياء تلك الليلة كان الإمام الحسين (ع) وأصحابه وأهل بيته مستعدون لما سيجلبه ما بعد فجر ذلك اليوم؛ ففي صبيحة العاشر من محرم الحرام بدأ القتال بين معسكر الحق ومعسكر الباطل.

---

[144] مثير الأحزان ص 38.

الفصل الثاني

الإمامة ولياقات الإمام (ع)

مقدمة. اللياقة العقلية. اللياقة العملية. لياقته العملية
في الساعات الأخيرة. اللياقة الروحية

مقدمة

لا تتم الإمامة الحقة إلا بلياقة علمية شاملة، وتقوى خالصة. ولذلك أبطل الله تبارك وتعالى مزاعم الملائكة القائلة بأحقيتهم بالخلافة على الأرض من الإنسان، وأرجعهم إلى النظر في اللياقة العلمية، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)[145].

فقد كانت الملائكة تعتقد أنّ إستحقاق الخلافة لا يتم إلا بالتسبيح والتقديس فقط ، دون الأخذ بالإعتبار قوة العقل، وقوة الإختيار بين الخير والشر. في حين بيّن لهم الله تعالى إنّ لياقات الخلافة تشمل العلم والتقوى بالإضافة إلى التسبيح. ولا ينالها الفاسق المحب لسفك الدماء.

والتقوى، وهو إتقاء غضب الله تعالى، لا تتم إلا باختيار الخير على الشر، أو اختيار الطاعة على المعصية. وهذا ما لم تتصوره الملائكة لأنها مجبولة على الطاعة، وليس لديها خيار المعصية.

---

[145] سورة البقرة: الآية 30- 33.

الثُقاة الأطهار أحبُّ إلى الله تعالى: وبذلك يكون الإنسان المطيع العابد أحبَّ إلى الله تعالى من أي مخلوق آخر، وكان رسول الله (ص) أحبَّ الخلق إلى الله لأنه أكثرهم طاعة له. وقد روي أن جبرئيل هبط على النبي (ص)، فقال: "إن ربك يقول: إن كنتُ قد اتخذتُ إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيباً، وما خلقتُ خلقاً أكرمَ منكَ، ولقد خلقتُ الدنيا وأهلها لأعرّفهم كرامتكَ ومنزلتكَ عندي، ولولاك ما خلقتُ الدنيا"[146].

أما خلفاؤه الإثنا عشر الذين ذكرهم بالإسم والوصف فقد حازوا على أفضل مراتب الإمامة والولاية بعده، كما هو متواتر. سأل الحسين (ع) جده رسول الله (ص): من بعدي أولى بي؟ قال (ص): (إبنك عليّ أولى بك من بعدك، فإذا مضى فابنه محمد أولى به من بعده، فإذا مضى محمد فابنه جعفر أولى به من بعده بمكانه، فإذا مضى جعفر فابنه موسى أولى به من بعده، فإذا مضى موسى فابنه علي أولى به من بعده، فإذا مضى عليّ فابنه محمد أولى به من بعده، فإذا مضى محمد فابنه علي أولى به من بعده، فإذا مضى علي فابنه الحسن أولى به من بعده، فإذا مضى الحسن وقعت الغيبة في التاسع من ولدك. فهذه الأئمة التسعة من صلبك، أعطاهم الله علمي وفهمي. طينتهم من طينتي...)[147].

---

[146] الفرقان بين أولياء الرحمن – أحمد بن عبد الحليم ج 1 ص 90.

[147] كفاية الأثر – الخزاز ص 175.

فلا نستغرب القول إذن أنّ أمير المؤمنين وسيد الوصيين ويعسوب الدين علي بن أبي طالب وأولاده المعصومين (ع)، هم أفضل الخلق أجمعين بعد خاتم الأنبياء محمد (ص).

الكمال في الإمامة: والإمامةُ تقتضي الكمال في جميع الفضائل البشرية. ولولا هذا الشرط لكان المفضول إمامَ الفاضل، والجاهل إمامَ العالِم، وهذا من أقبح الأمور العقلية. فكيف يقود المفضول من هو أفضل منه إلى الكمال؟

وقد حرّم الإسلام الإمامة على الفاسق أو المنافق أو الجاهل. لأن فيها فساد العالَم والمجتمع. ولاشك أنّ هدف الإمامة تحصيل سعادة الدارين، وكمال النشأتين، وسوق العالَم إلى الكمال والفلاح الدائمين. ولا يمكن تحصيل ذلك إلا من الذين عينهم الله تعالى بالنص، الذين جمعوا الصفات الكمالية في الفهم والعلم، والحزم والعزم، والرأي والحلم، والكرامة والشجاعة، والزهد والعدالة، وحسن الخلق والسيرة، والتقوى والورع. فاتبعهم المؤمنون طوعاً ورغبةً، قال تعالى: (... أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)[148]، (... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ)[149].

---

[148] سورة يونس: الآية 35.

[149] سورة الزمر: الآية 9.

والعقل يحكم إنّ الإمامةَ أمرٌ حتميٌّ وضروريٌّ لكلِّ قومٍ ولكلِّ زمانٍ. ولابد أن تكون بالنص. أي لابد للإمام الذي يهدي الأمة إلى صلاحها وقيادتها إلى الخير والفلاح، أن يكون منصوباً من قبل الله تعالى. وهذا أمرٌ عقلائي بديهي، فلو تُرك إلى البشر لاختلفوا فيه.

بل إنّ القدرة على التمييز الصائب بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، يحتاج إلى معرفة إلهية وعلم يفيضه الله تعالى على ذلك الإمام. قال تعالى مخاطباً نبيه (ص): (...إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[150].

ولذلك، فإنّ علينا مسؤولية الفحص عمن يدعي الإمامة: عن مصداقيته لها، وعن مدى إنطباق صفاته الشخصية على شروطها.

وعلى ضوء ذلك نقول: أجمع أهلُ العلم من مختلف المذاهب والمشارب أن للإمام الحسين (ع) لياقات متميزة في الإمامة الشرعية الكبرى، وهي: اللياقة العقلية، واللياقة السلوكية، واللياقة الروحية. واللياقة العقلية تعني إرادة الله تعالى في الإمام في استلهام رسالة الدين. واللياقة السلوكية تعني التقوى، وهو فعل الطاعة وترك المعصية طول حياته، لا يحيد عنها ولا للحظة. واللياقة الروحية تعني الرابط القلبي الذي يربطه بمولاه عزوجل.

---

[150] سورة الرعد: الآية 7.

(1) اللياقة العقلية

كان الإمام الحسين (ع) بشواهد سيرته الفاضلة متسلحاً بالعلم الرباني، والقدرة العقلية الفائقة التي تحيط بجميع شؤون ولايته (ع). أي إنه كان عالماً بحقائق الشريعة، وتمام خصوصيات الأحكام، وكان له فهمٌ تامٌ لجميع آيات القرآن، وتدبر عميق للكتاب المجيد، وإدراك بفضل الله تعالى وإرادته لعوالم الوجود. فالولاية التامة إقتضت أن يكون له ذلك العلم. وحيازته (ع) للعلم الإلهي لا تعني إنه سيكون مصاناً من أذى الناس باللسان، أو اليد، أو القلب.

بل تعبّر اللياقة العلمية عن عميق إدراكه للخلق، والوجود، وخالق الوجود. وأن يكون متسلحاً بعلمٍ دينيٍ كاملٍ حتى يستطيع بإطمئنان أن يُرشد الناس إلى طريق الهداية. أي أن لا يقول قطّ: لا أدري، عندما يُسأل عن مسألة دينية.

وأن يكون الإتصال العقلي أو الذهني بينه وبين خالقه متواصلاً في كل لحظة من لحظات حياته. وبتعبيرٍ آخر: يتحرك جسده على الأرض، لكن حالته العقلية مع الله تعالى، يفكر في خالقه في كل موقف. فلا يغفل – إصالة – عن ذكره تعالى في الأوقات كلها.

أ- العلم الإلهي:

والفيض الإلهي في العلم على من اختارهم الله تعالى يندرج حسب منزلة أولئك الأطهار، وطبيعة وظيفتهم في أزمان ماضية: كالخضر

(ع)، ولقمان (ع)، ووزير النبي سليمان (ع)، والنبي داود (ع)، والنبي عيسى بن مريم (ع).

يقول تعالى بخصوص الخضر (ع): (... وَعَلّمْنَاهُ مِن لّدُنّا عِلْماً)[151]، وبخصوص لقمان (ع): (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...)[152]، وفي شأن داود (ع): (وَعَلّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ)[153]، وفي حق وزير سليمان بن داود (ع):(قَالَ الّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...)[154]، وبخصوص عيسى (ع): (وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ...)[155].

فيتفاوت ذلك العلم الألهي من منابع الحكمة، وأسرار الكون، إلى استخدام الوسائل الخارقة للعادة للوصول إلى مطالب الأشياء، إلى إحياء الموتى، والعلم بالغيب، وهو ما لا يستطيع غيرهم الوصول إليه.

ويستدل أئمة أهل البيت (ع) ومنهم الإمام الحسين (ع) بقوله تعالى، بلسان حال النبي محمد (ص): (... قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)[156]، على قدرتهم العلمية والإعجازية. وهذا الذي عنده (ع) علم الكتاب ويكون شهيداً بين النبي (ص) وبين قومه لابد أن

---

[151] سورة الكهف: الآية 65.

[152] سورة لقمان: الآية 12.

[153] سورة الأنبياء: الآية 80.

[154] سورة النمل: الآية 40.

[155] سورة آل عمران: الآية 49.

[156] سورة الرعد: الآية 43.

يكون حائزاً على فيضٍ رباني، وعلمٍ إلهي، وفضيلةٍ حتى يكون مؤهلاً للشهادة لرسول الله (ص) شهادة تامة.

وكيف يستطيع ذلك الشاهد إدراك أفضلية خاتم الأنبياء محمد (ص) ما لم يكن فاضلاً بذاته. تضافرت روايات أهل البيت (ع) على إن الذي عنده علم الكتاب هو الإمام علي بن أبي طالب (ع)[157].

وعلم الكتاب يعني العلم بكل شيء في الكتاب، لأن الكتاب الذي يعلمه لابد أن يكون أحد أمرين: إما اللوح المحفوظ الذي دوّن فيه كل شيء، وإما القرآن الكريم الذي يصرح بأنه (... تِبْيَاناً لِكُلّ شَيْءٍ)[158]، (... وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[159]. فإن انحصر الكتاب لفظاً بالقرآن الكريم، كان الذي عنده علمُ الكتاب: العالِم العارف بكليات القرآن الكريم وجزئياته.

وإذا كان الذي عنده علمٌ – أي علمٌ جزئيٌّ – من الكتاب قادراً على إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن يرتدّ إلى سليمان (ع) طرفه، فان الذي عنده علم جميع الكتاب – وهو الإمام (ع) حسب الأحاديث المتواترة – قادرٌ على الإحاطة العلمية التامة بقضايا التشريع والإعتقاد بإذن الله تعالى.

---

[157] الميزان في تفسير القرآن – السيد الطباطبائي. ج 11 ص 382.

[158] سورة النحل: الآية 89.

[159] سورة الأنعام: الآية 59.

اللياقة العقلية للإمام (ع): واللياقة العقلية عند الحسين (ع) من لوازم تلك الإمامة، فهي مَلَكَةٌ تصون الإمام (ع) عن الجهل، والخطأ، والنسيان. ومن خلال دراسة سيرة حياته (ع) يتبين لنا أنه كان منشغلاً إنشغالاً تاماً بالطاعة العقلية لله تعالى، أي التفكر في الله، والتركيز على المعاني الذهنية والروحية للدعاء والصلاة والمناجاة، بالإضافة إلى الطاعة الجسدية المتمثلة بالركوع والسجود والقنوت والقيام، من الصبا المبكر وحتى الممات. فسيرة الإمام الحسين (ع) منسجمة تماماً مع التكاليف الشرعية المُناطة به، والتي لم يخالفها أبداً لأسباب[160]:

الأول: ان الهدف من إمامته (ع) هو حفظ الشريعة. ومن أجل تحقيق ذلك لابد ان يكون معيناً بنصٍ من قبل رسول الله (ص). وإذا كان الأمرُ كذلك فإنه لا يجهل أمور الدين، ولا يخطأ ولا ينسى، ولا يرتكب المعصية الشرعية أو العقلية وهو قادر عليها. لأن رسول الله (ص) لا يُعيّن شخصاً للإمامة إلا من ذاك الطراز، فأمره (ص) لا ينبع عن الهوى، إنما هو وحيٌّ يوحى. يُطلق على ذلك بالعصمة من الخطأ في الدين. ولا يمكن ان تكون العصمة في الدين متجزأة، أي لا يمكن ان يكون له فهم في أمور، وجهل في أمور أخرى. بل لابد أن تكون تامة كاملة وشاملة لجميع موارد الدين بما فيها الاعتقادات والعبادات.

---

[160] راجع كتاب الإمام علي بن الحسين (ع) – للمؤلف ص 153.

قال الإمام الباقر (ع) في كمالية علم الإمام (ع): (لا والله، لا يكون عالمٌ جاهلاً أبداً، عالمٌ بشيءٍ جاهلٌ بشيءٍ؟ الله أجلّ وأعزّ وأعظم وأكرم من أن يفرض طاعة عبدٍ يحجبُ عنه علم سمائه وأرضه! لا يحجب ذلك منه)[161].

الثاني: كانت الحاجة من وجود الإمام الحسين (ع) في النصف الأول من القرن الهجري الأول هو عدم تفويت المصالح على العباد. أي إنّ هدف الإمام (ع)، حتى ولو بعد حين من الزمان، هو منع الظلم، والإنتصاف للمظلوم، ورفع الفساد، وحمل الناس على الطاعة، ومنعهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، وحسم مادة الفتن ، وإقامة الحدود والفرائض. ولولا قيامه (ع) سنة واحد وستين للهجرة لبقي ظلم الحاكم الفاسق قائماً إلى اليوم، ولانتفى الأمل من تغيير نظام الظلم والفساد والفجور.

ففي الأثر عن أهل البيت (ع) في عدم خلو الأرض من الإمام (ع): (والله ما ترك الله الأرض منذ قبضَ اللهُ آدم إلا وفيها إمامٌ يهتدى به إلى الله تعالى، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده)[162].

والحاكم الفاسق يرتكب المعصية فلا تحصل الفائدة؛ وتصدر منه الكبائر فضلاً عن الصغائر، ولا تحصل الفائدة من وجوده لأنه يحتاج

---

[161] بحار الأنوار ج 26 ص 109.

[162] الإمامة والتبصرة – علي بن الحسين بن بابويه ص 29.

عندئذٍ إلى قائد آخر لا يرتكب المعاصي. والقائد الذي يخطأ يحتاج إلى قائد آخر يمنعه عن ارتكاب الأخطاء. وحتى لو كان معذوراً فإن العذر لا يصحح تفويت تلك المصالح على العباد.

وبذلك نستنتج بأن الإمام ينبغي أن يكون مصاناً من تلك الهفوات الخطيرة، حتى تُحرَز العدالة الواقعية من أفعاله وأقواله. ويؤيدها قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ)[163]. وهي صريحة في أنّ الولاية أو الإمامة لا ينالها الظالم. والمعصية مهما كان حجمها لاتتعدى كونها أحد أنواع الظلم الثلاثة، وهي : ظلمٌ بحق الله تعالى، أو ظلمٌ بحق الناس، أو ظلمٌ بحق النفس. وكلّها تعدُّ تعدياً لحدود الله، وقد قال تعالى: (وَمَن يَتَعَدّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُون)[164].

الثالث: لو احتملنا – على سبيل الإفتراض – مخالفة حكام بنو أمية الحق خطأً. فيلزم عندئذٍ الخروج عن طاعتهم والإنكار عليهم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا تحقق ذلك كان خلاف الهدف الذي تم فيه نصبهم من قبل الناس. وقد قال تعالى: (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...)[165]. والآية صريحة في وجوب

---

[163] سورة البقرة: الآية 124.

[164] سورة البقرة: الآية 229.

[165] سورة النساء: الآية 59.

طاعة أولي الأمر على الإطلاق كوجوب طاعته عزّ وجلّ، وطاعة رسوله (ص). وهذا لا يتحقق إلاّ بالمواصفات التي ذكرناها آنفاً في أهل البيت (ع)، لأن غيرهم قد يأمر بالمعصية خطأً أو نسياناً أو جهلاً أو عمداً، وعندئذٍ يجب مخالفته بينما أوجبت الآية طاعته. فعندئذ يقع التناقض بين وجوب الطاعة للولي وحرمة الطاعة في معصية الله عزّ وجلّ. وهذا ليس من القرآن بشيء. بل هو مستحيل بحق القرآن.

الرابع: إنّ الخليفة هو نموذجٌ للأمة التي يحكمها، ومثلٌ أعلى، فإذا لم يكن مصاناً من إرتكاب الخطأ وصدرت منه المعصية، حتى لو كانت من الصغائر، أصبح مورداً لعدم الإطمئنان به وبقيادته. لأن الصغائر من القائد أقبح من الكبائر من عموم الناس. فهنا يسقط من القلوب ولا تنقاد الناس إلى إمامته. قال تعالى في خطابه إلى نساء النبي (ص): (مَن يَأْتِ مِنكُنّ بِفَاحِشَةٍ مّبَيّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً)[166]. فما بالك لو كان الخليفة فاسقاً كيزيد بن معاوية، فأين يستقر المثل الأعلى للأمة حينئذٍ؟!!

نماذجَ من علمه (ع): وإذا عرفنا أصول اللياقة العقلية، وشروطها، وأسبابها، فلابد أن نعرف نماذجَ علمه (ع)، فهي مصاديق عملية لإمامته

[166] سورة الأحزاب: الآية 30.

(ع). فقد كان الحسين (ع) أعلم أهل زمانه وأفضلهم معرفةً بالكتاب والسنة[167]. وقد ورث العلم من بيت النبوة ومعدن الرسالة.

ومن نماذج علمه (ع) في القرآن، قوله (ع): (كتابُ اللهِ عزّ وجلّ على أربعةِ أشياءَ: على العبارةِ، والإشارةِ، واللطائفِ، والحقائقِ. فالعبارةُ للعوامِ، والاشارةُ للخواصِّ، واللطائفُ للأولياءِ، والحقائقُ للأنبياءِ)[168].

فالعِبارَةُ: الكلامُ الذي يبين المعنى. وإذا كانت العبارة حسنة دلَّ ذلك على فصاحة البيان. فـ (الحمدُ للهِ ربِ العالمين) مثلاً عبارة يفهمها الناس بوجوب شكر المنعم وحمده على نعمته لفظاً، فهي عبارةٌ جامعةٌ يفهمها عامة الناس.

والإشارةُ: التلويح بشيء يُفهم منه المراد. وإذا أخذنا نفس الآية: (الحمدُ للهِ ربِ العالمين) كإشارة إلى الخواص، لفهموها تلويحاً لهم بإقامة صلاة الليل مثلاً حمداً وشكراً وتعظيماً لله تعالى.

واللطائف: جمع لطيفة، وهي كل إشارة دقيقة المعنى تلوح للفهم ولا تسعها العبارة. فالأولياء يفهمون نفس الآية: (الحمدُ للهِ ربِ العالمين) بطريقة أوسع مما تحمله التركيبة اللغوية لها. فتفكيرهم لا ينحصر بكلمة الحمد أو فعله، بل يتعدى ذلك إلى الدخول في معاني كلمة (رب العالمين).

---

[167] مختصر تاريخ دمشق ج 7 ص 130.

[168] غوالي اللئالي – ابن أبي جمهور ج 4 ص 105.

والحقائق: جمع حقيقة، وهي الشيءُ الثابتُ يقيناً. فالأنبياء (ع) يدركون معنى (الحمدُ للهِ ربِ العالمين) بالوجود الذهني اليقيني الذي لا يزعزعه هوى نفس أو قوة تضليل.

وبذلك يكون الفهم الإنساني لكتاب الله تعالى على أربعة طبقات، كلما توغل الإنسان في العلم والتقوى ارتقى إلى مستوى أعلى؛ ولكن من يصطفيه اللهُ تعالى للنبوة، فإنه يصل إلى الحقيقة اليقينية الثابتة، وهي أعلى الطبقات في الفهم القرآني.

وللإمام (ع) قولٌ في التوحيد ومعرفة الله يستلهمه من معاني القرآن الكريم: (... هو اللهُ ليسَ كمثلهِ شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ، لا تدركهُ الأبصارُ وهو اللطيفُ الخبير. إستخلصَ الوحدانيةَ والجبروتَ، وأمضى المشيئةَ والإرادةَ والقُدرةَ والعلمَ بما هو كائنٌ. لا منازعَ لهُ في شيءٍ من أمرهِ، ولا كفوَ له يعادلُهُ، ولا ضدّ له ينازعُهُ، ولا سميّ له يشابههُ، ولا مثل له يشاكلهُ، لا تتداوله الأمور، ولا تجري عليه الأحوال، ولا تنزلُ عليه الأحداث، ولا يقدّرُ الواصفونَ كُنهَ عظمتهِ، ولا يخطرُ على القلوبِ مبلغُ جبروتهِ؛ لإنه ليس له في الأشياءِ عديلٌ، ولا تُدركهُ العلماءُ بألبابها، ولا أهلُ التفكيرِ بتفكيرهم إلا بالتحقيق إيقاناً بالغيبِ؛ لأنه لا يوصَفُ بشيءٍ من صفاتِ المخلوقين وهو الواحدُ الصّمدُ، ما تُصوّرَ في الأوهامِ فهو خلافُهُ)[169].

---

[169] تحف العقول ص 173.

ومن مصاديق علم الإمام الحسين (ع) أنه كان ينقل أحاديثَ عن رسول الله (ص) بواسطة واحدة وهي والده (ع)، ومنها ما نقله (ع) بما أوصى (ص) به علياً (ع) في حفظ أربعين حديثاً تُجمل العبادات والعقائد والأخلاق، ومن عمل بجزئياتها فقد عمل بالإسلام كله، واستحق الثواب الألهي. وفي ذلك قوله (ع): (... أن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، وأن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأنّ الدنيا فانية والآخرة باقية، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلانيتك، وأن لا تكون علانيتك حسنة وسريرتك قبيحة، فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين، وأن لا تكذب ولا تخالط الكذّابين، وأن لا تغضب إذا سمعت حقّاً، وأن تؤدّب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة، وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملنّ أحداً من خلق الله عزّ وجلّ إلا بالحق، وأن تكون سهلاً للقريب والبعيد، وأن لا تكون جبّاراً عنيداً) [170].

ب- البلاغة والفصاحة:

البلاغةُ طريقٌ فني لإيصال الفكرة إلى المخاطَبين، وتحريك مشاعرهم نحو الدين. وإصطلاحاً هي: حسن البيان، وقوة التأثير، والوصول إلى المعنى. وهذا الوصول لا يتم إلا بمطابقة الخطاب الشرعي لمقتضى حال الخطاب من الأوامر والنواهي، والإرشادات، تركيباً وأسلوباً.

---

[170] الخصال ج 2 ص 543. وبحار الأنوار ج 2 ص 154.

ويشهد على فصاحته (ع) أسلوبه البديع في مخاطبة الناس، وفي مخاطبة الله تعالى في صلاته، وفي دعائه، ففي الأوصاف الجميلة التي يستعملها، يخاطب الناس: (أيها الناسُ من جادَ سادَ، ومن بَخِلَ رَذِلَ، وإنَّ أجودَ الناسِ من أعطى مَن لا يرجو، وإن أعفى الناسِ من عفى عن قدرةٍ، وإنّ أوصلَ الناسِ من وصلَ مَنْ قطعهُ. والأصولُ على مغارِسِها بفروعها تسموا، فمن تعجّلَ لأخيهِ خيراً وجدَهُ إذا قدِم عليه غداً، ومن أرادَ اللهَ تبارك وتعالى بالصنيعةِ إلى أخيهِ كافأهُ بها في وقتِ حاجتهِ، وصرَفَ عنه من بلاءِ الدنيا ما هو أكثرُ منه، ومن نفَّسَ كُربةَ مؤمنٍ فرَّجَ اللهُ عنهُ كرَبَ الدنيا والآخرةِ، ومن أحسنَ أحسنَ اللهُ إليهِ، واللهُ يحبُ المحسنين)[171].

وفي حثّه على التقوى، يقول (ع): (أوصيكم بتقوى اللهِ، وأحذّرُكُم أيامهُ، وأرفعُ لكم أعلامَهُ، فكأنَّ المَخُوفَ قد أُفِدَ بمَهُولِ وُرُودِهِ، ونكيرِ حلُولِهِ، وبشعِ مذاقهِ، فاعتلَقَ مُهَجَكُمْ، وحالَ بين العملِ وبينكم، فبادروا بصحةِ الأجسامِ في مدَّةِ الأعمارِ، كأنكم ببغتاتِ طوارقهِ[172] فتنقلكُم من ظهرِ الأرضِ إلى بطنِها، ومن عُلُوّها إلى أسفلِها، ومن أنسِها إلى وحشتها، ومن روحها وضوئها إلى ظلمتها، ومن سعتها إلى ضيقها، حيثُ لا يُزارُ حميمٌ، ولا يعادُ سقيمٌ، ولا يجابُ صريخٌ. أعاننا اللهُ وإياكم على أهوالِ ذلك اليوم، ونَجّانا وإياكم من عقابهِ، وأوجبَ لنا ولكم الجزيلَ من ثوابهِ) [173].

---

[171] كشف الغمة ج 2 ص 29، وأعلام الدين – الديلمي ص 298.

[172] الطوارق: جمع طارقة، والطارقة هي المصيبة أو الداهية.

[173] تحف العقول ص 170.

وفي دعائه (ع) في الإحتماء عمن أراد الإساءة إليه من الظالمين، يقول (ع): (... ببسم اللهِ إستشفيتُ، وبسمِ اللهِ إستكفيتُ، وعلى اللهِ توكلّتُ، وبه استعنتُ، وإليهِ إستعديتُ على كلّ ظالمٍ ظلَمَ، وغاشمٍ غَشَمَ، وطارقٍ طرَقَ، وزاجرٍ زجرَ، فاللهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين)[174].

ج – القدرة العقلية في المهمات: لو حللّنا جميع خطب الإمام الحسين (ع) وكلامه وتوجيهاته منذ مسيره من مكة المكرمة إلى الكوفة، وإكراهه على الذهاب إلى كربلاء لرأيناها متطابقة مع بلاغة الإمام (ع)، ومتطابقة مع قدرته الإدراكية الفائقة على استيعاب الوضع الإستثنائي الشاق الذي كان يمرَّ به، ومنسجمة مع استمراره في هداية الناس وتوجيههم نحو القرآن والإسلام. وتلك قابلية فريدة لم يتحلَّ بها إلا من قال فيهم القرآن الكريم: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[175].

نقترب رويداً رويداً من نماذج تنبهُّنا إلى قوة تفكير الإمام الحسين (ع) حتى آخر لحظات حياته (ع)، بالرغم مما أصابه من الأذى الذي لا يُطاق عادةً. ففي الدقائق الأخيرة من الطف عندما أصابوا عبد الله بن الحسن (ع) بالسيف، وكان غلاماً لم يبلغ الحلم فصاح يا عماهُ، أَخَذَهُ الحُسينُ (ع) وضَمّهُ إليهِ وقالَ: (يا ابنَ أخِي، إصبرْ على ما نَزلَ بِكَ، واحتسبْ في ذلك الخير، فإنّهُ يُلحقُكَ بآبائِكَ الصالحينَ)، فَرماهُ أحدُ الجناة

---

[174] مهج الدعوات ص 298.

[175] سورة الأحزاب: الآية 33.

بسهمٍ فذَبحَهُ، فَرفعَ الحُسينُ (ع) يَديهِ إلى السماءِ قائلاً: (اللُهمّ إنّ متّعتَهُم إلى حين، ففرّقْهُم فِرقَاً واجْعلْهُم طَرائقَ قِدَداً، ولا تُرضِ الولاةَ عَنْهُم أبَداً، فإنّهُم دَعَوْنا لينَصِرُوننا فعَدَوا علينا يقاتُلُونَنا)[176].

وعندما ضَعُفَ عن القتال، وقد أخذت السهامُ منه مأخذاً، قال (ع): (يا أمةَ السّوءِ، بِئْسَما خَلّفتُم مُحمَداً في عترتِهِ، أمَا إنّكُم لن تَقتُلوا بَعدي عَبْداً من عبادِ اللهِ، فتَهابُون قتلَهُ، بلْ يَهونُ عليكُم ذلك عندَ قتلِكُم إيّايَ، وأَيمُ اللهِ إنّي لأَرْجو أن يكرمَني الله بالشهادةِ، ثُمْ ينتَقِمُ لي مِنكُم من حيثُ لا تشعُرُونَ... يُلقِي بَأسَكُم بينَكُم، ويَسِفكُ دماءَكُم، ثُمّ يَصبُّ عليكُم العذابَ الأليمَ)[177].

وعندما رموه بسهمٍ وقع في جبهته، قال (ع): (اللّهمّ إنّكَ تَرى ما أنا فيه من عبادِكِ هؤلاءِ العُصاةِ، اللّهمّ أَحْصَهِمْ عَدَداً، واقتُلْهُم بَدَداً، ولا تَذَر على وجهِ الأرضِ منهُم أحداً، ولا تَغفرْ لَهُم أَبَداً)[178].

وعندما وقع السهم المسموم على قلبه، قال (ع): (بِسمِ اللهِ وباللهِ وعلى ملّةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليهِ وآلهِ)، ورَفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقالَ: (إلهي إنّكَ تعلَمُ إنّهم يَقتلُونَ رَجُلاً، ليسَ على وجهِ الأرضِ ابنُ بِنتِ نَبيٍّ غَيرُهُ). وعندما أخرج السهم وضع يده تحت الجرح فامتلأت دماً، ثم قالَ

---

[176] الإرشاد ص 241.

[177] بحار الأنوار ج 45 ص 52.

[178] بحار الأنوار ج 45 ص 52.

(ع): (هكذا أكون، حتّى أَلقَى اللهَ وجدّي رسولَ الله (ص) وأَنا مُخضَّبٌ بدمي...)[179].

قال أحد جنود الكوفة: كنتُ واقفاً معَ أصحابِ عُمَرِ بنِ سعد، فخَرجْتُ بينَ الصفّينِ، ووقفتُ على الحسينِ (ع) – وهو طَريحٌ على الأرضِ وإنّهُ ليَجودُ بنفسِهِ – فواللهِ ما رأيتُ قَتَيلاً مضرّجَاً بدَمِهِ أحسنَ منْهُ ولا أنورَ وجْهاً، ولقَدْ شغلَنِي نورُ وجهِهِ وجَمالُ هيئتِهِ عن الفكرةِ في قتلِهِ، فاستسقَى في تلكَ الحالِ ماءً، فسمعتُ رَجُلاً يقولُ له: واللهِ لا تذوقُ الماءَ حتى تردَ الحاميةِ فتشربَ من حَميمِها، فسمعتُهُ يقولُ: (يا ويلكَ أنَا لا أردُ الحاميةَ ولا أشربُ من حَميمِها، بل أردُ على جدّي رسولِ اللهِ (ص) وأسكُنُ معَهُ في دارِهِ في مقعَدِ صدق عندَ مليك مُقتَدِر، وأشربُ من ماء غيرِ آسن، وأشْكو إليه ما ارتَكبتُم منّي وفعلتُم بِي)[180].

تلك القدرة العقلية الكاملة للإمام الحسين (ع)، وهو على ما فيه من آلالام الجرح، والقطع، والعطش، وفقدان الناصر من أعظم معجزات الطف. فقد كانت كلماته الدقيقة دالّةٌ على معانيها لم يضع كلمةً في غير مكانها، ولم يفقد سياق الألفاظ والمعاني وترابط الأفكار، ولم تتزعزع المفاهيم الدينية العميقة التي كان يبثها عبر كلماته البليغة لهم، ولم تختلط مفاهيم الدين بآلالام العطش والضربات والطعنات. كانت اللحظات الأخيرة

---

[179] بحار الأنوار ج 45 ص 53.

[180] الملهوف على قتلى الطفوف ص 75.

في حياة الإمام أبي عبد الله الحسين (ع) دليلاً بارزاً على عظمة اللياقة العقلية عند الإمام الثالث من أئمة أهل بيت النبوة (ع).

(2) اللياقة العملية

التقوى من أهم اللياقات العملية. وتتفرع منها كل العبادات: كالصلاة، والصوم، والحج، والدعاء ونحوها؛ وتتفرع منها الفضائل: كالكرم والإيثار والشجاعة الفاضلة؛ فالعابد هو المتقي الذي لا يخالف أمر الله تعالى، ويفعل كل ما بوسعه كي يفوز برضاه سبحانه.

التقوى:

تعرَّف التقوى بأنها وقاية النفس من معصية أمر الله تعالى ونهيه، قال الإمام الصادق (ع) في التقوى: (أن لا يفقدك اللهُ حيث أمرَكَ، ولا يراكَ حيثُ نهاكَ)[181]، ولا يتم ذلك إلا بترك المحظور. ذكرها القرآن الكريم في مواضع عديدة، وجعلها معياراً للتفاضل بين الناس، فقال تعالى: (... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[182].

وطالما جعل القرآن الكريم التقوى معياراً للتفاضل، نتسائل: ما هي صفات المتقين؟ يُجيبنا الإمام أمير المؤمنين (ع) بالقول: (... هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ غَضُّوا

---

[181] عدّة الداعي – ابن فهد الحلي ص 285.

[182] سورة الحجرات: الآية 13.

أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ ... أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ ... وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ. لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ)[183].

فهم أهلُ العلم، والتواضع، والعبادة، وحسن التفكر في الله تعالى، وفهم القرآن الكريم وإدراك مضامينه وأهدافه، وهم أهل الإحسان إلى الناس. وتلك لياقة عملية كان مثالها الناصع الإمام الحسين (ع). كان "سيداً زاهداً، ورعاً صالحاً، ناصحاً، حسن الخلق"[184]، "يقرأ القرآن والدموع تسيل على خديه ولحيته"[185]، كثير البر والصدقة، وقد ورث أرضاً وأشياء فتصدق بها قبل أن يقبضها[186]، حَمَلَ الطعام في غلس الليل إلى مساكين أهل المدينة[187] لم يبتغِ بذلك إلا الأجر من الله.

---

[183] نهج البلاغة – ص. خطبة 193 ص 379.

[184] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 153.

[185] تاريخ مدينة دمشق ج 14 ص 216.

[186] دعائم الاسلام ج 2 ص 337.

[187] تذكرة خواص الأمة ص 264.

وكـان (ع) يـردد: (إعلموا أن حـوائج النـاس إلـيكم مـن نعـم الله عزّ وجلّ عليكم، فلا تملّوا النعم فتعود النقم)[188]، و(صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عن سؤالك، فأكرم وجهك عن رده)[189].

إذن تلك لياقات الإمامة، فهي صفات كان يتحلى بها الإمام (ع) فـي قضـايا العبـادة، والكرم والجود، والإحسـان إلـى الفقراء، بالإضـافة إلـى الشجاعة الفاضلة، نشرحها في الوريقات القادمة:

أ- العبادة:

فالإمام الحسين (ع) كثيرُ الصلاة والعبادة، عظيمُ الخوف من ربه، شديدُ الحياء من خالقه عزّ وجلّ، حتى قيل لـه يومـاً: ما أعظم خوفك مـن ربـك؟ فقـال (ع): (لا يـأمن يـوم القيامـة إلا مـن خـاف الله فـي الدنيا...)[190].

وكان من شدة خوفه من ربـه، إذا توضـأ تغيّر لونـه وارتعدت فرائصـه، فقيل له في ذلك، فقال (ع): (حقٌ لمؤمنٍ يقف بين يدي الملك القهار أن يصّفر لونـه وترتعد مفاصـله)[191]. وكان يبكي خشية من الله تعالى ويقول:

---

188 صفوة الصفوة – ابن الجوزي ص 62.

189 كشف الغمة ج 2 ص 244.

190 المناقب ج 4 ص 69.

191 جامع الاخبار – السبزواري ص 76.

(البكاءُ من خشيةِ اللهِ نجاةٌ من النارِ، وبكاءُ العيونِ وخشيةُ القلوبِ رحمةٌ من اللهِ)[192].

صلى في اليوم والليلة ألف ركعة[193]، ومن عادته أن يختم القرآن المجيد في شهر رمضان[194]، وصفه ابن الزبير في عبادته إنه كان "طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صومه"[195].

ومما ناجى به ربه في جوف الليل: (إلهي أنعمتني فلم تجدني شاكراً، وأبتليتني فلم تجدني صابراً. فلا أنت سلبت النعمة عني بتَرْكِ الشكر، ولا أدمت الشدة عليَّ بتَرْكِ الصبر. إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم)[196].

واظبَ على العبادة والدعاء والاجتهاد في الصلاة، وإقامة الليل، والصوم، والحج كل سنة. بل كان أفضل المتعبدين في زمانه، بحيث عَبدَ الله تعالى، وصلى الظهر في عاشوراء والدماء تسيلُ على جسده الطاهر (ع).

---

[192] مستدرك الوسائل – النوري ج 11 ص 245.

[193] تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 219.

[194] سير أعلام النبلاء – الذهبي ج 3 ص 193.

[195] تاريخ الطبري ج 6 ص 273.

[196] إحقاق الحق ج 11 ص 595.

والمشـهور أنـه (ع) فـي ليلـة عاشـوراء: "قـام الليـل كلـه يصـلي ويسـتغفر ويـدعو ويتضـرع، وقـام أصـحابه كـذلك يصـلّون ويـدعون ويستغفرون"[197].

صلى في مسجد النبي (ص)، وسجدَ، وعفَّرَ خده في التراب وقال: (سيدي ومولاي ألمقامع الحديد خلقت أعضائي؟ أم لشرب الحميم خلقت أمعائي؟ إلهي إن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بكرمك، ولئن حبستني مع الخاطئين لأخبرنهم بحبي لك، سيدي إن طاعتي لا تنفعك، ومعصيتي لا تضرك، فهب لي ما لا ينفعك، واغفر لي ما لا يضرك، فإنك ارحم الراحمين)[198].

الصلاةُ الفريدةُ في التاريخ: ومن علامات إمامته (ع)، ومن مظاهر عمق اتصاله بالله تبارك وتعالى صلاته ظهر يوم عاشوراء مع قتالهم له، ورميهم له ولأصحابه بالسهام. فقد ذكّرهم الإمام (ع) بالصلاة ووجوب ادائها، تحت رشق السهام وضرب السيوف، وهذا أعظم دليل على كون الحرب التي خاضها الإمام (ع) كانت حرباً محكومة بالضوابط الشرعية والموازين الدينية، كالدفاع المحض، وعدم البدء بالقتال، والالتزام بأداء الصلاة بوقتها، وذكْرِ الله عز وجل، والموعظة الدينية الحسنة.

---

[197] الإرشاد ص 216.

[198] فرائد السمطين – الجويني ج 2 ص 262، ومقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 152.

ولاشك أنّ أداء الصلاة في مواقع الحرب حيث يتربص العدو بالمصلّين، فيه من الشجاعة ما يعجز القلم عن وصفه، وفيه من اليقين والقطع بلقاء الله تعالى ما يعجز العقل عن إدراكه أيضاً.

فقد إلتفت أحد أصحابه وهو أبو ثُمامة الصائدي إلى زوال ظل الشمس، وحلول وقت صلاة الظهر، فرفع الحسين (ع) رأسه ثم قال: (ذَكَرْتَ الصلاةَ، جَعَلَكَ اللهُ من المُصَلِّينَ الذاكرينَ! نعمْ، هذا أَوَّلُ وَقتِها). ثم قال (ع): (سَلُوهُمْ أنْ يكُفُّوا عنّا حتى نُصَلّي). فلم يستجيبوا لذلك[199]!

فأذَّنَ الحسين (ع) بنفسه، ثم دعا زهير بن القين وسعيد بن عبد الله وقال لهما: (تَقَدمّا أمامي حتى أُصلِّي الظُّهْرَ)، فتقدما أمامه في نحوٍ من نصف أصحابه حتى صلّى بهم. والمشهور عند الفقهاء أنّ الإمام الحسين (ع) صلى عند مصابه صلاة الخوف بأصحابه[200]. وتلك الصلاة لها وضعية خاصية في الركوع والسجود، فهي تصلى بالإيماء والإشارة.

ومن كلامٍ له (ع) بعد أن أتمَّ صلاته يوم عاشوراء، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: (أمَّا بعد أيُّها النَّاس فإنَّكم إن تتَّقوا الله تعالى وتعرفوا الحقَّ لأهله يكن رضاء الله عنكم، وإنَّا أهل بيت نبيكم محمد صلى الله عليه وآله وسلّم أولى بولاية هذه الأمور عليكم، من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالظّلم والجور والعدوان...)[201].

---

[199] تاريخ الطبري ج 4 ص 334.

[200] الخلاف – الشيخ الطوسي ج 1 ص 231.

[201] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 232.

ب- الكرم العظيم:

ومن صفات الإمام الحسين (ع) المتميزة: الجود والكرم، والتواضع في ذاته، والبساطة مع الناس. مر يوماً بمساكين فأكل معهم شيئاً من الخبز، ثم دعاهم إلى بيته (ع) فأطعمهم أطيب الطعام[202].

وعندما شكى أسامة بن زيد الدَيْن وهو في مرضه، تعهد الإمام (ع) بدفعه، وكان ستون ألف درهم. مع إن أسامة كان من المتخلفين عن بيعة أبيه علي بن أبي طالب (ع)، فغض الحسين (ع) الطرف عن ذلك، وبادره بالإحسان.

ويبادر إلى مساعدة الإعرابي الذي طلب منه مالاً، فأخذ يحاسب قنبر، مدير حساباته، ويسأله عن مقدار ما بقي من مال الحجاز، فيجمع الإمام (ع) ما تبقى من المال ويقدمه إلى ذلك المحتاج[203].

كان الحسين (ع) أفضل أهل زمانه في الإحسان والجود. وقد "إشتهر النقل عنه أنه كان يكرم الضيف، ويمنح الطالب، ويصل الرحم، ويسعف السائل، ويكسو العاري، ويشبع الجائع، ويعطي الغارم، ويشد من الضعيف، ويشفق على اليتيم، ويغني ذا الحاجة. وقلَّ أن وصله مال إلا فرّقه. وهذه سجية الجواد وشنشنة الكريم، وسمة ذي السماحة، وصفة من قد

---

[202] تفسير العياشي ج 2 ص 257.

[203] المناقب ج 4 ص 65.

حوى مكارم الاخلاق، فأفعاله المتلوة شاهدة له بصنعه الكرم، ناطقة بأنه متصفٌ بمحاسن الشيم..."[204].

كان المال يحمل إليه (ع) من البصرة وغيرها فلا يقوم من مكانه حتى يفرقه على الفقراء، ولا يُبقي لنفسه (ع) شيئاً. "فالكرم ثابت لهؤلاء القوم حقيقة، ولغيرهم مجازاً. إذ كل واحدٍ منهم ضرب فيه القدح المعلى فحاز منه ما حاز، فهم بحارٌ تجاوزت الغيوث سماحةً، ويبارون الليوث حماسةً، ويعدلون الجبال حلماً ورجاحةً، فهم البحور الزاخرة، والسحب الهامية الماطرة"[205].

وفيه يقول الشاعر:

فما كان من جود أتوه فإنما   تواراثه آباء آبائهم قبلُ

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه   وتغرس إلا في مغارسها النخلُ

لكن الإحسان له ضوابط يضعها (ع) بالشكل التالي: (إنّ المسألة لا تصلح إلا في غرم فادح، أو فقر مدقع، أو حمالة مفظعة[206])[207]. فيقول له السائل: ما جئت إلا في إحداهن. فيأمر له بمبلغ من المال يسد فيه حاجته. والمعنى إن الطلب يكون في مواردٍ ثلاثةٍ يحتاج فيها الإنسان للمال، وهي: الدَيْن الكبير، والفقر الشديد، والدية الهائلة. فعندها يتعين مساعدة المحتاج بمختلف الصور.

---

[204] مطالب السؤول – كمال الدين بن طلحة ص 73.

[205] الفصول المهمة – ابن الصباغ ص 176.

[206] حمالة مفظعة: أي دية أو غرامة كبيرة.

[207] تحف العقول ص 246.

وبتلك الأخلاق العظيمة يكون الحسين (ع) أحب أهل الأرض إلى أهل السماء، كما قال رسول الله (ص): (من أحبّ أن ينظر إلى أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى الحسين)[208].

ج- الشجاعة الفاضلة:

هي من الفضائل الأخلاقية التي شجع عليها العقل والدين، وتتمثل بالإقدام على المكارِه، والإستهانة بالموت؛ بل هي الصبر على النوائب، والثبات على الشدائد والنوازل. والمتحلي بها يُدلل على قوةٍ في نفسه، وإيمانٍ راسخٍ بالله تعالى.

وسيد الأبطال ورمز الشجاعة الفاضلة رسول الله محمد (ص) يصفه لنا الإمام علي بن أبي طالب (ع): (لقد رأيتُنا يوم بدر، ونحن نلوذُ برسول الله (ص) وهو أقربُنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يؤمئذٍ بأساً)[209].

والشجاعة الفاضلة لسيد الشهداء (ع) تُلخَص بثلاث خصال: بذلُ النفس للذود عن الدين، وتصميمٌ مكنّهُ من مقاومة الشر والرذيلة والفجور، ورباطةُ جأشٍ سددهُ في اللحظات الأخيرة وهو على ما فيه من الألم الجسدي. فشجاعته كانت شجاعة أخلاقية فاضلة، فاقت كلُ من ضحى في التاريخ من أجل مبدأه ودينه.

---

[208] المناقب ج 4 ص 73.

[209] مسند أحمد بن حنبل ج 1 ص 86.

ولو سأل سائل: من هم أباة الضيم؟ لكان الجواب: "سيد أهل الإباء، الذي علّم الناس الحميّة والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدَّنيّة، أبو عبد الله الحسينُ بن عليّ بن أبي طالب (ع)؛ عُرِض عليه الأمان وأصحابه، فإنِفَ من الذّل، وخاف من ابن زياد أن ينالَه بنوعٍ من الهوان؛ إن لم يقتُله، فاختار الموت على ذلك...

وكأنّ أبيات أبي تمام في محمد بن حُميد الطائيّ ما قيلت إلا في الحسين (ع):

وقَدْ كانَ فَوْتُ الموتِ سَهْلاً فرَدَّهُ   إليه الحفاظُ المُرُّ والخلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف الضَّيمَ حتى كأنّه   هو الكفرُ يوم الرَّوْعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ
فأثبتَ في مُستنقَعِ الموتِ رِجْلَهُ   وقال لها: من تحت أخمَصك الحَشْرُ
تَرَدّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما أتى   لهَا الليل إلا وهيَ من سُندُسٍ خُضْرُ

لما فرّ أصحابُ مصعب عنه، وتخلّف في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، كسر جَفنَ سيفه[210] وأنشد:

فإنّ الألى بالطفِ من آل هاشم   تأسوا فسنّوا للكرامِ التأسيا

فعلم أصحابه أنه قد استقتل"[211].

نقل الإمام زينُ العابدين (ع) كلام أبيه (ع) يوم الطف: (ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ، قد خيّرنا بين اثنتين: السِّلة[212] أو الذلّة، وهيهات منّا

---

[210] جفن السيف: غَمَد السيف. أي قرر أن لا يُرجِعَ السيفَ إلى غمده. فلا رجعة عن القتال والموت.

[211] نهج البلاغة – شرح ابن أبي الحديد ج 3 ص 4.

[212] السلِّة بالكسر: إستلال السيف. وقوله: السلّة أو الذلّة أي الحرب أو الذلّ.

الذلـة! يـأبى الله لنـا ذلـك، ورسـوله والمؤمنـون، وحجـور طابـت وطَهُـرت، وأنـوفٌ حميـة، ونفـوس أبيـة مـن أن نـؤثر طاعـة اللئـام علـى مصـارع الكرام...)[213].

وهذا نحو قول أبيه (ع): (إن امرأً أمكن عدوّاً من نفسه، يعرُق لحمه، ويفري[214] جِلْده، ويهشِم عظمه، لعظيمٌ عجزُه، ضعيفٌ ما ضُمّت عليه جوانح صدره؛ فكن أنت ذاك إن شئت؛ فأما أنا فدون أن أعطيَ ذلك ضربٌ بالمشرِفية[215] تطير منه فراش العام، وتطيح السواعد والأقدام)[216].

ويكفي الحسين (ع) فخراً أنّ جده رسول الله (ص) أورثه الجود والشجاعة كما في الرواية. ومن شجاعته الفذة أنّه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، كما قالها مصعب بن الزبير[217]. لقد كان الحسين (ع) حقاً شديدَ العزةِ[218] والأباء. وقد وصفه ذلك الرجل الذي شهد الطف فقال: "... ثارت علينا عصابةٌ أيديها في مقابضِ سيوفها كالأسود الضارية، تحطم الفرسانَ يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت. لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض

---

[213] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 2 ص 7.

[214] يفري: يشق.

[215] المَشرَفية: سيفٌ يجلبُ من المشارف.

[216] نهج البلاغة – ح. ج 3 ص 250.

[217] تاريخ الطبري ج 6 ص 273.

[218] تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 293.

المنية..."[219]. وهل بعد شجاعة الحسين (ع) شجاعة؟ وهل بعد معركة الطف معركة؟!

لياقته العملية في الساعات الأخيرة

كانت لياقته العملية يوم الطف متميزة إلى درجة أنها كانت أقرب إلى الإعجاز. فقد قضى (ع) وأهله وأصحابه الليل في الصلاة والتهجد وتلاوة القرآن بحيث كان لهم دوي كدوي النحل في التلاوة والدعاء والصلاة.

ثم في نهار عاشوراء خاطب (ع) جيش الكوفة مرات، يدعوهم فيها إلى تحكيم الدين، والرجوع إلى المبادئ الفاضلة في التعامل الإنساني.

فقال (ع) في الأولى: (الحمدُ للهِ الذي خَلَقَ الدنيا فجعلَهَا دارَ فناءٍ وزوالٍ، مُتَصَرّفةً بأهلِها حالاً بعدَ حالٍ، فالمغرورُ مَنْ غرَّتْهُ والشقيُّ مَنْ فتنتْهُ، فلا تَغُرَّنكُم هذهِ الدنيا، فإنها تقطعُ رجاءَ مَنْ ركَنَ إليها...) [220].

وفي الثانية، قال (ع): (... إنَّهُ لا يحِلُّ لكم قتلي ولا إنتهاكُ حُرمتي، فإني إبنُ بنتِ نبيّكُمْ وجدَّتي خديجةُ زوجةُ نبيكم، ولعلَّهُ قد بلغَكُمْ قولُ نبيكم: الحسنُ والحسينُ سيدا شبابِ أهلِ الجنةِ)[221].

وفي الثالثة، قال (ع): (أيُّها الناسُ! إسمَعُوا قَوْلي، ولا تعَجلُوني حتى أعِظَكُمْ بما هو حَقٌّ لَكُمْ عَلَيَّ، وحتى أعتذِرُ إليكُمْ مِنْ مَقْدَمي عليكُمْ،

---

[219] نهج البلاغة – ح. ج 3 ص 263.

[220] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 252.

[221] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 252، وبحار الأنوار ج 45 ص 5.

فإنْ قَبِلتُمْ عُذْري وصدَّقْتُمْ قولي، وأعطيتُمُوني النَصَفَ، كُنْتُمْ بذلكَ أسعَدُ، ولمْ يكُنْ لكُمْ عليَّ سبيلٌ، وإن لم تَقْبَلُوا منّي العُذْرَ، ولم تُعْطُوا النَّصَفَ مِنْ أنفُسِكُمْ (...فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ)[222]، (إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[223]...) [224].

وفي الرابعة، قال (ع): (يا قومَ الكوفة إنّ الدُّنيا قد تغيَّرت وتكدَّرت، وهذهِ دارُ فناءٍ وزوالٍ تتصرفُ بأهلِها من حالٍ إلى حالٍ. فالمغرورُ من أغترَّ بها، وركنَ إليها، وطمعَ فيها. معاشر الناس: أما قرأتُم القرآنَ، أما عرفتُم شرايعَ الإسلامِ؟ وثبتم على ابنِ نبيّكم تقتلونَهُ ظُلماً وعدواناً...) [225].

وفي الخامسة، قال (ع): (تَبّاً لكُم أيَّتها الجماعَةُ وتَرَحاً أفحينَ استَصْرَخْتُمُونا وَلهينَ مُتَحَيّرينَ فأصْرَخْناكُم مُؤَدّينَ مُستَعِدّينَ، سَلَلْتُمْ عَلَيْنا سَيفاً في رِقابِنا، وحَشَشْتُمْ عَلَينا نار الفِتَنِ التي جَناها عَدُوُّكُمْ وعَدُوُّنا، فأصبَحْتُم إلباً على أوليائِكُم، ويَداً عَلَيهِم لأعدائِكُم، بغَيرِ عَدْلٍ أفشُوهُ فيكُمْ، ولا أَمَلٍ أَصبَحَ لَكُمْ فيهِم، إلاّ الحَرامَ من الدُّنيا أنالُوكُمْ، وخَسيسُ عَيْشٍ طَمَعْتُمْ فيهِ، مِنْ غَيْرِ حَدَثٍ كانَ مِنّا، ولا رأيٍ تَفَيَّلَ[226] لنا) [227].

---

[222] سورة يونس: الآية 71.

[223] سورة الاعراف: الآية 196.

[224] تاريخ الطبري ج 3 ص 318، والإرشاد ص 234.

[225] ينابيع المودّة ص 340.

[226] تَفَيَّلَ: ضعف واخطأ، تفيَّل رأيه: ضعف رأيه واخطأ.

[227] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 2 ص 6.

ثم قال (ع): (... ألا أنّي قَدْ أعذَرْتُ وأنْذَرْتُ، ألا إنّي زاحِفٌ بهذِهِ الأسرَةِ على قِلَّةِ العِتادِ، وخَذَلَةِ الأصحابِ) [228].

ثم صلى صلاة الظهر بمن تبقى من أهل بيته (ع) وأصحابه، وبعد أن أتمَّ صلاته، حمد الله وأثنى عليه، وقال (ع): (أمَّا بعد أيُّها النَّاس فإنَّكم إن تتَّقوا الله تعالى وتعرفوا الحقَّ لأهله يكن رضاء الله عنكم ...)[229].

وبعد استشهاد إبنه علي الأكبر، اعتنقه وقال (ع): (قَتلَ اللهُ قَوماً قتلوكَ يا بُنيَّ، ما أجرأَهَم على الرحمنِ، وعلى انتهاكِ حرمة الرسولِ (ص)! على الدنيا بعدكَ العفا يا بُنيّ! أمّا أنتَ فقد استرحتَ منْ الدُّنيا وضَيمِها، وقد صِرْتَ إلى روح وريحان، وبقي أبوكَ، وما أسرعَ لحوقَه بكَ)[230].

ثم كان يكرر القول: (هوّنَ مانزلَ بي أنهُ بعينِ الله تعالى)، و(لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم)[231].

وعندما أقبلت الخيلُ عليه (ع) في اللحظات الأخيرة، قال: (اللهم أنتَ ثقتي في كُلِّ كربٍ، وأنتَ رَجائي في كُلِّ شدةٍ، وأنتَ لي في كُلِّ أمرٍ نَزَلَ بي ثقةٌ وعدّةٌ، كَمْ يا آلهي من همٍّ يضعفُ فيهِ الفؤادُ، وتقلُّ فيهِ الحيلةُ، ويخذلُ فيهِ الصديقُ، ويشمتُ فيهِ العدوُ، أنزلتَهُ بكَ وشكوتَهُ إليكَ رغبةٌ مني

---

228 مقتل الحسين (ع) – ز. ج 2 ص 6.

229 مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 232.

230 بحار الانوار ج 45 ص 43، مقاتل الطالبيين – أبو الفرج الأصبهاني ص 115.

231 بحار الأنوار ج 45 ص 46.

إليكَ عمّن سواكَ. ففرّجتَهُ عني وكشفتَهُ، فأنتَ وليُّ كُلِّ نعمةٍ، وصاحبُ كلِّ حسنةٍ، ومنتهى كُلِّ رغبةٍ)[232].

وأخيراً دعاؤه العظيم قبل استشهاده بقليل: (اللهم متعالي المكانِ، عظيم الجبروتِ، شديد المحالِ، غنيٌّ عن الخلائقِ، عريضُ الكبرياءِ، قادرٌ على ما تشاءُ، قريبُ الرحمةِ، صادقُ الوعدِ، سابغُ النعمةِ، حسنُ البلاءِ، قريبٌ إذا دُعيتَ، محيطٌ بما خلقتَ، قابلُ التوبةِ لمن تابَ إليكَ، قادرٌ على ما أردتَ، ومدركٌ ما طلبتَ، وشكورٌ إذا شُكرتَ، وذكورٌ إذا ذُكرتَ. أدعوكَ محتاجاً، وأرغبُ إليك فقيراً، وأفزعُ إليكَ خائفاً ...)[233].

تلك السيرة الأخلاقية العبادية العظيمة للإمام الحسين (ع) لا تُقارن بسيرة أي إنسان في ظرفٍ مشابهٍ، ولا تُقارَن بأي كائنٍ مخلوقٍ له عاطفة ومشاعر، وفيها دلالة على أن لياقته التعبدية والأخلاقية كانت أقوى من الآلام التي أنزلها العدو به، في ذلك الوضع المأساوي.

(3) اللياقة الروحية

المقصود باللياقة الروحية: جانب الإرتباط بالله تعالى في شخصية الإمام الحسين (ع). فكيف يتعامل الإمام (ع) في قرارةِ نفسه مع الله تبارك وتعالى؟ وهل نستفيد من أدعيته (ع)، وخطبه، ومواعظه ما يوصلنا إلى ذلك؟

---

[232] الإرشاد ص 233.

[233] مصباح المتهجد – الشيخ الطوسي ص 827.

كمدخل للموضوع نذكر مثلاً للياقة الروحية في قول الله تعالى الموجّه لرسول الله محمد (ص): (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا. إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)[234].

فالآيات الكريمة تأمر النبي (ص) بقيام الليل، والصلاة فيه ليستعد بذلك لمهمته الشريفة في دعوة الناس إلى الإسلام. وصلاة الليل هي عملية تهيئة للنبي (ص) لشرف القرب من الملكوت الأعلى. ففيها صفاء الإتصال بالله تعالى، والإنقطاع لذكره سبحانه، حيث صفاء الوجود وهدوء المحيط من صخب الدنيا من حوله.

لخّصَ الإمامُ الصادق (ع) اللياقة الروحية، وطبيعة الإتصال بالله تعالى باجتماع الرغبة والرهبة في قلبٍ واحدٍ.

الرغبة: في عبادة الله تبارك وتعالى، واستفراغه الوسع في التوجه المطلق نحوه تعالى، وترك الدنيا وما فيها من ملذات أو متاعب وراء ظهره، والتشوق في الطاعة المطلقة لأوامره سبحانه.

الرهبة: الخوف مما يحمله غضب الله عزوجل بالعبد، والخشية مما فات العبد في حق مولاه العظيم.

وصفها الإمام الصادق (ع)، بهذه الكلمات البليغة: (لا تجتمع الرغبةُ والرهبةُ في قلبٍ إلا وجبت له الجنّة، فإذا صليتَ فأقبل بقلبكَ على

---

[234] سورة المزمل: الآية 1 – 8.

الله عزوجل، فإنه ليس من عبدٍ مؤمنٍ يُقبِلُ بقلبهِ على الله عزوجل في صلاته ودعائه إلا أقبل اللهُ تعالى عليه بقلوب المؤمنين إليه، وأيدهُ مع مودتهم إياهُ بالجنّة)[235].

وطبيعة إتصال الحسين (ع) بالله تعالى تجمله تلك الجملة العظيمة من دعائه (ع): (اللهم اجعلني أخشاك كاني أراكَ)[236]. فهو يدعو الله سبحانه أن يكون الإتصال معه راسخاً في أعماق ذاته، وكأنه يتوسلُ به، ويتصوره في عقله، لا تحدُّهُ حدود التاريخ، ولا تقيّده قيود الزمن. فهو ينفّذ ما يُريده تعالى منه، واللهُ يُمضي ما يشاءُ فيه، وهو تعالى راضٍ عنه، فالعبدُ الذليل المطيع راضٍ عن خالقه ومولاه العظيم، كما يشير قوله تعالى: (... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ...)[237]، (... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ...)[238].

وإذا وصل الإنسان إلى ذلك العمق مع الله تعالى فقد أسس له رابطة روحية متماسكة، صلبة، لا تزعزعها محنُ الأيام، ولا مصائب الزمان.

ويطلب من ربه تعالى أن لا يكله إلى أحد، لأنه سبحانه أرحم من الناس، وهو أقرب إليه منهم، يقول (ع): (إلهي إلى من تكلْني، إلى قريبٍ فيقطعُني، أم إلى بعيدٍ فيتجهمُني، أم إلى المستضعَفِين لي وأنتَ ربي

---

[235] من لا يحضره الفقيه – الشيخ الصدوق ج 1 ص 209.

[236] بحار الأنوار ج 95 ص 226.

[237] سورة التوبة: الآية 100.

[238] سورة المائدة: الآية 54.

ومليكُ أمري، أشكو إليكَ غُربتي، وبُعدَ داري، وهواني على من ملَّكتَهُ أمري) [239].

وهو وإن كان يناجي ربه تعالى، إلا إنه وحيدٌ في هذه الدنيا، لأن قلبه (ع) قد تعلق بالحق، وارتبط بالملكوت الأعلى. فأصبح كلُ شيءٍ في الدنيا غريباً على الحسين (ع)، لأن عالمه الروحي ينقله دائماً إلى القرب من الله تعالى. فأين ذلك السمو في القرب من مولاه العظيم من هذه الدنيا الزائلة التي يسودها الظلم، والطمع، وقسوة القلب؟

ويشكو (ع) إليه غربته، وكأنه يريد القول: أريدُ أن أصلَ إليك يا ربي. فهو يتمنى أن يصل إليه سبحانه فيشكي إلى ربه غربته في الدنيا، فداره الحقيقية ليست في هذه الدنيا، بل أن داره الحقيقية هي القرب من الله. فيتصور، وهو في هذه الدنيا، بُعدَ داره الأبدية، كبُعد السماء عن الأرض.

ويخاطب (ع) ربه تعالى، ويقول أنت مأواي الذي آوي إليه، وأنتَ ملجئي الذي ألتجأُ إليه: (اللهم من آوى إلى مأوى فأنت مآواي، ومن لجأ إلى ملجأٍ فأنت ملجأي)[240].

فطالما أسس لذلك الإرتباط مع مولاه تبارك وتعالى، قصده واصفاً حاله (ع) قائلاً: إنني لا أملك مأوىً آوي إليه في هذه الدنيا غيرك أنت، فأنت مآواي الذي أستقر عنده، وأشعرُ بالنعيم والسعادة معه. لا شيء

---

[239] بحار الأنوار ج 95 ص 226.

[240] مهج الدعوات ص 49.

يسعدني في هذه الدنيا غير التفكر بك، والإرتباط برحمتك، وأنت رجائي، وأنت أملي المشرق في ظلام هذا الوجود.

يقول (ع) في دعائه: (... جعلتَ قلوبَ أوليائكَ مسكناً لمشيتك، ومكمناً لإرادتك، وجعلت عقولهم مناصبَ أوامرك ونواهيك، فأنت إذا شئتَ ما تشاءُ حرّكتَ من أسرارهم كوامِنَ ما أبطنتَ فيهم، وأبدأتَ من إرادتكَ على ألسنتهم ما أفهمتهم به عنك...) [241].

ارتفع الإرتباط بينه (ع) وبين الله تعالى إلى درجة أن قلبه أصبح مسكناً لمشيئة الله تعالى، يرضى بكل ما قسمَهُ له، وحتمَ، وقضى سبحانه، وبمشيئته تعالى حرّك مكامن ما أبطن فيه من الشوق لخالقه، والإحساس بالغربة في عالمٍ وُضِعْنا فيه لإختبار قدرتنا على لوي عنق الشر والرذيلة، والفوز برضاه وقبوله سبحانه وتعالى.

---

[241] بحار الأنوار ج 85 ص 214.

الفصل الثالث

صبيانُ معركة الطف ونساؤها

مقدمة. صبيان الطف ومرضاها. من معجزات
الطف. نساءُ الطف. دلالات إجمالية.

مقدمة

ما هو التأثير العقلي الذي تركه وجود العيال في معركة الطف على الإمام الحسين (ع)؟ ونقصد بالعيال: أهلُ بيته (ع) الذين كان يكفلهم كزوجته، وأولاده، وأولاد أخيه (ع)، وكل من تعلق به من مرضى وقاصرين. قبل الإجابة على السؤال نحاول بحث موضوع اصطحاب[242] الصبيان والنساء معه في رحلته إلى الكوفة!

فعندما خرج الإمام (ع) بعياله وأصحابه من مكة المكرمة كانت وجهته الكوفة، لكنه أُجبر على المسير إلى كربلاء حيث وقعت الواقعة المأساة. فكيف حَملَ عياله معه وهو يعلم أنه مُقدِمٌ على القتل؟

في الجواب على هذا السؤال نعرض افتراضات ثلاثة، هي:

الأول: إن الإمام الحسين (ع) كان ذاهباً إلى الكوفة لسببين. أولهما: طلب أهل الكوفة لإمامٍ شرعيٍ يرشدهم في حياتهم، ويقودهم إلى فهم الدين وتطبيقه. وثانيهما: وجود الناصر، وهم مجتمع الكوفة بأعيانه، ونخبه، ورجاله، ومقاتليه. فكان في حساب الإمام (ع) من الناحية الظاهرية أنه ذاهبٌ إلى عاصمة دولة أبيه (ع). فمن الطبيعي أن يصطحب معه عياله، وأهل بيته، وأصحابه (ع). وهذا لا ينفي علمه بما سيؤول الوضع عليه (ع)، وعلى أهل بيته، كما أشار إلى ذلك صراحةً (ع): (إن الله قد شاء أن

---

[242] اصطحب ابنه (في اللغة): حفظه، واتخذه مرافقاً له.

يراهُنَّ سبايا)[243]. فهو يمضي على تقديرٍ آلهي حتمي لم يكن غريباً عليه (ع).

الثاني: أنه لما علم بأنه مقتول لا محالة قرر أن لا تذهب تلك التضحية هدراً. فكان لابد من صوت قوي، ولسان فصيح، ومنطقِ علم يعرّف الناس بما حصل يوم الطف من إعتداء على ذرية النبي (ص) وحرمته. فقامت حرائر النبوة (ع) بتعريف الناس بأهداف الحسين (ع). فزينب (ع) إبنة أمير المؤمنين (ع) كانت على جانب عظيم من العلم والمعرفة، وعلى قاعدة قوية من الثبات والطمأنينة، لم يرعها الأسر، وذلّ المنفى، وصراخ الاطفال، وأنين الثكالى من أن تقوم بوجه عبيد الله بن زياد قائلة: (هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذٍ...)[244]. ولولا قيامها لأصبحت واقعة كربلاء رواية غير مكتملة الفصول!

الثالث: كان لدى الحسين (ع) علمٌ عن رسول الله (ص) وأبيه علي (ع) بأن هؤلاء وإن بلغوا الغاية في القتل والجرح وعدم الرحمة، إلا أنهم لا يستطيعون مد يد السوء إلى النساء، لأمر رباني. وقد خاطب الحسين (ع) نساءه بالقول: (ألبِسوا أزركم، واستعدوا للبلاء، واعلموا أن الله حاميكم،

---

[243] الملهوف – ابن طاووس ص 53.

[244] بحار الأنوار ج 45 ص 116. الإرشاد ص 228.

وحافظكم، وسينجيكم من شر الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذب أعاديكم بأنواع العذاب، ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة! فلا تشكوا، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم)[245]. والمرأة وإن وضع عنها الجهاد بالسلاح، إلا أن الجهاد بالكلمة جائز لها شرعاً.

وتلك الإفتراضات الثلاثة، وإن قرّبت لنا المعنى في أخذ الصبيان والنساء في رحلته إلى العراق، إلا أنها تبقى إجابة تحتاج إلى توضيح أكبر، خصوصاً إذا قارنّاها بهجرة المسلمين الأولى من مكة إلى المدينة. فقد أمر النبي (ص) علياً (ع) باصطحاب الفواطم الثلاث في رحلتهم الخطرة تلك. فكان عليٌّ (ع) حامياً لهن. بينما هاجر النبي (ص) بصورة منفصلة عن عياله.

والأقرب إلى المبنى العقلي في أحوال واقعة الطف وأسبابها أنه كان لها تخطيطٌ ربانيٌ كي توقع أكبر الأثر في نفوس الناس، في مدى تاريخي غير محدود. ولذلك كان جوابه (ع) لمحمد بن الحنفية عندما سأله عن سبب أصطحاب عياله: (إن الله قد شاء أن يراهُنَّ سبايا)[246]، و(إنّ الله قد شاء أن يراني قتيلاً)[247]. فهي إذن مشيئة آلهية كان الحسين (ع) ينفذها بعلمٍ.

---

[245] جلاء العيون – المجلسي ص 576.

[246] الملهوف ص 53 – 56.

[247] الملهوف ص 53 – 56.

صبيان الطف ومرضاها

لم يحصل في تاريخ الحروب أو القتال بين فئتين أن القائد اصطحب عياله معه إلى ساحة الحرب، ولم يحصل أن استمر القائد في القتال والدفاع عن نفسه وأهله، بينما كان صبيانه ونساءه في مخيم قريب! عدا ما وقع في الطف سنة واحد وستين هجرية مع الإمام الحسين (ع).

الحرب والعيال: تشكل الحرب، بصورة عامة، عبئاً ثقيلاً على القاصرين، خصوصاً العيال من نساء وأطفال وشيوخ. فهناك جهدٌ عقليٌّ وعاطفيٌّ يُهدَر من قبل القاصرين، وهم يرون القتل والذبح، دون أن يكون لهم دورٌ في تحديد مصير المعركة.

وواقعة الطف فريدة من نوعها في التاريخ، لأنها كانت حرباً تضطرم أمام النساء والصبيان والمرضى؛ وهؤلاء كانوا قاصرين بمعنى أنهم لم يمتلكوا القدرة على القتال. فكانوا ينظرون إلى ساحة المعركة المحصورة بين الخيم القليلة وجيش العدو، من خلال فضائهم المحدود، ويشاهدون بروز الأبطال من بني هاشم ومن أصحاب الحسين (ع) لقتال الأعداء، ثم يُقتَلون، ثم تُؤتَى أجسادهم الطاهرة، وتُوضع بجانبهم في خيمة خاصة بالشهداء السعداء.

المنظرُ مرعبٌ بحقٍ لكل من كان له إحساسٌ إنسانيٌّ أو شعورٌ ووجدانٌ. وحتى لو لم يكن الجرح جرحاً جسدياً فهو بلاشك جرحٌ نفسي يصيب المرأة التي تشاهد مصرع زوجها العزيز عليها، والولد الصغير الذي يشاهد مصرع والده، والبنت الصغيرة التي تشهد مصرع والدها أو أخيها.

تلك المشاهد الدرامية الدامية تؤثر على مجرى إدراك هؤلاء النسوة والصبيان من آل محمد (ص)، وتبقى تلك المشاهد محفورة في أذهانهم حتى نهاية حياتهم.

آثار الحرب على الصبيان والنساء: ولا يمكن للجرح النفسي الذي تسببه الحرب على العيال أن يندمل مطلقاً. فكلُ من يشاهد ظلماً بذلك الحجم يقعُ على إنسان آخر لابد أن يتألم ويحس بجرح عميق تبقى آثاره. حتى الطفل الصغير يشعر بالحزن إذا كانت الأجواء من حوله حزينة بمقتل أبيه. ولا تملك المرأة المشغولة بالحزن على مقتل زوجها المزاج الكافي لمداعبة صغارها، أو اللعب معهم، أو التصابي لهم.

وأكثر من تركت الحرب فيهم آثاراً مزمنة هي: أخت الإمام الحسين (ع) زينب (ع) التي توفيت بعد عام ونصف تقريباً من واقعة الطف، وإبنه الإمام زين العابدين (ع): فقد نُقل عنه (ع) أنه ما وُضع بين يديه طعام إلا بكى[248] حزناً على أبيه (ع)، والإمام محمد الباقر (ع) حيث كان له من العمر أربع سنوات أو نحوها.

والأثر الأكبر الذي يقع على القاصرين والعيال، وهم يشاهدون الحرب ويعايشون أحداثها هو أنهم يعزفون عن الحياة ومباهجها، ولا يكترثون لاحقاً بنعمها التي يتزاحم عليها الناس عادةً.

---

[248] الخصال – الشيخ الصدوق ج 2 ص 518.

وطالما كان أهل البيت (ع) لا يكترثون للحياة الدنيوية أصلاً، كما نقرأ في تاريخ الإمام علي (ع) والحسن (ع)، والحسين (ع)، فهذا الأثر يتماشى مع خطاهم (ع) في الحياة. والفكرة إنّ الدنيا إذا تلبدت عليهم (ع) فإنّ ذلك لا يغير من سلوكهم كثيراً. وإذا كان الإمام علي (ع) يقول: (وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليٍّ ولنعيمٍ يفنى، ولذةٍ لا تبقى)[249]، فهي لا تساوي أكثر من ذلك عند الإمام زين العابدين (ع) أو الإمام الباقر (ع).

يريد القاصرون (وبالخصوص الأطفال) من آبائهم وأمهاتهم الولاية أو الرعاية وأن يُفهموهم معاني العالَم المحيط بهم. فهم يحتاجون إلى الطعام، والحنان، والتربية، وفهم العالَم. وتلك العناوين تندرج تحت عنوان أكبر، وهو ولاية القاصر من قبل وليه. والأب أو الجد أحرص الناس على رعاية شؤون القاصرين من ذريته.

تَصوَّرْ شعور الإمام الحسين (ع)، وأهل بيته، وأصحابه وهم يروون صغارَهم يبصرون مقاتِلَ هؤلاء الرجال الأبطال بأمّ أعينهم. فأي عالمٍ سيتصوره أولئك الأطفال عندما يبلغون سن الرشد؟ لقد شاهدوا – وهم في مقتبل حياتهم – عالَماً مشحوناً بالوحشية، والأفعال الفظيعة من قبل الأعداء. لقد تعمّقت عند هؤلاء الصبية رؤية الجانب المظلم من روح الإنسان، وهم لا يزالون لم يبلغوا الحلم بعد!

---

[249] نهج البلاغة – تحقيق صبحي الصالح، خطبة 223 ص 439.

هكذا نتصور الوضع الإنساني لهؤلاء القاصرين، ولكن نظرة معمّقة قد تجعلنا نتراجع عن هذا الرأي، ونقرُّ بخطئِنا! فلنقرأ بعضاً من معاجز الطف!!

من معاجز الطف: التأثير العكسي على العيال

استطاع بنو أمية قتل الحسين (ع)، وأبنائه، وأصحابه، لكنهم لم يقدروا على قتل الفكرة التي حملها (ع)، فبقيت مشعّةً في عقول صبيان الطف وأفئدتهم من آل الرسول (ص) ومن صبيان الأصحاب. ولتوضيح ذلك نعرض الأفكار التالية:

أولاً: من الملفت للنظر أنَّ مَنْ تبقى من صبية بني هاشم وصبية أصحابهم من الذين شاهدوا فظائع جيش الكوفة في الطف بأمِّ أعينهم، لم يزيغوا عن جادة الدين، بل أصبحوا أكثر قرباً للدين ولأئمتهم (ع). وهذه كتب التاريخ تنقل لنا ذلك. كل ذلك مع محاولات بني أمية المستميتة لحرف وقائع الأحداث. لم يفقد أطفال واقعة الطف إيمانهم وثقتهم بالله عزوجل، وبصحة مواقف الإمام الحسين (ع)، بل إزدادوا تصميماً على التمسك بالدين وبإمامة أهل بيت النبوة (ع).

ثانياً: ومن خطورة آثار الحرب على القاصرين هو إنسحاب أولئك القصّر من الحياة الإجتماعية لاحقاً، وعدم الإهتمام بشؤون الناس وإدارة ظهورهم للمجتمع الذي خذلهم!

والآثار النفسية للحرب تقاس على الذين يشاهدونها مشاهدة العيان، وينسحبون منها لسبب من الأسباب كالجرح، أو الاسر، أو المرض، أو الصدمة النفسية. وغالباً ما تؤثر أجواء الحرب عليهم فينقلبوا جناة مجرمين يحبون القتل وسفك الدماء. إلا أن ذلك لم يحصل في واقعة الطف من طرف معسكر الإمام الحسين (ع) أبداً.

أمثلة من معجزات الطف: ولو أخذنا مثالين ممن عايشوا الطف بكامل أحداثها، لما رأينا ذلك التأثير السلبي، وتلك من معاجز الطف التي تحتاج إلى وقفة متأنية!

والمثالان هما: الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع)، والإمام محمد الباقر (ع).

المثال الأول: علي بن الحسين (ع) كان مريضاً وقيل ان عمره كان ثلاث وعشرين سنة وقيل غير ذلك[250]. كان زين العابدين (ع) قاصراً عن القتال من ناحية المرض، لا من ناحية العمر.

فقد كان علياً شهد المعركة من بدايتها حتى نهايتها، ورأى مقتل أبيه الإمام الحسين (ع) وأخوته وأبناء أعمامه (ع)، إلا انه كرّس حياته فيما بعد لعبادة الله تعالى، وإرشاد الأمة وتعليمها، وانغمس بالدعاء والتوسل

---

[250] الطبقات الكبرى ج 5 ص 163.

إلى الله. وكان (ع) أشدُّ يقيناً بثواب الله تعالى من أيٍّ من معاصريه على الإطلاق.

تسلّم مهام الإمامة الشرعية بعد استشهاد أبيه (ع)، وتوجه توجهاً تاماً للدعاء والعبادة والإرشاد. كلُّ ذلك بعدما رأى ما حصل لأبيه (ع) وأخوته وأبناء عمومته وأصحاب أبيه (ع) من القتل، وما حصل لأسرته (ع) من الأسر. أثّرت عليه مشاهد الحرب عاطفياً، فأصبح البكاء سمة من سماته الشخصية، لكنها لم تؤثر عليه في قوته العقلية، ولا في إمامته، ولا في عصمته (ع). كان إماماً معصوماً أعترف بعلمه وعبادته الداني والقاصي.

فقد " كان أفضل هاشمي في زمانه "[251]، و" كان ذو فضل عظيم على أهل بيته وعصره، ولقد أوتي من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤته أحدٌ مثله ولا قبله إلا من مضى من سلفه "[252]، و" كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتألّهه وكمال عقله"[253].

فلم تؤثر أحداث الطف الفظيعة في قتل أقرب الناس إليه وهو والده (ع)، بالإضافة إلى أخوته وأهل بيته (ع) على قدرته العقلية، وإمامته. نعم

---

[251] عن حماد بن زيد من أبرز فقهاء البصرة (تهذيب التهذيب – العسقلاني ج 3 ص 9).

[252] قال ذلك عبد الملك بن مروان، على الرغم من عداوته للإمام (ع) (بحار الأنوار ج 46 ص 75).

[253] عن الذهبي في (سير أعلام النبلاء ج 4 ص 240).

أحدثت تلك الوقائع جرحاً في مشاعره، فهذا أمرٌ طبيعي، لكنها لم تمس قابليته العقلية في الإمامة أبداً.

المثال الثاني: محمد بن علي الباقر (ع)، وكان عمره في الطف أربع سنوات، كما هو المشهور عند علماء الإمامية[254]. وكان يتذكر واقعة الطف بما فيها من قتل وسبي[255]، كما أكّد (ع) أنه أدرك جده الإمام الحسين (ع) [256]، لكنها لم تؤثر على قوته العقلية أيضاً، ولا على إمامته، ولا على عصمته (ع). كان إماماً معصوماً اعترف بعلمه وعبادته القريب والبعيد، بقرَ العلمَ بقراً، وأضاء للأمة طريقها نحو الدين.

فقد وُصِفَ الإمام محمد بن علي (ع) بأنه " باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، ومنمّق درّه وواضعه، صفا قلبه، وزكا علمه، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه، وظهرت عليه سمات الإزدلاف، وطهارة الإجتباء"[257].

وسُمي بالباقر "مِنْ بَقرِ الأرض أي شقها، وأنار مخبآتها ومكامنها، فلذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف، وحقائق الأحكام والحكم

---

[254] قال ابن شهرآشوب: " إنَّ الباقر (ع) كان يومئذٍ من أبناء خمس عشرة سنة" (المناقب ج 3 ص 309)، ولم يقدّم دليلاً على ذلك. والمشهور أنه (ع) كان ابن أربع سنوات أو أقل، لأن ولادته كانت سنة 57 للهجرة.

[255] بحار الأنوار ج 45 ص 91.

[256] الكافي ج 4 ص 223.

[257] مطالب السؤول ص 80.

واللطائف ما لا يخفى ... وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلُّ عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف"[258].

بل "هو أول من إجتمعت له ولادة الحسن والحسين عليهم السلام، وكانت أمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي (ع)، وكان (ع) أصدق الناس لهجةً، وأحسنهم بهجةً، وأبذلهم مهجةً"[259].

وتلك بحد ذاتها من معاجز واقعة الطف في ذرية الإمام الحسين (ع). ويكفينا هذين المثالين لرجلين عظيمين كالسجاد (ع) والباقر (ع) عايشا لحظات الطف عن سرد أمثلة أخرى.

آل البيت (ع) وحدهم في الميدان: والملفِت أن ما ميّز واقعة الطف أنها كانت حرباً على مجموعة من الناس الأطهار، ولم تكن حرباً على مجتمع واحد بأسره. أي أن المجتمع قد أفلت من الحرب وآثارها من القتل والسبي، وبقي آل الرسول (ص) وأصحاب الحسين (ع) وحدهم في الميدان، مع عيالهم من صبيان ونساء، يكتوون بنار الحرب دون رحمة.

وتلك نقطة تقتضي التأمل؛ فقد فضّل عموم الناس البقاء في بيوتهم، وعدم نصرة آل النبي (ص) مع أنهم كانوا مسلمون يؤمنون بالله رباً واحداً، وبمحمدٍ (ص) نبياً خاتماً للأنبياء (ع). وتلك المعضلة يمكن فهمها

---

[258] الصواعق المحرقة ص 120.

[259] المناقب ج 4 ص 338.

إذا أدركنا بأن ولاء الناس يتغير بتغير السلطان، وما يتبعه من مالٍ تُشترى به ذممهم.

وبكلمة، فإن المجتمع الكوفي والبصري في ذلك الوقت تركا عترة آل محمد (ص) تلقى مصيرها لوحدها دون عون أو مساندة، والحسين (ع) يستغيث الله بالمسلمين (هل من ناصر ينصرنا، هل من معينٍ يعيننا)[260]. ولكن لم يكن من هؤلاء من يغيث آل محمد (ص) وصبيانهم من سيوف بني أمية ولا من حقدهم ولا من ظلمهم!

وكانت العيالُ جزءً من المعاناة، فقد عاينوا المعركة بأبصارهم، ثم أُخذوا أسارى إلى الشام قبل أن يرجعوا إلى المدينة بدون آباءهم، أو إخوانهم، أو أزواجهم. وتلك رحلة شاقة لا يحتملها الكبير، فضلاً عن الطفل الصغير، أو الشيخ المسنّ، أو المرأة الضعيفة.

حطمت بنو أمية بقتلهم الحسين (ع) كرامة الإنسان، وبنيت ثقافة جديدة للحرب، وهي ثقافة الوحشية وعدم الرحمة والقسوة بالقاصرين والقادرين على حدٍ سواء. إستفرد بنو أمية بأهلَ البيت (ع)، وذبحوهم بأبشع الصور، ولم يكن هناك مجتمع يساندهم، فقد بقوا وحدهم في الميدان يصارع أبطالهم الموت بنفوسٍ أبيةٍ، بينما صار مصير القاصرين من أطفال ونساء الأسر والتكبيل.

وتلك الغربة والوحدة تُثقلان العقل الإنساني بتبعاتها؛ بل إن الوحدة وعدم وجود النصير قد يدفعان الإنسان إلى التخلي عن بعض أهدافه. لم

---

[260] الملهوف ص 50.

ينطبق هذا الأمر على الإمام الحسين (ع)، بل بقي صابراً محتسباً إلى الله تعالى، ثابتاً على مبدأه (ع) حتى النهاية.

بنو أمية وصبيان الطف:

قام جيش بنو أمية بجملة محاولات لقهر الإمام الحسين (ع) فكرياً وشعورياً، كان هدفها جميعاً كسر إرادته الصلبة في معارضتهم، ومن تلك المحاولات: حرق خيم الأطفال والنساء، وحرمانهم من الماء في تلك الصحراء القاحلة، وقتلهم إذا اقتضى الأمر.

1- محاولات حرق خيم الحسين (ع): لما فشل جيش عمر بن سعد من اقتحام معسكر الحسين (ع)، أمر بحرق الخيم التي كانت تأوي الصبيان والنسوة. لكن الإمام (ع) كان قد أمر بوضع الحطب خلف الخيم وإشعالها حتى تتوحد جبهة الحرب. لكن عمر بن سعد لم يرق له ذلك، فأراد أن يحرق الخيم على أهلها، وبعثَ من يشعل النارَ فيها.

فدوى المكان بصيحات النساء والأطفال. فصاح به الحسين (ع): (يابنَ ذي الجَوشَنْ أنتَ تدعُو بالنّارِ لِتُحَرِّقَ بيتي على أهلي؟ حَرَّقَكَ اللهُ بالنارِ)[261].

---

[261] تاريخ الطبري ج 3 ص 326.

لـم يسـتخدم الحسـين (ع) سـلاحاً غيـر الـدعاء علـيهم، واسـتخدم السلاح العقلي الذي هو عبارة عن تساؤل إستنكاري عن الذي يدعوهم إلى إحراق خيمة تؤوي النساء والصبيان والمرضى!

2- تعطيش الأطفال: ومنْـعُ المـاء عن القاصـرين، وذلك سلاح المُفلِس الضعيف الذي لا يرى له قوة إلا في استخدام تلك الوسائل التي تفتقر إلى الإخلاق ولا تحترم المبدأ الديني والإنساني. وقد منعوهم من الوصول إلى الماء من السابع من شهر محرم الحرام لحد العاشر منه أي مدة ثلاثة أو أربعة أيام دون ماء تحت لهيب الشمس الحارقة.

فلما استأذن العباس بن علي (ع) أخاه الحسين (ع) للقتال، طلب منه (ع) أولاً أن يطلُبَ قليلاً من الماء للأطفال، فذهَبَ العباسُ (ع) إلى القومِ، ووعَظَهُم، وحذَّرَهُم غَضبَ اللهِ، وطلَبَ منهم شَيئاً من الماءِ للأطْفالِ. رفضوا ذلك.

فرَجعَ العباسُ إلى أخيه (ع) وأخْبرَهُ بمقالةِ القومِ، فسَمعَ الأطفالُ يشكون العطشَ، فقرر أبو الفضل (ع) أن يذهب إلى نهر الفرات بنفسه ويقاتل من أجل الماء كي ترتوي الشفاه الصغيرة الذابلة.

وأخَذَ القِربةَ لحمل الماء، وقَصَدَ الفُراتَ، فأحاطَ بهِ جمعٌ عظيمٌ من الفرسان، ورَمَوهُ بالنبال فلم يعبأ بِجَمعهِم، فكشفَهم عنْ وجهِه، ودَخلَ الفُراتَ ثم ملأَ القِربةَ وحَمَلَها على كتفِه الأيمنِ، وركبَ جوادَه وتوّجَهَ نَحوَ المخيّمِ، لكن الأعداء قطعوا عليه الطريقَ، وقطعوا يمينه ويساره، ثم قتلوه (ع). في

الوقت نفسه أصابوا القربة المملؤة بالماء، فأُريق ذلك الماء العزيز الذي بذل جهده من أجل جلبه لإرواء الأطفال العطشى.

فأتَاهُ الحُسينُ (ع) مُسْرِعَاً، وفَرّقَ القومَ عنْهُ، واعتنقه طويلاً، عندها فَاضَتْ رُوحُ العباسِ بينَ يَدَي أخَيه الحُسينِ (ع)، فَتَرَكَهُ في مكانِهِ، ورَجَعَ إلى موضعه.

3- قتل القاصرين: قتلوا ثلاثة قاصرين: صَبيّان، ورضيع. الصَبيّان من أبناء الإمام الحسن (ع)، والرضيع ابن الإمام الحسين (ع). وكأنهم لم يسمعوا أقوال رسول الله (ص) في الحسن والحسين (ع)، بكونهما أصلُ ذريته (ص)، وكأنهم أرادوا قطع تلك الذرية، وبترها من جذورها. فقتلوا: عبد الله بن الحسن ، والقاسم بن الحسن، وعبد الله بن الحسين (ع).

الأول: عبد الله بن الحسن (ع): وله من العمر إحدى عشرة سنة، لما رأي عمه الحسين (ع) في اللحظات الأخيرة جالساً على الأرض لا يستطيع النهوض أقبل نحوه ، فطلب الإمام (ع) من أخته زينب (ع) بأن لا تدعه طليقاً في ساحة المعركة وهو لا يعي خطر الحرب، فلم تفلح (ع)، فضربه بحر بن كعب بالسيف على يده فاستغاث بعمه (ع)، فقال له الحسين (ع): (يا ابنَ أخِي، إصبرْ على ما نَزلَ بِكَ، واحتسبْ في ذلك الخير، فإنّهُ يُلحقُكَ بآبائِكَ الصالحينَ)، فَرماهُ حرملةُ بنُ كاهلِ بسهم فذَبحَهُ وهو في حِجرِ عمّهِ الحسين (ع) فَرفعَ الحُسينُ يَديهِ إلى السماءِ قائلاً: (اللُهمّ إنّ متّعتَهُم إلى

حين، ففرّقْهُم فِرقَاً واجْعلْهُم طَرائقَ قِدَداً، ولا تُرضِ الولاةَ عَنْهُم أَبَداً، فإنّهُم دَعَوْنا ليَنَصِرُوننا فعَدَوا علينا يقاتُلونَنا)[262].

الثاني: القاسمِ بنِ الحسنِ (ع): وهو غلامٌ لمْ يبلغِ الحلُم، فأقبلَ إلى عمِّه الحسينِ (ع) يستأْذنُه في القتالِ، فنَظرَ إليه الحسينُ (ع) ولمْ يملِكْ نفسَه دونَ أنْ تقدَّم إليه واعتنقَهُ، وجَعَلا يبكيانِ، وأبى أن يأذنَ لهُ، فلم يزلْ القاسمُ يتوسَّلُ إليه ويُقبّلُ يديهِ حتّى أَذِنَ له، فبَرزَ إلى الميدانِ راجِلاً، فقاتَلَ مقاتلةَ الأبطالِ حتى أُستشهد.

فأتاه الحسين (ع) مُسرعاً، ووقفَ عندَ رأْسِ القاسمِ فقالَ: (يَعزُّ واللهِ على عمِّك أنْ تَدعوهُ فلا يُجيبُكَ، أو يُجيبكَ فلا يعينُكَ، أو يُعينُكَ فلا يُغني عَنكَ، بُعْداً لقوم قَتلَوكَ، هذا يومُ كثُرَ واترُهُ وقلَّ ناصرُه)[263].

يصفه حميد بن مسلم: "خرج علينا غلامٌ كأن وجهه شقّة قمر، في يده السيف، عليه قميص وإزار ونعلان، قد انقطع شِسْع أحدهما"[264]، فضربه عمرو بن سعد بالسيف فقتله.

وفي رواية خالد بن عبد الله: "...إذ خرج غلامٌ من آل الحسين وهو ممسك بعمودٍ من تلك الأبنية، عليه إزار وقميص ... إذ أقبل رجل حتى إذا دنا منه مالَ عن فرسه، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف"[265].

---

[262] الإرشاد ص 241.

[263] إقبال الأعمال ص 49، والإرشاد ص 239.

[264] المناقب ج 2 ص 221.

[265] البداية والنهاية ج 8 ص 202.

ثمَّ حملَـهُ (ع) وجاء بـهِ إلى الخيمـةِ ووضـعهُ معَ ولدِهِ علـيّ الأكبرِ والقَتْلى منْ أهلِ بيتِـهِ، ثُمّ رَفـعَ طَرْفَـهُ إلـى السّماءِ، وقـالَ: (اللّهُمَّ أحْصِـهِمْ عَدَداً، واقتُلهُمْ بَدَداً، ولا تُغادرْ مِنهُمْ أَحَداً، ولا تَغفِرْ لهُم أَبَداً، صَبْراً يا بَنـي عُمومَتي، صَبْراً يا أهْلَ بَيتِي، لا رَأيتُم هواناً بَعدَ هذا اليومِ أبَدَاً)[266].

الثالث: الرضيع عبد الله بن الحسين: قُتِلَ الرضيع عبد الله في حجر أبيه (ع)، روى الإمام الباقر (ع) إنه لما قعد الحسين (ع) أُتي بصبي له فأجلسه في حجره، فرماه حرملة بسهم فذَبَحه، فتلقى الحسينُ دمه بكفه ورمى به إلى السماء. فلَم يَسقُطْ منْ ذلكَ الدم قَطرةٌ إلى الأرضِ[267]، عندها قالَ الحسينُ (ع): (هَوَّنَ ما نَزَلَ بِي أنّهُ بعينِ اللهِ تَعالى...) ثُمَّ وَضَعَهُ معَ القَتلى منْ أهلِ بيتِهِ، وأَمَرَ عيالَه بالسكوتِ، وودّعَهم[268].

ثم قال (ع): (ربِّ إن تكن حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير لنا، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين)[269].

---

[266] الإرشاد ص 239.

[267] في تاريخ الطبري: (فلما ملأ كفيه صبه في الأرض) ج 4 ص 342. وفي البداية والنهاية: (فتلقى الحسين (ع) دمه في يده وألقاه نحو السماء) ج 8 ص 203.

[268] بحار الأنوار ج 45 ص 46.

[269] تاريخ الطبري ج 4 ص 342.

نساءُ الطف

لم تكتمل فصول واقعة الطف إلا ببيان بليغ، وقلب ثابت يعرّفان الأمة بما حصل يوم عاشوراء، فكانت أدوار زينب وأم كلثوم وفاطمة عليهم السلام فصولٌ إضافيةٌ لملحمةٍ عظيمةٍ كتبها التاريخ بحروفٍ من ذهب.

فقد منع الله عزّ وجلّ أولئك الطغاة من مد يد السوء إلى النساء، ولم يغب ذلك عن علم الحسين (ع)، وقد خاطبهن قبل استشهاده (ع) بالقول: (... واعلموا أن الله حاميكم، وحافظكم، وسينجيكم من شر الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير...)[270].

لكن نساء الطف من آل البيت (ع) مررن بمعاناة شاقة حيث العطش، وقتل الأبناء والأزواج، والخشية من الأسر والإذلال، واليُتم المتوقع بالنسبة للقاصرات الصغيرات كسكينة بنت الحسين (ع)، وغيرها من الصغيرات البريئات.

معاناة نساء الطف:

مرت على نساء الطف حالات صعبة عايشن فيها محاولات التوجس والتهديد بحرق خيم الحسين (ع)، وشغَلَ بالهن دائماً الأسر من قبل العدو. ففي ذلك نقاط:

---

[270] جلاء العيون ص 576.

1- إدخال الرعب على النساء: حاول جيش بني أمية استخدام الوسائل النفسية في إنزال الرعب في النساء المخدرات من آل بيت النبوة (ع)، فأصبح شمر بن ذي الجوشن الذي كان يوصف بالجبن والذلة مرعباً للنساء، بحيث يخاطبه شَبَث بن رِبْعي عندما رآه يرعب النساء: "ما رأيتُ مقالاً أسوأ من قولك، ولا موقفاً أقبح من موقفك، أمُرعِباً للنساء صرتَ؟ "[271]!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل حاولوا إرعاب النساء عن طريق طعن الخيام التي مكثنَ فيها مدة ثمانية أيام في كربلاء، وحرقها يوم عاشوراء. فقد "حمل شَمِر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمحه، ونادى: عليَّ بالنار حتى أحرّقَ هذا البيت على أهله..."[272]!

2- قتل النساء (أم وهب الكلبي مثلاً): أول أمرأة قتلت في الطف هي أمرأة عبد الله الكلبي أم وهب. والقاعدة السائدة في الإسلام هو أنه لا قتل ولا قتال على النساء، مسلمات كنَّ أو مشركات. لكنهم انتهكوا تلك القاعدة الأخلاقية بقتل أم وهب. فقد إلتحق الكلبي وزوجته أم وهب بالحسين (ع)، وقاتل زوجها معه (ع).

فأخذت "أم وهب عموداً، ثم أقبلتْ نحو زوجها تقول له: فداك أبي وأمي! قاتِلْ دون الطيبين ذرية محمد (ص)، فأقبل إليها يردها نحو النساء،

---

[271] تاريخ الطبري ج 4 ص 234.

[272] جواهر المطالب – ابن الدمشقي ج 2 ص 287.

فأخذتْ تجاذبه ثوبه، ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك، فناداها الحسين (ع) فقال: (جُزيتم من أهلِ بيتٍ خيراً، ارجعي رحمكِ الله إلى النساء فاجلسي معهن، فإنه ليس على النساء قتال)[273].

وقد حرّم الفقهاء قتل النساء في الحرب، حتى لو كنّ مشركات، فما بالك بالمسلمات الموحّدات؟ فـ"لا يجوز قتل النساء [المشركات]. فإن قاتلن المسلمين وعاوّنَّ أزواجهن ورجالهن، أُمسك عنهن..."[274].

ومع ذلك فعندما "خرجت أمرأة الكلبي تمشي إلى زوجها المقتول حتى جلستْ عند رأسه تمسح عنه التراب، تقول: هنيئاً لك الجنة! فقال شِمر بن ذي الجوْشن لغلام له يسمى رُستَم: اضرب رأسها بالعمود، فضرب رأسها فشدَخه "[275] فقُتلت في مكانها.

وبرز نافع بن هلال، وقد تعلقت به زوجته، فأشار عليه الحسين (ع) بأن يختار البقاء معها على القتال. فأصرّ نافع على القتال، فقاتل حتى قُتِل رضوان الله عليه.

3- خشية النساء من أسرهنَّ: وتلك الخشية قائمة في الحرب دائماً، لأن الطرف المنتصر عسكرياً يأسر النساء، وتكون له الكلمة العليا فيهن. لكن ذلك لم يكن ليقلق الإمام الحسين (ع) لإيمانه بالقضاء المبرم، ولوعد رسول

---

[273] تاريخ الطبري ج 3 ص 321.

[274] النهاية – الشيخ الطوسي ص 292.

[275] تاريخ الطبري ج 4 ص 334.

الله (ص) له بأن الله سيحفظ نساء أهل البيت (ع)، ولذلك قال (ع) لهن: (ألبِسوا أزركم، واستعدوا للبلاء، واعلموا أن الله حاميكم، وحافظكم، وسينجيكم من شر الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذب أعاديكم بأنواع العذاب، ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة! فلا تشكوا، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم)[276].

شواهد من التأثر العاطفي للحسين (ع):

كل الشواهد التأريخية تدلُّ على تأثر الإمام الحسين (ع) بمقتل ابنه علي الأكبر، وأخيه العباس، وأبناء أخيه الحسن (ع)، وبكاؤه في أحيان متعددة. كل ذلك يدلل على القلب الرحيم الكبير الذي كان يحمله الإمام (ع)، وقوة مشاعره تجاه أهل بيته (ع) وأصحابه.

فعندما تقدَّمَ عليٌّ بنُ الحسينِ (ويعرف بعلي الأكبر) وعمرُهُ واحدٌ وعشرون سَنةً، وأقبلَ مسْتأذناً من أبيه للسماح له بالقتال، نظَرَ إليه الحسينُ (ع)، وأرخَى عينيهِ بالدموعِ، وقال:

(اللهمَّ اشهدْ على هؤلاءِ، فقد بَرَزَ إليهم أشبهُ الناسِ خَلقاً وخُلُقاً ومنطِقاً برسولِك محمد (ص)، وكُنَّا إذا اشتقْنَا إلى رؤيةِ نبيِّك نظرْنَا إليه، اللهمَّ فامنعْهُم بركاتِ الأرضِ، وفرِّقْهم تفريقاً، ومزِّقْهُم تمزيقاً، واجعلْهُم طرائقَ قِدَداً، ولا تُرضِ الولاةَ عنْهُم أبَداً، فإنّهم دعَوْنَا لينصرونَنا، فعدَوْا علينا

[276] جلاء العيون ص 576.

يقاتلونَنَا) [277]. ثم تلا قولَه تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْض وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[278].

فقاتل (ع)، ورجعَ إلى أبيه (ع) قائلاً: يا أبه، العطشُ قد قتلني، وثِقلُ الحديدِ قد أجهدني، فهلْ إلى شربةِ ماء من سبيل أتقوّى بها على الأعداء.

فبكى الحسينُ (ع) وقال: (واغوثاه! مِن أين آتي لكَ بالماءِ، قاتلْ قليلاً، فما أسرَعَ ما تلقى جدَّكَ رسولَ الله (ص)، فيَسقيكَ بكَأسِه الأوفى، شربةً لا تظمأُ بعدَها أبداً). فرجع إلى الميدان وقاتل حتى استُشهِد (ع) [279].

فصاحَ الحسينُ(ع): (ولدَاه)، وحَملَ على القومِ ففرّقَهُم، وأقبلَ إلى ولدِه مُسْرعاً، حتى وَصلَ إليهِ، وهو يقول (قَتلَ اللهُ قَوماً قتلوكَ يا بُنيَّ، ما أجرأَهَم على الرحمنِ، وعلى انتهاكِ حرمة الرسولِ (ص)! على الدنيا بعدكَ العفا يا بُنيّ! أمّا أنتَ فقد استرحتَ منْ الدُّنيا وضَيمِها، وقد صِرْتَ إلى روح وريحان، وبقي أبوكَ، وما أسرعَ لحوقَه بكَ)[280].

ولكن تلك العاطفة الجياشة لم تكن لتؤثر على قوته العقلية (ع)، كما أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة، وهذا هو الأصل في الإمامة. فالإمام

---

[277] بحار الانوار ج 45 ص 42. الملهوف ص 48.

[278] سورة آل عمران: الآية 33- 44.

[279] الملهوف ص 49، مقاتل الطالبيين ص 116.

[280] بحار الانوار ج 45 ص 43، مقاتل الطالبيين ص 115.

(ع) يُمتحن بمختلف الطرق الآلهية لكنه يبقى قوياً ثابتاً على مبدأه، يرى الحقائق كما هي، لا يشرخها ألم الجراح أو ضخامة الإبتلاء.

تأثير وجود العيال على تفكير الإمام (ع):

طرحنا هذا السؤال في بداية هذا الفصل، وهو: مدى التأثير العقلي الذي تركه وجود العيال في معركة الطف على الإمام الحسين (ع)؟ والآن نحاول الإجابة عليه.

لاشك إن وجود العيال، صبياناً ونساءً، أمرٌ صعب على المقاتِل، فضلاً عن القائد المستهدَف من قبل العدو، ومن آثار المعركة برمّتها. وإذا أخذنا بنظر الإعتبار كون القاصرين عطاشى، تحت رحمة السيوف الغادرة التي لا تميز بين قاصرٍ أو قادرٍ على الدفاع عن نفسه، تبين لنا حجم الجهد النفسي الثقيل الملقى على عاتق الإمام الحسين (ع) في حمايتهم، ورعاية مصالحهم.

إلا إن ذلك الجهد النفسي لم يتقاطع مع قدرته العقلية. نعم، كان الإمام الحسين (ع) يبكي عندما يقترب منه ابنه علي الأكبر لأخذ الإذن بالقتال، أو عندما يقترب منه ابن أخيه القاسم بن الحسن (ع). وتلك مشاعر إنسانية طبيعية للتعبير عن الحزن القلبي بحتمية فقدان الحبيب.

ولكن ذلك الزلزال العاطفي لم يؤثر ولا قيد شعرة على تفكيره العقلي (ع)، وقابليته على إصدار الحكم في تلك اللحظات الحرجة، ولذا نراه يدعو الله بذلك الخطاب المتماسك، الذي لا يصدر إلا عن إمام أهل البيت (ع): (يَعزُّ واللهِ على عمِّك أنْ تَدعوهُ فلا يُجيبُكَ، أو يُجيبكَ فلا يعينُكَ، أو يُعينُكَ

فلا يُغني عَنكَ، بُعْداً لقوم قَتلَوكَ، هذا يومُ كثُرَ واترُهُ وقلَّ ناصرُه)[281]، أو قوله (ع): (اللُهمّ إنّ متّعتَهُم إلى حين، ففرّقْهُم فِرقَاً واجْعلْهُم طَرائقَ قِدَداً، ولا تُرضِ الولاةَ عَنْهُم أَبَداً، فإنّهُم دَعَوْنا ليَنَصِرُوننا فعَدَوا علينا يقاتُلُونَنا).

وعندما أصبح الحسين (ع) وحيداً، قد قُتل جميع أصحابه وأهل بيته (ع) كان قوي القلب، ثابت الفكر والمنطق. يصفُه أحدُ الذين شهدوا كربلاء، بالقول: "فوااللهِ، ما رَأيتُ مَكثُوراً – قَط– قَد قُتِلَ وِلْدُهُ وأهلُ بيتِهِ وصحبُهُ أَرْبطَ جَأشاً مِنْهُ، ولا أمْضَى جَنانَاً ولا أَجْرأً مَقدَماً، ولَمْ أرَ قبلَهُ ولا بَعدَهُ مثلَهُ، ولقَد كانَتْ الرّجالُ لتَشدُّ عليهِ، فيشدُّ علَيها، فتَنْكشفُ بَينَ يَديهِ. ولقدْ كانَ يَحمِلُ عليهم، وقد تَكامَلُوا ثلاثين ألفاً[282]، فينهزمونَ بينَ يديهِ

[281] إقبال الأعمال ص 49، والإرشاد ص 239.

[282] والتحقيق أن الجيش الذي قتل الحسين (ع) كان مؤلفاً من كتيبتين بكامل أسلحتها وعدّتها، الأولى: كتيبة عمر بن سعد، وقوامها أربعة آلاف مقاتل. الثانية: كتيبة الحر بن يزيد الرياحي وقوامها ألف مقاتل. أنّضمّ الحر إلى معسكر الحسين (ع) مع مقاتل آخر فقط، وبقيت كتيبته تقاتل الحسين (ع). فيكون الجيش الفعلي المقاتل ضد الإمام الحسين (ع) هو خمسة آلاف مقاتل، والباقي الذي ذُكر في هذه الرواية ربما كان من جنود الإسناد لبني أمية. وبذلك يتم العدد إلى ثلاثين ألفاً أو ربما أكثر. قال أبو مخنف في تقدير مختلف: "أول راية سارت لحرب الحسين (ع) راية عمر بن سعد وتحتها ستة آلاف فارس، ثم دعي بشبث بن ربعي وعقد له راية وضم إليه أربعة آلاف فارس، ثم دعى بعروة بن قيس وعقد له راية وضم إليه أربعة آلاف فارس، ثم دعى بسنان بن أنس وعقد له راية على أربعة آلاف فارس، قال: فتكاملوا ثمانون ألف فارس من أهل الكوفة ليس فيهم شامي ولا حجازي حتى نزلوا قريباً من معسكر الحسين (ع)" (مقتل الحسين (ع) – خ. ص 80).

كأنَّهمْ الجَرادُ المُنتَشِرُ، ولَمْ يَثبتْ له أحدٌ. ثُمَّ يَرجِعُ إلى مركزِهِ وهو يَقولُ: (لا حولَ ولا قوَّةَ إلاّ باللهِ العليّ العظيمِ)[283].

وعندما حالُوا بينَ الحسينِ (ع) وبينَ رحلِهِ وعيالِهِ، صاحَ بِهِمْ: (ويَحَكُمْ يا شيعةَ آلِ أَبي سُفيانَ، إنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دينٌ، وكُنتُمْ لا تخَافُونَ المَعادِ، فَكونُوا أحراراً في دُنْياكُم وارجِعُوا إلى أحْسابِكُمْ إنْ كُنتُم عُرُباً كَما تَزْعُمُون... أنا الذي أُقاتُلكُم وتُقاتِلُونني، والنساءُ ليسَ عليهِّن جُناحٌ، فامنعَوا عتاتَكم وجُهّالكُم عن التعرضِ لحرمي ما دمتُ حيّاً)[284].

وكان (ع) كلما يُطعن أو يُضرب أو يُرمى يقول: (اللّهمّ إنّي أشْكو إليكَ ما يُفعلُ بابنِ بنتِ نبيّك)[285]، (يا أمةَ السّوءِ، بِئْسَما خَلّفتُم مُحمَداً في عترتِهِ، أمَا إنّكُم لن تَقتُلوا بَعدي عَبْداً من عبادِ اللهِ، فتَهابُون قتلَهُ، بلْ يَهونُ عليكُم ذلك عندَ قتلِكُم إيّايَ، وأَيمُ اللهِ إنّي لأَرْجو أن يكرمَني الله بالشهادةِ، ثُمْ ينتَقِمُ لي مِنكُم من حيثُ لا تشعُرُونَ... يُلقِي بَأسَكُم بينَكُم، ويَسِفكُ دماءَكُم، ثُمّ يَصبُّ عليكُم العذابَ الأليمَ)[286].

ثم كان (ع) يُكثِرُ من قَولِ: (لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ باللهِ العلّي العظيمِ)[287].

---

[283] الملهوف ص 171.

[284] بحار الأنوار ج 45 ص 51.

[285] المصدر السابق ج 45 ص 50.

[286] المصدر السابق ج 45 ص 52.

[287] الملهوف ص 171.

وسالَتْ الدِماءُ على وجهِهِ، فقالَ: (اللّهمّ إنّكَ تَرى ما أنا فيه من عبادِكِ هؤلاءِ العُصاةِ، اللّهمّ أَحْصَهمْ عَدَداً، واقتُلْهُم بَدَداً، ولا تَذَر على وجهِ الأرضِ منهُم أحداً، ولا تَغفرْ لَهُم أَبَداً)[288].

كل تلك الأقوال تدلُّ دلالة قاطعة على قوة تفكير الإمام (ع)، وعدم اضطرابه مع الآم الجرح والقطع وفقدان الأبناء، وفقدان الأهل والناصر، والعطش الشديد، ووجود العيال على مقربةٍ منه وتربص الأعداء بهم. تلك بحقٍ معجزة الإمام الحسين (ع) في واقعة الطف.

دلالات إجمالية:

نستخلص مما عرضناه وناقشناه حقائق لها أهمية بالغة في فهم طبيعة أهل البيت (ع) الذين آزرهم القرآن الكريم بالحجة القاطعة، وساندتهم السنّة النبوية عملاً وإمضاءً، ومن ذلك:

1- تأثره الشعوري (ع) على من قُتِلَ من أهل بيته (ع) وأصحابه، خصوصاً ابنه علي الأكبر، وأخيه أبو الفضل العباس، وابنه الرضيع، وابني أخيه الحسن (ع).

بكى الحسين (ع) عندما طلب منه ابنه علي الأكبر شربةً من الماء، فأجابه (ع) إن جدك المصطفى (ص) سيسقيك بعد قليل من كأسه الأوفى فلا تظمأ بعدها أبداً. وبكى الحسين (ع) عندما قُتل أخاه العباس

---

[288] الفتوح ج 3 ص 135.

(ع) فقال (ع): (الآن انكسَرَ ظَهرِي، وقلّتْ حيِلَتي، وشَمُتَ بِي عَدوّي)[289]. وبكى (ع) عندما طلب منه القاسم بن الحسن، الذي لم يبلغ الحلم، الإذن بالإلتحام بالعدو ومقاتلته. وبكى (ع) عندما ودّع عياله في اللحظات الأخيرة.

وتلك الوقائع طبيعية لرجلٍ رحيمٍ كالحسين (ع). فكان الوقع العاطفي للأحداث يجبره على البكاء. لكن المعجزة في الأمر أن تلك الأهوال لم تؤثر على تركيبته العقلية (ع)، والتي هي أصل الإمامة.

لأن الإمام الحق (ع) ينبغي أن يكون واعياً لما يقوله حتى مع الألم. لأن قوله (ع) دستور عمل، وسنّة عملية إن كان فعلاً أو قولاً أو إمضاءً. وهذا يقودنا إلى الإيمان بكذب الروايات التي قالت "بهذيان" النبي (ص) في مرضه! وتلك من أفظع الإتهامات التي زُوّرت بحق رسول الله (ص). فكيف يهذي من مدحه الله تعالى في كتابه الكريم: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)[290]. والهذيان لا يتناسب مع وظيفة النبوة والإمامة معاً، ولا ينسجم مع قوتهما الروحية والمعنوية.

ودليلنا الثاني على قوة الكمال العقلي عند الإمام الحق (ع) هو مثال الإمام علي بن أبي طالب (ع)، فقد بقي ثلاثة أيام جريحاً من أثر ضربة الشقي ابن ملجم، كان خلالها يوصي (ع) بوصاياه السديدة حكمةً، وأحكاماً، وبلاغةً حتى اللحظات الأخيرة من حياته (ع).

---

[289] بحار الانوار ج 45 ص 42.

[290] سورة النجم: الآية 3- 4.

2- لم يتأثر الكمال العقلي عند الإمام (ع) بالمصائب التي واجهها في الأيام الأخيرة من حياته (ع)، لأنه يعرف أنها قضاءٌ حتميٌّ من الله تعالى، فعليه الرضا بقضائه تعالى، وقد عبّر عن ذلك بقوله: (إن نزلَ القضاءُ بما نحبُّ ونرضى فنحمدُ اللهَ على نعمائهِ. وهو المستعانُ على أداءِ الشكرِ، وإن حالَ القضاءُ دون الرجاء، فلم يبعد من كانَ الحقُ نيَّته، والتقوى سريرتَه) [291].

فكان (ع) متماسكاً في تفكيره، وحتى لما شكا له ابنه علي الأكبر بأن العطش قد أجهده مع ثقل الحديد، والقتال، فهل من شربة ماء يتقوى بها على الأعداء. حثّه الإمام (ع) على القتال قليلاً، ووعده بقرب لقاء جده رسول الله (ص) (فيَسقيكَ بكَأسِه الأوفى، شربةً لا تظمأُ بعدَها أبداً)[292].

وحتى لما قتلوا علياً الأكبر أسرع إليه (ع) وقال: (قَتلَ اللهُ قَوماً قتلوكَ يا بُنيَّ، ما أجرأَهَم على الرحمنِ، وعلى انتهاكِ حرمة الرسولِ (ص)! على الدنيا بعدكَ العفا يا بُنيّ! أمّا أنتَ فقد استرحتَ منْ الدُّنيا وضَيمِها، وقد صِرْتَ إلى روح وريحان، وبقي أبوكَ، وما أسرعَ لحوقَه بكَ)[293].

ودعائه الأخير، وهو على شفير نيل الشهادة، وترك هذا العالَم المتوحش: (اللهُمَّ متعاليَ المكانِ، عظيم الجبروتِ، شديد المحالِ، غني

---

[291] الإرشاد ص 218.

[292] الملهوف ص 49، مقاتل الطالبيين ص 116.

[293] بحار الانوار ج 45 ص 43، مقاتل الطالبيين ص 115.

عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما يشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء. قريبٌ إذا دُعيت ...)[294].

3- لم يؤثر وجود العيال على أداء وظيفته كإمام يرشد الأمة، وبالخصوص في العاشر من محرم الحرام وحتى آخر لحظة من حياته (ع).

فيخاطب (ع) ابن أخيه: (إصبرْ على ما نَزلَ بِكَ، واحتسبْ في ذلك الخير، فإنّهُ يُلحقُكَ بآبائِكَ الصالحينَ)[295]، ويخاطب أهل بيته (ع): (صَبْراً يا بَني عُمومَتي، صَبْراً يا أهْلَ بَيتِي، لا رَأيتُم هواناً بَعدَ هذا اليومِ أبَدَاً)[296]، ثم يتوجه إلى ربه الكريم، ويقول (ع):(ربِّ إن تكن حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير لنا)[297].

وقال (ع) قبلها: (لا يحِلُّ لكم قتلي ولا إنتهاكُ حُرمتي، فإني إبنُ بنتِ نبيِّكُمْ وجدَّتي خديجةُ زوجةُ نبيكُم، ولعلَّهُ قد بلغَكُمْ قولُ نبيكم: الحسنُ والحسينُ سيدا شبابِ أهلِ الجنةِ)[298]، (هذهِ دارُ فناءٍ وزوالٍ تتصرفُ بأهلِها من حالٍ إلى حالٍ. فالمغرورُ من أغترَّ بها، وركنَ إليها، وطمعَ فيها) [299].

---

[294] إقبال الأعمال ج 3 ص 305.

[295] الإرشاد ص 241.

[296] الإرشاد ص 239.

[297] تاريخ الطبري ج 4 ص 342.

[298] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 252، وبحار الأنوار ج 45 ص 5.

[299] ينابيع المودّة ص 340.

وعن الدنيا، قال (ع): (فالمغرورُ مَنْ غرَّتْهُ والشقيُّ مَنْ فتنتْهُ، فلا تَغُرَّنكُم هذهِ الدنيا، فإنها تقطعُ رجاءَ مَنْ ركَنَ إليها) [300].

4- تكلم مع النساء وأوصاهنَّ بوصايا الحكمة. وفي ذلك دلالة على الكمال العقلي حتى آخر لحظات حياته (ع).

فقد توجه بخطابه إلى نسائه وأهل بيته وفيهن أخته زينب (ع) قائلاً: (... يا أُمَّ كلثومِ وأنتِ يا زينبُ وأنتِ يا فاطمةُ وأنتِ يا ربابُ إذا أنا قُتِلتُ فلا تَشَقَقْنَ عليَّ جيباً ولا تخمشْنَ عليَّ وجهاً ولا تقُلْنَ هَجْراً)[301].

وخصَّ زينب (ع) قائلاً: (يا أُخيَّةُ! إني أُقسِمُ عليكِ فبّري قسَمي، لا تَشَقّي عليَّ جيباً، ولا تخمشي عليَّ وجهاً، ولا تدْعي عليَّ بالويلِ والثبورِ إذا هلكتُ)[302].

---

[300] مقتل الحسين (ع) - ز. ج 1 ص 252.

[301] الملهوف ص 36.

[302] الكامل في التاريخ - ابن الأثير ج 2 ص 560.

الفصل الرابع

المعركة العقلية في الطف

مقدمة. المباني الفكرية للصراع. محاولة قتل فكرة الإمامة الشرعية. تغيير أخلاقية الحرب. العقول المتباينة في الطف. مباني العقلاء والسلوك السلمي قبل الطف. معركة الطف: المعركة الفكرية.

مقدمة

كانت واقعة الطف، من المنظور الإسلامي، معركةً أخلاقيةً فاضلةً ضد الإنحراف الذي أنزلق فيه الحكم الأموي، قد كانت حرباً دفاعية ضمّت الكثير من المفاهيم الدينية، توسل بها الإمام (ع) أولاً بالسلم والهداية والإرشاد لقومٍ يقرأون العربية، ويفهمون القرآن، ويعرفون منزلته السامية في عقيدتهم. ولكن، عندما رأى الإصرار منهم على تدمير فكره، وقتله (ع) وقتل من كان معه من أهل بيته (ع) وأصحابه، أبى إلا أن يقاتلهم دفاعاً عن عقيدته ومبدأه ونفسه وأهله. فواقعة الطف واقعة صراع بين الحق والباطل، ومنازلة بين الخير والشر.

وما يميز الحروب في التاريخ هو سلوك مقاتليها، والعلل التي أدت إلى وقوعها، ومطابقة أفكار الحرب لمبادئ الصراع بين الحق والباطل.

والحرب إنما تقع لتغيير واقع معين يحاول فيه كلا الطرفين المتحاربين دحر الآخر لتحقيق مراده منها. لكن الحروب ليست على نمطٍ واحد، فهناك الحروب الإبتدائية والحروب الدفاعية، وهناك الحروب العادلة والحروب الظالمة، وهناك الحروب العسكرية والحروب الفكرية. فكل حرب تضمر في ثناياها فكراً، وحتى لو خُسِرتْ المعركة عسكرياً، فان طبيعة فكرها هو الذي يحدد طبيعة إنتصارها أو هزيمتها لاحقاً.

كلفة الحرب:

لو تسنى للمرء أن يقدّر كلفة معركة كربلاء على صعيد الإنسانية لكانت الكلفة باهضة جداً. ذلك إن البشرية خسرت أكبر مجموعة طاهرة

من المؤمنين الأتقياء، من أصحاب العقول النيرة الخيّرة، كما يصفهم الإمام الحسين (ع): (... فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أفضل من أهل بيتي...)[303]. فلاحظ هنا كلمات التفضيل: أولى، أخيَر، أبرّ، أفضل. وهي أجمل الكلمات وأكثرها غناءً في المعاني. وقد كان الإمام (ع) صادقاً فيما يقول، فقد كان أصحابه أفضل الأصحاب، وأهل بيته أبرّ الأهل والقرابة.

ولم تكن الخسارة الحربية خسارة أرض أو ممتلكات، فقد كان أبطال كربلاء (ع) الثُقاة لا يمتلكون شيئاً من ذلك، بل كانت الخسارة العظمى في مقتل إمام طاهر كامل لم يرتكب معصية في حياته المديدة (ع)، رفدَ الأمة بعلوم الإسلام وأخلاقه. وأهل بيته (ع) وأصحابه يقتدون به في حياتهم زهداً وعبادةً وشجاعةً. وبكلمة مختصرة، لما كان الحسين (ع) أفضل معاصريه في العلم والمعرفة الدينية، فقد كانت خسارته خسارةً لعقل الأمة وتفكيرها.

لقد حرمت واقعة الطف المجتمع الإسلامي من مجموعة متألقة من الشخصيات الفاضلة العالمة الزاهدة، وعلى رأسهم الإمام الحسين (ع)، كما ذكرنا، حفيد رسول الله (ص) ومن أحب الخلق إليه (ص)، وهو الذي ملئ الدنيا علماً ومعرفةً وتقوىً ويقيناً، وعلّم الناس طاعة الله عز وجل وعدم معصيته. وحُرم المجتمع من شخصيات علمية كشخصية أبي الفضل العباس (ع) العالِم ذو الإيثار العظيم، وعلي الأكبر المتفاني في طاعة إمامه (ع)، وشخصيات حافظة للقرآن تقوم بتلاوته في مسجد الكوفة

---

[303] أمالي الشيخ الصدوق ص 220.

كمسلم بن عوسجة، وشخصيات إجتماعية مؤمنة كزهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، وعابس بن شبيب، وغيرهم من الأتقياء.

ولولا وجود أئمة معصومين بعد الإمام الحسين (ع) كالإمام السجاد، والإمام الباقر، والإمام الصادق، وبقية أئمة الهدى (عليهم السلام) لأنزلقت الأمة إلى ظلام دامس. لأن الحرب، ومقتل رواد الدين والأخلاق والقرآن، يربك الناس، ويجعلها تبتعد عن منبع العلم والمعرفة. وأعظمُ تأثيرٍ للحرب هو التأثير على عقل الإنسان. فالعقل هو هدفُ الحرب على كل حال.

وعندما تنتهي الحرب بانتصار العدو، فان تركيبة الطرف المنهزم عسكرياً تتزعزع، وتنهار المبادئ والأسس التي أقيمت عليها. لكن تركيبة أهل البيت (ع) في الإمامة بقيت ثابتة رغم استشهاد الإمام (ع) في كربلاء ومقتل أهل بيته (ع) وأصحابه باستثناء زين العابدين (ع). ومع إن الإمام الحسين (ع) لم يكن يملك أرضاً يحكمها، ولا خلافةً يتحمل مسؤوليتها، إلا إن نظام الإمامة الذي كان على قمته بقي راسخاً قوياً، بل ثبتت جذوره في نفوس المحبين والأولياء.

المباني الفكرية للصراع

حاول بنو أمية بقتل الحسين (ع) وأهل بيته وأصحابه تغيير التركيبة الفكرية للمجتمع المسلم في القرن الأول الهجري. فقد حاولوا قتل فكرة الإمامة الشرعية بشروطها: في عدالة الحاكم، والنص على تعيينه، وحاولوا تغيير أخلاقية الحرب التي جاء بها القرآن الكريم وإرجاعها إلى

زمن الجاهلية، وحاولوا تغيير العقل المسلم الذي بناه القرآن الكريم، وهذبّته سنّة رسول الله (ص). إذن فلنبحث في نقاط لها علاقة بموضوع الصراع الفكري في الطف، وهي: محاولة قتل فكرة الإمامة الشرعية، وتغيير أخلاقية الحرب، والعقول المتباينة في الطف، ومباني العقلاء والسلوك السلمي قبل الطف، ومعركة الطف: المعركة الفكرية.

1- محاولة قتل فكرة الإمامة الشرعية

تواتر حديث رسول الله (ص) الذي صرح بأن (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[304]. وبموجب هذا الحديث الشريف فإن الحسين بن علي (ع) إمامٌ واجبُ الطاعة، إن قامَ جهاداً في سبيل الله تعالى أو آمن بالهدنة وأبرمها حسبما يقع تقديره الشرعي، فهو في كلا الحالتين إمامُ الأمة.

لكن بنو أمية، ومن خلال واقعة رهيبة كواقعة الطف، أرادت قتل فكرة تلك الإمامة الشرعية التي أمر بها رسول الله (ص). وهذا يدعونا إلى مناقشة أهداف الحرب.

أهداف الحرب: فللحرب أهدافٌ يطمح إلى تحقيقها كلا الطرفين المتحاربين. وقد تختلف الأهداف تبعاً لإختلاف طبيعة الحرب ذاتها. فالحرب تتلون بأهدافها السياسية أو الإقتصادية أو الثقافية أو العقائدية.

---

[304] الإرشاد ص 204.

لكن الحرب المبنية على المبادئ الصحيحة تقوم على قاعدة أن المبدأ الحق هو الذي ينتصر في النهاية، رُبحت الحرب عسكرياً أو خُسرت.

فالهدف السياسي للحرب هو تدمير العدو، والسيطرة على ممتلكاته، وإلحاقها بالطرف المنتصر. وأغلب الحروب في التاريخ هي حروب سياسية. ومع أن لواقعة الطف أهدافاً سياسيةً من قبل بني أمية، وهي إلغاء دور الإمام الحسين (ع) من الخريطة السياسية الدينية، ومنعه عن الخلافة التي هي فرع من الإمامة الشرعية، إلا ان الهدف العقائدي والثقافي كانا أقوى الأهداف من قتله (ع).

وربما تخاض الحرب لهدف إقتصادي، فيستأثر العدو بالغنيمة! وفي معركة الطف نهبت جنود الكوفة بعضاً من متاع الحسين (ع)، "فأخذ قميصه إسحاق بن حيوة الحضرمي، وأخذ سراويله أبجر بن كعب، وأخذ عمامته أخنس بن مرثد، وأخذ سيفَه رجلٌ من بني دارم، وانتهبوا رحله وإبله وأثقاله..."[305].

إلا أن ذلك لم يكن هدفاً واضحاً للحرب، لأن أهل البيت (ع) لم يكن لديهم شيء مادي أو دنيوي يغري بمحاربتهم من أجل سلب غنائمهم. وأقصى ما غنمه الأعداء هي تلك الأشياء البسيطة! فليس لمحاربة الحسين (ع) هدفٌ اقتصادي.

وربما تُخاض الحرب من أجل تغيير ثقافة الطرف المقابل. وقد يعدُّ ذلك هدفاً أساسياً لواقعة الطف بضميمة الهدف العقائدي. فقد حاول بنو

---

[305] الفتوح ج 3 ص 137.

أمية تخريب مفهوم الولاية، والإمامة الحقة التي أوصى بها رسول الله (ص) قبل وفاته.

فافتعلوا مختلف الأساليب لمحو ذكر أهل البيت (ع)، خصوصاً بعد إستحواذهم على وسائل السلطة السياسية، واستخدام المال لشراء ذمم الناس. ولأن الإمام الحسين (ع) كان صوتاً قوياً من أصوات الإمامة الحقة، لعلمه وقربه من رسول الله (ص)، فقد آلوا على أنفسهم إلا إستخدام أبشع الأساليب في قتله (ع)، وانتهاك حرمته. وكانوا يظنون أنهم بذلك يستطيعون قتل فكرة الإمامة، وترويع المؤمنين بها.

وربما تخاض الحرب من أجل حماية المبدأ العقائدي، وكانت حروب النبي (ص) وأئمة أهل البيت (ع) تجري بهذا الإتجاه. فمع أن الغلبة لم تحالفهم (ع) في جميع الأحيان كما في معارك: أُحد مع النبي (ص)، وصفين مع أمير المؤمنين (ع)، وساباط مع الإمام الحسن (ع)، وكربلاء مع الإمام الحسين (ع)، إلا أن المبدأ الديني الذي من أجله قامت الحرب، وهو النبوة الخاتمة أو الإمامة الحقة، كان هو المنتصر دائماً.

خُطِطَ لمعركة الطف من قبل بني أمية أن تكون معركة حاسمة تمحي من الوجود العقلي أية فكرة ترتبط بإمامة أهل البيت (ع)، أي أنهم أرادوا باسلوب الرعب من قتل، وتعطيش، وقطع رؤوس، وسبي، إجتثاث فكرة إمامة أهل البيت (ع) من عقول الناس.

بمعنى آخر أنهم أرادوا من تلك الواقعة إعادة تركيب العقل المسلم بحيث يقبل بولاية يزيد بن معاوية بالرغم من فسقه ومجونه، ويفضّله على

إمامةٍ حقةٍ كإمامة الحسين (ع) حتى لو ذكرها القرآن الكريم وأمضاها رسول الله (ص).

ولذلك كان يزيد ومن قبله معاوية مستقتلاً للبيعة، ومتعطشاً للسلطة، وقد خاطب والي المدينة: "خذ الحسين [بالبيعة]... وإن أبى فاضرب عنقه وأبعث برأسه إليَّ"[306].

ولم يغب عن الإمام الحسين (ع) كلُّ ذلك، بل كان (ع) ملتفتاً إلى محاولات معاوية وابنه يزيد في إهانة أهل البيت (ع)، وإخراجهم من الساحة العقلية والقلبية للمجتمع. ولذلك كان (ع) يركز على دور أهل البيت (ع) في أغلب خطبه، مستهدِفاً عقل الإنسان الموالي، محذّراً من الإنزلاق الرهيب في مخطط بني أمية.

فمن كلامٍ له (ع) بعد صلاته يوم عاشوراء: (أيُّها النَّاس فإنَّكم إن تتَّقوا الله تعالى وتعرفوا الحقَّ لأهله يكن رضاء الله عنكم، وإنَّا أهل بيت نبيكم محمد صلى الله عليه وآله وسلّم أولى بولاية هذه الأمور عليكم، من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالظّلم والجور والعدوان...)[307].

وقال (ع) وهو يتوقع الموت الحتمي في نهاية سفرته إلى الكوفة: (... رِضَى اللهِ رضانا أهلَ البيتِ، نصبِرُ على بلائِهِ ويُوَفيّنا أجرَ الصابرينَ)[308].

---

[306] البداية والنهاية ج 8 ص 143.

[307] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 232.

[308] مثير الاحزان ص 41، وكشف الغمة ج 2 ص 203.

وقال (ع) لعتبة والي المدينة من قبل معاوية: (قد علمتَ إنا أهلُ بيتِ الكرامةِ، ومعدِنُ الرسالةِ، وأعلامُ الحقّ الذي أودعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ قُلُوبَنا وأنطقَ بهِ ألسنتَنا، فنطقتْ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ...)[309].

ونحى الإمام الباقر (ع) منحى الإمام الحسين (ع) في وصف أهل البيت (ع) بأجمل صفات الفضائل، فقال (ع): (نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن عهد الله، فمن وفى بذمتنا فقد وفى بذمة الله، ومن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله، ومن خفرنا[310] فقد خفر ذمّة الله)[311].

فما كان ينكرُهُ معاوية ومن بعده ابنه يزيد في فضائل أهل البيت (ع)، كان الإمام الحسين (ع) يثبته في جميع خطبه (ع).

2- تغيير أخلاقية الحرب

كانت الحرب في الجاهلية عملاً فظيعاً تُقتل فيها النفوس، وتنتهك فيها الأعراض، وتُسلب فيها الأموال، دون هدف أخلاقي واضح. كانت الحربُ بين القبائل المتناحرة في صحراء الجزيرة العربية قبل الإسلام عملاً عبثياً. وعندما جاء الإسلام منع الظلم في الحياة عموماً، وفي الحرب

---

[309] بحار الأنوار ج 44 ص 315، 325.

[310] خفرنا: أي حمانا، وأصل الكلمة من خَفَرهُ أي أجارهُ وحَماهُ.

[311] الكافي ج 1 ص 223.

بالخصوص. فوضع لها شروطاً، وجعلها مرتبطة بالأخلاق الفاضلة. فخلق عندها عقلية إسلامية تؤمن بالنظام الأخلاقي في الحياة العامة، مشدِّداً على ذلك النظام في الحرب خاصة.

الحرب وشروطها: وضع الإسلام شرطين أساسيين للحرب العادلة:

أولهما: عدم الإعتداء: فقال بعدم البدأ بقتالٍ من لم يبدأكم بقتال[312]، ذكر الكتاب المجيد ذلك: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[313]. فالقتال في الدين هو الدفاع المشروع عن النفس، بحيث لا يتعدى إلى الإعتداء.

ثانيهما: المعاملة بالمثل: وفي ذلك آيتان. الأولى: قوله تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)[314]. وقد خيّرت الآية الكريمة بين: العدالة في الرد بالمثل، أو العفو. وحببت الصبر والعفو (عند المقدرة). والآية الثانية: قوله تعالى: (الشَّهْرُ الْحَرَامُ

---

[312] مجمع البيان ج 2 ص 29.

[313] سورة البقرة: الآية 190.

[314] سورة النحل: الآية 126.

بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[315].

ومعناها أنهم لو هتكوا حرمة الشهر الحرام وقاتلوكم فيه، جاز لكم معاملتهم بالمثل. ثم وجّه تعالى المؤمنين إلى طريق الإحتياط في الرد عليهم، وهم أحوج إلى نصر الله تعالى وولايته، فقال: (... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)[316].

أما السنّة الشريفة فقد فصّلت في أخلاقية الحرب، فقالت: بحرمة قتل النساء والصبيان، فقد نهى رسول الله (ص) (... عن قتل النساء والولدان في دار الحرب ...)[317]، وأكدّت على حرمة إتلاف الموارد الطبيعية، فقال (ص): (... ولا تحرقوا النخل، ولا تُغرِقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً)[318]. وإذا كان إتلاف الأشجار بقطع الماء عنها حرام، فإن إتلاف النفوس بقطع الماء عنها أولى بالحرمة!

وحرّمت التمثيل بالقتلى، فقال (ص): (إياكم والمُثلة بالكلب العقور)[319]. وكان أمير المؤمنين (ع) يأمر جنوده بالقول: (... ولا تُمثّلوا بقتيلٍ...)[320].

---

[315] سورة البقرة: الآية 194.

[316] سورة البقرة: الآية 194.

[317] وسائل الشيعة ج 15 ص 64.

[318] المصدر السابق ج 15 ص 59.

[319] نهج البلاغة – شرح محمد عبده ج 3 ص 78.

[320] وسائل الشيعة ج 15 ص 59.

وحرّمت قتل المدبر والجريح، قال أمير المؤمنين علي (ع): (فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مُدبِراً، ولا تجهزوا على جريحٍ...)[321]. وعن الإمام السجاد (ع): (أن علياً (ع) كتب إلى مالك الأشتر وهو على مقدمته يوم البصرة بأن لا يطعن في غير مقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يجهز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن)[322].

وحرّمت الغدر بالكفار والغلول منهم[323] والتمثيل بهم"[324]، وحرّم القتال في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب[325].

وتلك أخلاقٌ عامةٌ في القتال، مسلمين كانوا أو مشركين. لكن بنو أمية لم يلحظوا في قتالهم الإمام الحسين (ع) ومن معه أياً من تلك الأخلاق النبوية الشريفة في الحرب. فقد قتلوا النساء والصبيان، ومثّلوا بالقتلى، وغدروا، ومنعوا الماء عن النساء والصبيان والرجال، وقتلوا جريحاً أسروه وهو نافع بن هلال بعد أن كُسرت عضداه، وقاتلوا الحسين (ع) في شهر محرم وهو من الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال.

إستهداف العقل المسلم: وبذلك استهدفوا العقل عند الإنسان، بفكرة مفادها أن لا شيء يستحق التكريم أو الإختصاص بالفضائل إذا كان مرتبطاً بعلي

---

[321] الكافي ج 5 ص 38.

[322] المصدر السابق ج 5 ص 33.

[323] الغُلُول: مصدر غلَّ، يغلُّ، وهو خيانة الرجل في مغنمٍ ونحوه.

[324] إيضاح الفوائد – فخر المحققين ص 461.

[325] كفاية الفقه – السبزواري ج1 ص 369.

بن أبي طالب (ع) وفاطمة الزهراء (ع). حصل ذلك بإسلوب ممنهج أيام معاوية ضد الإمام علي بن أبي طالب (ع) وابنه الحسن (ع)، وشيعتهم ومحبيهم (ع).

كان في استراتيجية الحكم الأموي خطة مُحْكمة لسلب الفضائل التي منحها القرآن الكريم لأهل البيت (ع) في آية التطهير، وآية المودة، وآية المباهلة. وبقاء تلك السياسة فترة طويلة من الزمن جعلت أُناس الكوفة يستسهلون كتابة رسائل الولاء إلى الحسين (ع) يوماً، ونقضها في اليوم التالي، بل ومحاربته بالسيف وقتله (ع) في اليوم الثالث!

ولو لم يتم ذلك بمنهج أموي متناسق استهدف عقل الإنسان المسلم، لما تجرأ أحدٌ على مقاتلة الإمام الحسين (ع) حبيب رسول الله (ص)، وحفيده، وثمرة فؤاده (ص)!

فقد سيّرت الماكنة الأموية: السياسة المالية والعسكرية والثقافية للدولة لمحاربة فكرة الإمامة الحقة لأهل البيت (ع). فكان مال الدولة يُصرف على شراء الولاءات للسلطان الظالم، وكان الرواة الكاذبون يهيئون الأرضية المناسبة لتنزيه الأمويين الأوائل أمثال أبو سفيان، وأمية بن حرب وغيرهم، ونفض غبار محاربتهم للنبي (ص) عن أدرانهم، وكان جيش الدولة مستعداً لمحاربة الأطهار من أهل البيت (ع)، وقتلهم، من الذين أرادوا إصلاح ما فسد من النظام العام!

وجوب دفع المعتدي: وإذا كان العدوان على إنسان بريء عملاً لا أخلاقياً، فإن الدفاع عن النفس أو رد الأعتداء عملٌ أخلاقي. بل هو في قمة

الأخلاق والشهامة. ذلك ان ردع المعتدي وإيقافه عند حدّه يصون المجتمع من الشر ومن الأشرار، ولذلك قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[326]. فحد القتال هو دفع المقاتِل وردعه دون تعدي، فالتعدي مهما كان، يصبح عدواناً بنص القرآن. فإخلاقية الحرب تفصح عن أن هناك حدوداً للإلتحام مع العدو، وضوابط لمقاتلة المحاربين الشاهرين سيوفهم.

وهكذا التزم الإمام الحسين (ع) بضوابط القرآن في الدفاع عن نفسه، وعن أهله، وعن أصحابه. فدافعَ (ع) عن مبدأه بقدرٍ قليلٍ من الرجال والسلاح. فلم يكن معه إلا إثنان وسبعون مقاتلاً، يقاتلون قتال الأبطال وهم يحتفون الأرض بأقدامهم. بمعنى أنهم كانوا يفتقدون الوسيلة الفعالة التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم أمام المقاتلين من أصحاب الخيول المحارِبة. قاتلوا قتال الأبطال في وقت كان العطش والحرمان من الماء القريب يفتك بهم، وكانت عيالهم معهم!

لم يترك الإمام الحسين (ع) الحجاز متوجهاً إلى الكوفة آواخر سنة 60 للهجرة محارِباً. بل جاء مسالماً مصطحباً عياله وأهل بيته (ع)، وحاملاً كتب أهل الكوفة الواعدة له، لكنه كان (ع) متحدياً خلافة بني أمية لأنها انحرفت عن قواعد الإسلام وأصوله. فكما كانت الحرب متوقعة، كان الإمام (ع) يأمل بأن يرجع الطغاة من بني أمية إلى رشدهم، ويتبعون طريق الهداية الدينية والعقلية.

---

[326] سورة البقرة: الآية 190.

كان لابد للإمام الحسين (ع) أن يستشهد حتى يعيد تركيبة العقل المسلم الذي خربته أساليب بني أمية. لأن في الإيثار اللامتناهي، وفي الإستشهاد بتلك الطريقة المأساوية إعادة لأولويات العقل المسلم. فكيف يُقتل حفيد رسول الله (ص) بتلك الطريقة الوحشية على يد مسلمين يعتقدون بمحمد (ص) ورسالته، بعد نصف قرن من وفاته (ص) ؟!

تلك الصدمة هي التي أرجعت شريحة من المسلمين إلى صوابهم. ولذلك تقرأ الثورات العديدة التي قامت ضد بني أمية بعد مقتل الحسين (ع).

أرادت بنو أمية من ارتكاب نواهي الإسلام في الحرب تغيير المنهج الفكري الذي جاء به الإسلام في قضية الحرب والسلام. فأصبح المسلمون، وبعد الطف أمة ذليلة وُصمت بقتل حفيد نبيها خاتم الأنبياء والمرسلين (ص). ومع إنّ هذا الذل والهوان أضرّ بني أمية بمقدار، إلا إنه نفعها قرابة قرن من الزمان في السيطرة على مقدرات العقل المسلم، وتحريكه بالطريقة التي أرادت توجيهه لخدمتها!

مبادىء الحرب:

لاشك أن للحرب – عموماً – مبادئ إنسانية يلتزم بها العقل أكثر مما يلتزم بها المقاتلون من الطرف الظالم، منها: الضرورة القتالية التي تدفع الإنسان بالدفاع عن نفسه إذا تعرض لهجوم، ومنها: ضرورة التمييز بين المقاتِل المسلح عن غيره من المجردين عن السلاح أو القاصرين عن حمله، ومنها: التناسب العددي وهو أن يكون هناك تناسب عقلي بين

الطرفين المتحاربَين من ناحية العدّة والعدد، حتى يصح أن نطلق عليها معركة! وفي تلك الموارد نقاشٌ، وطرح أفكار:

أ – **الضرورة القتالية:** لابد أن يُردّ الإعتداء، وأن يُناجَز الباطل، ولا يمكن ترك الأشرار يعيثون في الأرض فساداً، فلابد من محاربة أهل الشر والفساد، وتلك ضرورة قتالية. وإلى ذلك قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[327]. فالحرب ضرورية للدفاع عن النفس، أو لدفع الشر والفساد من الأرض، أو لطلب الإصلاح، بشرط أن لا تخرج عن الحد المرسوم في القرآن الكريم. فالقتال دفاعاً عن النفس من المسلّمات الدينية والعقلية. وبذلك كان دفاع الإمام الحسين (ع) عن دينه ونفسه وعياله أمراً طبيعياً بالعقل وبالدليل القرآني.

ب – **التمييز بين المقاتِل وغير المقاتِل:** يميّز العرف الحربي بين المقاتِل حامل السلاح وبين الإنسان الأعزل الذي لا يحمل سلاحاً. فإذا كان معسكر الحرب لطرفٍ يضم أفراداً عزّلاً، أي لا يحملون السلاح كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى، فلابد للآخر عدم التعرض لهم بأذىً. بينما يُقاتَل الفارس المقاتِل الذي يشهر سلاحاً، وفرسه يمضي عدْواً نحو عدوه، ويُقاتَل أيضاً من يشهر سيفاً ويتجه مهرولاً نحو عدوه. ويمكن أن يطلق على ذلك بالعرف القتالي في الحرب.

---

[327] سورة البقرة: الآية 190.

أما الإخلاق القتالية: فتعني أن القتال ينبغي أن يكون بين المتقاتلين أنفسهم، أي أن أخلاقية الحرب تحرم على المقاتِل أن يهاجم هدفاً غير قتالي، ومنه يُفهم قوله تعالــى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...)[328].

وفي ضوءِ تلك الأفكار تتوضح صورة المعركة فيما لو وقف المؤرخ ونظرَ إلى معسكر الحسين (ع) الذي ضمَّ مقاتلين من الرجال، وعزّلاً من النساء والأطفال والمرضى، ولم يكن الإمام (ع) ذاهباً إلى قتال، بل كانت رحلته إلى العراق استجابة لكتب أهل الكوفة. ومع ذلك لم يميز العدو بين المقاتِل وغير المقاتِل، فقتلوا النساء والصبيان والرضع والشيوخ، وأحرقوا الخيم. فانتهكوا بذلك أعراف الحرب التي سارت عليها أقوامٌ من قبلهم حتى في زمن الجاهلية.

ج – **التناسب أو التكافؤ:** يتكافأ الجيشان المتحاربان عادةً في العدة والعدد، من أجل أن تكون المعركة عادلة. حيث تظهر فيها قدرات المعسكرين، وقد تكون الغلبة للجيش الذي يستخدم الأسرار العسكرية، والخدع، والمفاجآت التي لم يحسب لها العدو حساباً.

لكن المعركة التي نحن بصددها هنا، وهي معركة الطف، كانت من نوعٍ آخرٍ. فلم يكن هناك تناسب بين قوة الكتيبتين: كتيبة الحسين (ع) التي كانت تضم اثنين وسبعين رجلاً قادراً على حمل السلاح، منهم إثنان

---

[328] سورة البقرة: الآية 190.

وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً[329]. وجيش أموي يَضُمّ: كتيبة عمر بن سعد المؤلفة من أربعة الآف فارس مسلح، وكتيبة الحر بن يزيد الرياحي ذو الألف فارس. ولم يغيّر موقفه منهم إلا الحر بن يزيد الرياحي قائد الكتيبة الثانية، ويزيد بن زياد[330] من كتيبة الأربعة الآف. وانضما إلى الحسين (ع) قبل المعركة بلحظات، بينما بقيت كتيبتهما تقاتلان الإمام الحسين (ع).

اذن على أقل التقادير كان عدد الجيش الأموي الكوفي حوالي خمسة الآف مقاتل أو أكثر، يحوي ربما على الآلآف من الخيول المدربة على القتال، مع آلاف أخرى من جنود الإسناد والتموين. وهذا بحد ذاته أمرٌ لا يتناسب مع عدد محدود من الرجال الابطال تعدادهم أكثر قليلاً من سبعين، مع عدد من الصبيان والنساء يكون عددهم الإجمالي مع الرجال أقل من مائتين، حسب الإستقراء العقلي، وليس هناك دليل تاريخي يؤكد ذلك أو يخالفه.

لم تكن المعركة متكافئة أصلاً، فكيف يستطيع اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً أن يسحقوا جيشاً مكوناً من خمسة الآف فارس على أقل التقادير بكامل عدتهم، مع إمدادات كبرى من الجيش تقدّر بعشرات الآلاف من المقاتلين.

---

[329] تاريخ الطبري ج 4 ص 320 .

[330] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 2 ص 25.

وحتى معركة بدر الكبرى كان تعداد المسلمين فيها ثلث جيش المشركين ولم يكن مع جيش المسلمين نساء ولا أطفال. ولو آمنا بصحة الافتراض بأن جيش بني أمية كان خمسة الآف مقاتل لا أكثر! وأصحاب الإمام الحسين (ع) كانوا اثنان وسبعون مقاتلاً. لكان كلُّ مقاتلٍ من أصحاب الحسين (ع) قد واجه سبعين مقاتلاً من جيش الكوفة الأموي.

وإذا أضفنا الخيل في المعادلة، وكان أغلب الجيش الأموي خيالة بينما كان هناك أربعون راجلاً في معسكر الحسين (ع) وإثنان وثلاثون فارساً فقط، وأغلب خيول أصحاب الإمام (ع) قد عُقرت بالنبال[331] لاحقاً! علمنا أن المقاتل الراجل من أصحاب الحسين واجه سبعين فارساً بكامل عدتهم. وتلك شجاعة عظمى بجميع المقاييس، ويقين بالله تعالى، وإطمئنان بحسن العاقبة. خصوصاً إذا ما علمنا بأن سيوف بني أمية كانت مشهورةً تجاه الحسين (ع) وأصحابه، مملوءة بحمى الحرب ضد آل محمد (ص). ولا أقلّ من أن كلماتهم ورسائلهم وأفعالهم كانت تدل على ذلك.

إن عدم تناسب حجم الطرفين المتحاربين وقوتهما تدعو الجيش الأضعف في العدة والعدد إلى إستخدام الكر والفر والإختباء في زوايا الجبال والكهوف، فتكون حرب كر وفر.

وقد عُرض على الإمام الحسين (ع) شبيه ذلك عندما قال له الطرمّاح بن عدي، حينما رأى إجتماع أهل الكوفة على محاربته (ع): "... فإن أردتّ أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى من رأيك، ويستبين لك ما

---

[331] تاريخ الطبري ج 4 ص 332 – 333.

أنت صانع، فسرْ حتى أنزلك مَناع جبلنا الذي يُدعى أجَأ[332]، إمتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، والله ما دخل علينا ذلّ قط. فأسير معك حتى أنزلك القُرَيَّة، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجَأ وسَلمَى من طيّئ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى تأتيك طيّئ رجالاً ورُكباناً، ثم أقم فينا ما بدا لك، فإن هاجك هَيْج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يُوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف"[333]. إلا أن الإمام (ع) أبى ذلك، وآثر أن يقف أمام العدو الأكثر عدداً وعُدّة، ويقاتل وجهاً لوجه على أن يحتمي بالجبال، بسبب وعدٍ صادقٍ وعده لهم، ومبدأ حقٍ أستند عليه. فقال (ع) له: (جزاك الله وقومك خيراً! إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علامَ تنصرف بنا وبهم الأمورُ في عاقبه)!"[334]. فآثر الإمام (ع) أن يلتزم بالقول المعطى لأهل الكوفة على الذهاب إلى الكهوف الآمنة التي أشار إليها الطرّماح.

المنهج العقلي في الدفاع: حارب الإمام الحسين (ع) أعداءه بمنهج عقلي متطابق مع مبادئ الدين الحنيف في الإلتحام مع العدو. فما الذي جعل

---

[332] جبل أجأ: أحد ثلاثة جبال غرب حائل في الجزيرة العربية هي: أجأ، وسلمى، والعوجاء.

[333] تاريخ الطبري ج 4 ص 307.

[334] المصدر السابق ج 4 ص 307.

الإمام (ع) يقاتل جيشاً كبيراً في حرب غير متكافئة؟ وما هو التفكير الذي كان يفكر به:

1- لم يبدأ (ع) بالقتال: كان (ع) يردد في كل مناسبة: (ما كنتُ لأبدأهم بقتالٍ)[335]، مستلهماً ذلك من قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[336]. نزلت هذه الآية الكريمة في صلح الحديبية، مع آياتٍ لاحقةٍ لها لتشريع القتال مع مشركي مكة. وطالما كان هدف القتال ضد المشركين إقامة الدين، فإنه عُدَّ عبادة خالصة لوجه الله تعالى.

فالقتال هنا لا يعني إفناء الناس والإستيلاء على أموالهم وأعراضهم. بل هو الدفاع المشروع عن النفس. ولذلك قال تعالى: (... وَلَا تَعْتَدُوا...)[337]، أي لا تخرجوا عن الحد المرسوم لكم. "قيل: أُمروا بقتال المقاتلين دون النساء. وقيل: إنهم أُمروا بقتال أهل مكة، والأولى حمل الآية على العموم، إلا من أخرجه الدليل. (وَلَا تَعْتَدُوا) أي: ولا تجاوزوا مِنْ قِتالِ من هو أهلُ القتال إلى قتالِ من لم تؤمروا بقتاله. وقيل: معناه لا تعتدوا بقتال من لم يبدأكم بقتال"[338].

---

[335] تاريخ الطبري ج 4 ص 309.
[336] سورة البقرة: الآية 190.
[337] سورة البقرة: الآية 190.
[338] مجمع البيان ج 2 ص 29.

فكان العدو، وهو جيش بني أمية، هو المعتدي عليه (ع)، وكان هو المدافع المأمور برد الإعتداء. وهذا المنهج القرآني في الدفاع هو الذي سار عليه الإمام (ع) في الطف.

2- إن قتاله (ع) الأعداء كان قتالاً أخلاقياً، فمن شهر عليه السيف ردّه بالمثل، فلم يتجاوز على قاصر، ولا على عاجز، ولا على مريض. بل كانت عياله ضحية الجعجعة إلى ذلك المكان الصحراوي القاحل في كربلاء.

ولو كان يزيد من أهل السياسة والحنكة لما تجرأ على محاربته بوجود أهل بيته (ع) من القاصرين والعاجزين نساءً وصبياناً. ولكنه الطيش والتعطش نحو السلطة، وعدم إدراك معنى الدين بل ومعاداته، واستهتاره بالمبادئ هي التي جعلته يتصرف بذاك الشكل المخزي!

وهكذا سارت الأمور بحيث ثبّتت قضية الطف المحنة الإنسانية التي تجاوزت حدود الألم الإنساني، والمعاناة الشديدة عطشاً، وجرحاً، وقتلاً لجميع الفئات العمرية، وأبقت جذوتها حيّة، إلى ما شاء الله من الزمان.

3- إن عدم تناسب حجم الطرفين المتحاربين جعل من قضية الطف قضية فلسفية في الإيثار، والتضحية، ونكران الذات. ولو كان تعداد الجيشين متناسباً لما كان للطف ذلك التأثير العقلي على الإنسان المحبّ أو الكاره. لأن التناسب العسكري بين الفريقين يقلل من فرص الإيثار والمأساوية

الصارخة. وقد غاب عن بني أمية أن محاربة الفئة الشجاعة، القليلة العدد الثابتة على مبدأها، يكسب تلك الفئة الشريفة الخلود.

4- كان الإمام (ع) يعلم أن تلك الواقعة ستكون علامة فارقة في التاريخ، لأنه علم بمقتله: (... إن الله قد شاء أن يراني قتيلاً)[339]، وعلِمَ بسبي أهل بيته (ع): (إن الله قد شاء أن يراهُنَّ سبايا)[340]. فهي قضية مثالية في الفداء والتضحية وإجمال كل مفاهيم الإسلام والإيثار خلال يوم وليلة.

ففي ليلة عاشوراء قام (ع) وأصحابه الليل كله في الدعاء والصلاة وتلاوة القرآن. وفي يوم عاشوراء وعظهم، وأجملَ لهم مبادئ الإسلام ومعانيه، ثم طلبَ من أصحابه وأهل بيته (ع) القتال فرداً فرداً حتى تتبين البطولة الفردية بأجلى صورها؛ وكل زمن يحتاج إلى مثل تلك البطولة.

ثم صلى (ع) صلاة الظهر تحت وابل السهام، وضربات السيوف، وقدّم أهل بيته (ع) الواحد تلو الآخر قرابين لله تعالى، ثم قدّم نفسه أخيراً وهو مطمئن بأن لا أحد بعده يمكن أن يستسلم للعدو.

هذا التخطيط الفريد لمعركة الطف جعلها ملحمة أبدية إلى يوم الدين، لأن فيها معاني أصول الدين: كالإقرار بالتوحيد والنبوة والإمامة والمعاد والعدل الآلهي. وفيها فروع الدين: كالصلاة، والدعاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتزكية النفس بالمثول أمام الله تعالى.

---

[339] الملهوف ص 53 – 56.

[340] المصدر السابق ص 53 – 56.

لقد انتصر الإمام الحسين (ع) إنتصاراً حاسماً في المعركة العقلية في الطف، فهو وإن قُتل بسيوف بني أمية إلا أن فكره (ع)، وسيرته، وسيرة عاشوراء بقيت منجماً للعقل الإنساني يستخرج منها كل يومٍ أفكاراً جديدةً، ويثبت في الوقت نفسه على المبادئ الراسخة في التضحية والإيثار التي حثَّ عليها الإسلام.

3- العقول المتباينة في الطف

لاشك ان الحربَ أمرٌ استثنائي في حياة الإنسان. فالقاعدة أن الحياة الإنسانية تجري على ضوء العقل والدين، دون الرجوع إلى صراع حربي. ولكن لو وقعت الحرب، إضمحلّ دور العقل في إدارتها وتلاشى في كشف الجوانب المدمرة فيها. إلا أن واقعة الطف تميزت بدور العقل المتكامل للإمام الحسين (ع)، رغم المعاناة والآلام. فهل هناك عقل يحكم الحرب؟ وهل أن كلا الطرفين المتقاتلين يفكران بنفس الطريقة العقلية التي نعهدها في الحياة العامة؟

تباين العقول في الحرب:

والجواب على ذلك، ونحن نخص الحديث عن واقعة الطف، أن هناك عقلين متباينين يديران الحرب: عقلُ شرٍ يديره عمر بن سعد، وعقلُ خيرٍ يديره الإمام الحسين (ع). عقلُ الشر يريد أن يقتل ويدمر ويفكر برؤوس أعدائه يحملها إلى أسياده ليفوز بجائزة ما. وعقلُ الخير يريد أن يدافع عن دينه ونفسه ومبادئه وشرفه ويتمنى أن يهتدي الناس جميعاً.

عقلُ الشر يعلم أن كثرة السلاح والعدد تستطيعان أن تقتل وتذبح، وعقل الخير يعلم أن لا مخرج من هذه الأزمة إلا بالإستشهاد. وفي النهاية يقبل الطرفان بنتيجة الحرب. عقلُ الشر يعتبرها إنتصاراً حربياً بإبادة العدو من الناحية الجسدية. ويمثله قول سنان بن أنس الذي قتل الحسين (ع)، فقال له الناس: " قتلتَ حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله (ص)، قتلت أعظمَ العرب خطراً، جاء إلى هؤلاء يُريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأتِ أمراءَك فاطلب ثوابك منهم، لو أعطَوْك بيوتَ أموالِهم في قتل الحسين كان قليلاً. فأقبل على فرسه حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد، ثم نادى:

أوِقرْ ركابي فضّـةً وذهباً — أنا قتلتُ الملِكَ المحجَّبا

قتلتُ خيرَ الناس أمّاً وأباً — وخيرَهم إذ يُنسبون نسبا

فقال عمر بن سعد: يا مجنون، أتتكلم بهذا الكلام، أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك..."[341].

وعقلُ الخير يعتبرها إنتصاراً معنوياً أبدياً لا ينمحي أثره المعنوي ما دامت الحياة باقية على وجه الأرض. ويمثّله قول الإمام الحسين (ع): (فإني لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرَماً)[342]. وقول

---

[341] البداية والنهاية ج 8 ص 205. وفي مختصر تاريخ دمشق – ابن عساكر ج 3 ص 342، ومروج الذهب – المسعودي ج 3 ص 75، وسمط النجوم العوالي – عبد الملك بن حسين ج 3 ص 76 أنشدها بين يدي ابن زياد. وفي الفتوح ج 5 ص 221 أنشدها بشر بن مالك بين يدي ابن زياد، فقدمه وضرب عنقه.

[342] تاريخ الطبري ج 4 ص 305.

العقيلة زينب بنت علي (ع) ليزيد بن معاوية: (... فوالله الذي شرفنا بالوحي والكتاب، والنبوة والإنتخاب، لا تدرك أمدنا، ولا تبلغ غايتنا، ولا تمحو ذكرنا....)[343].

وطالما بُنيت حياتنا على التصميم الآلهي أو الجعل والإنشاء كما يقول الأصوليون أصبح للطريقين أتباع وأنصار. وقضية النصر قضية جعل، والأشرار يجعلون المعركة إنتصاراً حتى لو كانت هزيمة، وهكذا تعاملوا مع معركة الطف. وإلى ذلك قال ابن العربي (ت 543 هـ): "أن يزيد قتل الحسين بسيف جده"[344]، فردّه ابن خلدون (ت 808 هـ) قائلاً: "... فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد، بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه، والحسين فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد، والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق أيضاً واجتهاد"[345].

وهكذا صاغ البعض كابن العربي تبريراً لمأساة الطف، فأصبحت في نظرهم انتصاراً، مع أنها كانت هزيمة لهم بكل المقاييس الإنسانية. وأراد ابن خلدون أن يصحح قليلاً بالقول بعدم جواز قتال الحسين (ع)، لكنه أفسد المطلب بجعل جلاوزة يزيد على حقٍ واجتهادٍ أيضاً! وهكذا أغمضوا عيناً عن تعاليم الدين ورسالته الرحيمة، وفتحوا أخرى تبرر للسلطان الظالم فعلته المهولة!

---

[343] الإحتجاج ج 2 ص 37.

[344] العواصم من القواصم – ابن العربي ص 214 .

[345] ديوان المبتدأ والخبر – ابن خلدون ص 217.

فهي وإن لم تكن معركة عسكرية بالمعنى العلمي، بلحاظ عدم تكافؤ عدد المقاتلين من الطرفين، كما ذكرنا ذلك سابقاً، إلا أنهم صوروها وكأنها معركة متكافئة في العدّة والعدد، حيث انتصر فيها جيش الكوفة الأموي على جيش الحسين (ع). مع إنَّ الإمام الحسين (ع) كان متوجهاً نحو الكوفة بعياله وأهل بيته (ع). ولم يكن عدد أصحاب الحسين (ع) أو أهل بيته ليشكل جيشاً متكاملاً. لأن الجيش يحتاج إلى مقاتلين يقرب عددهم عدد جيش العدو أو أكثر، وإلى عمليات إمداد متصلة بمركز سلاح ومؤونة، وخطط عسكرية مُحكَمة للإنقضاض على العدو، أو الإلتفاف حول خطوطه الخلفية، أو محاولة قطع إمدادات العدو ونحوها. وليس من جيشٍ في تاريخ الحروب من اصطحب عيال قائده وأهل بيته معه.

ومع ذلك، فقد حاول الإمام (ع) إستدراك الوضع العسكري لأصحابه، فرتبهم على أساس الجيش المنظم عسكرياً. فجعل في الميمنة زهير بن القين، وفي الميسرة حبيب بن مظاهر، وأعطى الراية إلى أخيه أبي الفضل العباس (ع) المشهود ببطولته وبأسه. وسارت الحرب على تلك الشاكلة. وبارز أبطال معسكر الحسين (ع) أعداءهم حتى أستشهدوا جميعاً.

4- مباني العقلاء والسلوك السلمي قبل الطف

حاول الإمام الحسين (ع) درأ الحرب بالوسائل السلمية، وهذا لا ينفي علمه بقرب وقوع المعركة الحتمية لا محالة. ولكنه (ع)، ومن باب إلقاء الحجة عليهم، طرق جميع الأبواب السلمية قبل واقعة الطف

كالإعتذار لهم من المجيء إليهم، والكشف عن إمكانية الرجوع من حيث أتى، وتوجيهه النصائح الدينية والأخلاقية لهم في كل مناسبة. وكان (ع) يؤمن بأن هناك إمكانية لمعالجة الوضع إذا شاء الله تعالى، ما لم يقع السيف، فإذا وقع السيف أصبح (ع) ومحبيه وأتباعه أمة وأعداؤه أمةً أخرى.

فقد سارت الأحداث بشكل أن أهل الكوفة كتبوا إلى الإمام الحسين (ع) يدعونه بالقدوم إليهم، لعدم وجود إمام حق بين ظهرانيهم يدير شؤونهم. فكانت دعوة حق – في ظاهرها – من الناس، اقتضت إستجابة حق من الإمام (ع). وتلك وظيفته، فهو أعلم بأهل الكوفة، وأدرى بوظيفته في إمامة الناس. ولذلك إستجاب إلى دعوتهم إياه.

وإنما قصد الإمام الحسين (ع) القدوم إلى الكوفة على أساسين:

الأول: البيعة له (ع)، فقد بايعوه إماماً عن طريق كتبهم ووفودهم، وقد كان صريحاً في ذلك عندما قال لهم: (... فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم...)[346]. أي إن كنتم على بيعتي فقد جئتكم إلى الكوفة. وفي مناسبة أخرى قال لهم: (... قد أتتني كتبكم، وقدِمتْ عليَّ رُسُلكم ببيعتكم...)[347].

[346] تاريخ الطبري ج 4 ص 303.

[347] المصدر السابق ج 4 ص304.

الثاني: ضمان صدقهم: طلب (ع) منهم أن يعطوه العهود والمواثيق بأنهم جادين في ذلك وصادقون، يطيعونه وينصرونه. وقد صرح (ع) بذلك: (... فإن تعطوني ما اطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم)[348].

المنطق العقلائي للإمام (ع): وعندما بعث والي الكوفة الجديد عبيد الله بن زياد قوة من جيشه بقيادة الحر بن يزيد الرياحي لاعتراض قافلة الإمام الحسين (ع) في صحراء القادسية، لم يشأ الحر مواجهة الإمام (ع)، فلما حضرت الصلاة خرج الإمام الحسين (ع) للصلاة، وهو يرتدي إزاراً ورداءً ونعلين. كان ذلك في وسط الصحراء عندما أوقفته تلك الكتيبة المسلحة بألف فارس بكامل عدتّهم. وهذا يدلُّ على أن نية الإمام (ع) كانت نية سلمية. فمن يخرج في تلك الظروف لعدوه بإزار ورداء ونعلين غير الذي وطّن نفسه على السلم، وعدم سفك الدماء، واليقين بان الله هو الحامي؟!

قأوضح الإمام (ع) سبب قدومه إليهم، وهو دعوة أهل الكوفة له بالقدوم إليهم كما ذكرنا آنفاً، معلنين البيعة له: (... قد أتتني كتبكم، وقدمتْ عليَّ رُسُلكم ببيعتكم...)[349]. بل طلب من عقبة بن سِمْعان إظهار رسائل أهل الكوفة للحر بن يزيد، فأخرج خُرجين مملؤين صُحُفاً، فنشرها بين أيديهم[350].

---

[348] تاريخ الطبري ج 4 ص 303.

[349] المصدر السابق ج 4 ص 304.

[350] المصدر السابق ج 4 ص 303.

فقد قَدِمَ الإمام (ع) بناءً على كتب أهل الكوفة التي دعوه فيها لإمامتهم. أي أنهم ألزموه بتكليفه الشرعي. فكان لابد له من إجابة دعوتهم كي يعلم صدقهم عن كذبهم. وكان إحتجاجه بكتبهم هو أفضل وسائل الإحتجاج، فإن الكتابة تترجِم نية الإنسان إلى وثيقة يصعب إنكارها.

ثم كرر الحديث لهم، فقال (ع): (أيها الناس، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجوْر والعدوان ...)[351].

عندها بيّنَ (ع) لتلك الكتيبة الكوفية خياره إما الذهاب إلى الكوفة إذا أطمئن لصدقهم، أو الإنصراف إلى المكان الذي أقبل منه، إذا كانوا كارهين قدومه إليهم، (... وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم)[352]، (... وإن أنتم كرهتمونا، وجهلتم حقنا، وكان رأيُكم غيرَ ما أتتني كتبكم، وقدمتْ به عليَّ رُسُلكم، انصرفت عنكم)[353].

ومع أن الإمام (ع) قد أعطاهم خياره في الإنصراف عنهم إذا كرهوا مجيئه، إلا أنه عرض عليهم الحق، وعرّفهم بأهل البيت (ع) وولايتهم، وشخّص لهم الفرق بين من طلب الحق حقيقة وبين من ادعاه

---

[351] تاريخ الطبري ج 4 ص 303.
[352] المصدر السابق ج 4 ص 303.
[353] المصدر السابق ج 4 ص 303.

لإسباب سياسية دنيوية. وتلك ميزة الإمام الحق (ع)، فهو يوضّح لهم الموقف الديني توضيحاً لا لبس فيه، ويضعهم أمام تكليفهم الشرعي دائماً.

قال (ع) لأصحابه وأصحاب الحُر في منطقة تسمى البِيضَة: (أيها الناس، إنّ رسول الله (ص) قال: (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرَم الله، ناكثاً لعَهْد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله ، يعملُ في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يُدخله مُدخَله). ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري ... أنا الحسينٌ بنُ علي، وابن فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوْة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكير...)[354].

إن لم تكن مع الحق فلا تكن مع الباطل: وعندما طلب (ع) من عبيد الله الجعفي مناصرته، فاعتذر عن ذلك، طلب (ع) منه عدم الإنخراط في القتال مع بني أمية ضد إمام الحق (ع). وهذا يدلّ على أن الإمام الحسين (ع) كان يريد أن يقلل معسكر أهل الباطل من المقاتلين، بمعنى ان عدم إرادة الدخول مع الحق لا تعني الدخول مع الباطل. وبتعبيرٍ ثالث إنّ الإبتعاد عن الحق (الذي كان يمثله الإمام الحسين عليه السلام) لا يعني

---

[354] تاريخ الطبري ج 4 ص 304 – 305.

حتمية الإنضمام إلى الباطل (الذي كان يمثله يزيد بن معاوية). وهذا يفسّر إلى حد ما تأثير تلك المقولة على الثورات التي وقعت ضد بني أمية بعد مقتله (ع) كواقعة الحرة في المدينة سنة 62 هـ ، وحركة التوابين في الكوفة سنة 65 هـ ، وحركة المختار في الكوفة سنة 66 هـ ، وغيرها. فهي تدل على إنهم، أو على الأقل شريحة منهم، وإن لم يناصروه في حياته (ع)، إلا أنهم لم يدخلوا في الباطل، بل حاربوا الظالم لاحقاً.

محاولات أخيرة للسلام: ومع كل الإستفزازات التي قام بها بنو أمية لدفع الإمام الحسين (ع) البدأ بالقتال، إلا أنه (ع) تمسك بوصية الإسلام أن لا يبدأ (ع) أحداً بقتالٍ. وكان (ع) يردد في كل مناسبة: (ما كنتُ لأبدأهم بقتالٍ)[355]. وأعظم محاولات إستفزازهم كانت محاصرة الإمام (ع) في كربلاء، وإجباره مع من كان معه من النساء والصبية والشيوخ والمرضى النزول في أرض صحراوية، لا ماء فيها ولا زرع.

حاول الإمام (ع) نزع فتيل الحرب معهم، في تلك المرحلة، عبر ثلاث وسائل:

الأولى: محاولة إقناع قائد كتيبة الأربعة الآف: عمر بن سعد بالتخلي عن القتال. إلا أن تهديد عبيد الله بن زياد له حالَ دون ذلك.

---

[355] تاريخ الطبري ج 4 ص 309.

فقد حاول الإمام (ع) إقناع عمر بن سعد بعدم شرعية القتال ضد أهل بيت النبوة (ع). وكانت تلك محاولة لهدايته إلى طريق الرشاد والإصلاح، وعدم سفك دماء أهل البيت (ع). بل إنه في بعض الروايات[356]، لما رأى (ع) منه حباً للدنيا، وشغفاً بالمال، أراد أن يعوضه مالاً كي لا يقدم على سفك دماء أهل البيت (ع). وكادت تلك المحاولة أن تثمر لولا تنبه عبيد الله بن زياد، وإرساله شمر بن ذي الجوشن برسالة يهدد فيها عمر بن سعد بتجريده من قيادة جيش الكوفة، وحرمانه من ولاية الري. ففضّل ما وعده عبيد الله بن زياد بولاية الري مقابل ما عرضه الإمام الحسين (ع).

الثانية: مَنَحَ الإمام (ع) الإذن لأهل بيته (ع) وأصحابه بالإنصراف عنه، لأن القوم لا يريدون غيره. فكان (ع) يفضّل أن يُقتل لوحده دون أن يُشرك أحداً في ذلك. ولو قرأت التاريخ لرأيت أن أغلب قادة الحروب يفضلون أن يُقتَلَ جنودهم على أن تمسهم يد الموت. إلا إنّ الحسين (ع) كان يفضل أن يموت دون أصحابه وأهل بيته (ع).

وقد أذِنَ لبعض من طلب منه الإنصراف عن الحرب فانصرفوا مثل: مالك بن النضر، والضحاك بن عبد الله المشرفي[357]. ولكن أهل بيته (ع) وأصحابه ثبتوا كالأسود لا يثنيهم شيءٌ عن القتال في سبيل الله تعالى،

---

356 مقتل الحسين – خ. ص 99.

357 تاريخ الطبري ج 4 ص 317.

ولذلك أثنى عليهم بالقول: (أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلّمتنا القرآن، وفقهّتنا في الدين، وجعلتَ لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدةً، ولم تجعلنا من المشركين. إما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أوصلَ من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ...)[358].

ولو تأملنا في كلام الإمام (ع) وهو يخاطب أصحابه وأهل بيته (ع) لشعرنا بأن ينابيع الحكمة تتفجر من ثناياه، فهو يحمد الله تعالى على أن أكرمه بجده المصطفى (ص)، وعلّمه القرآن، وفقّهه في الدين، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، ولم يجعله من المشركين. وتلك طبيعة الإمام الحق (ع) في إيصال حقائق الدين إلى المخاطَبين.

الثالثة: حاول تأخير القتال من أجل صلاة الليل وتلاوة القرآن. فأرادها (ع) واقعة عبادية استشهادية فريدة من نوعها. ولا أخالُ أن أحداً من البشر يستطيع أن يقوم بالصلاة والدعاء والإستغفار براحةِ بالٍ، وطمأنينةِ قلبٍ، وهو يعلم أنه سيقتل غداً مع أهل بيته وأصحابه. ولكن سيد معركة الطف (ع) جعلها مسرحاً للعبادة والدعاء والإتصال بالله تعالى.

بينما كان في تخطيط بني أمية الإشتباك بقتالٍ مع معسكر الإمام الحسين (ع) يوم التاسع من محرم، إلا أنه (ع) طالبهم بتأخير المعركة إلى

---

[358] الإرشاد ص 231.

اليوم التالي حتى يتسع له الوقت للصلاة، وتلاوة القرآن، والاستغفار لربه تعالى ليلة المعركة. وتلك قضية تستدعي التأمل، فالإنسان العادي الذي يقترب منه الأجل، قد يضعف مزاجه في التوجه الهادئ للصلاة والاستغفار وتلاوة القرآن، وقد ينشغل بالُهُ بالمعركة الحاسمة غداً، ويقضي الليل في التخطيط لها أو التفكير بها على الأقل. إلاّ أبا عبد الله الحسين (ع)، فقد كان منشغلاً بالله تعالى أكثر من إنشغاله بساحة المعركة الحتمية غداً. وكان قلبه سابحاً في أجواء الملكوت الأعلى أكثر من كون فكره منشغلاً بمن سيخوض بدمائه ودماء أهل بيته (ع) وأصحابه غداً. وتلك منقبة سامية من مناقب الإمام الحسين (ع).

وسجّلَ له التاريخ قوله (ع) في منطقة تسمى بذي حُسُم، قبل أن يصل إلى كربلاء: (إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإنَ الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفُها واستمرت جدّاء[359]، فلم يبقَ منها إلا صُبابةً كصُبابةِ الإناء، وخسيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لا يُعْمَل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه! ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقَاً، فإني لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرَماً[360])[361].

وبذلك أعطى الإمام الحسين (ع) الكثير من أجل تحقيق السلام، ونزع فتيل الحرب، إلا أنهم كانوا قد صمموا على قتله (ع)، وقتل كل من

---

[359] جدّاء: يابسة. تقول شاة جدّاء قليلةُ اللبن يابسة الضرع.

[360] بَرَماً: من البَرم وهو الضجر والسأم (مجمع البحرين ج 1 ص 192).

[361] تاريخ الطبري ج 4 ص 305.

جاء معه، أو على الأقل إذلالهم بالطريقة التي تخدم الإطار العقلي الجديد للإنسان المسلم الذي تحدثنا عنه للتو، وهو القبول بإزاحة أهل البيت (ع) من الساحة الإسلامية إزاحة تامة، والقبول بالحاكم الفاسق الفاجر على المسلمين!

بينما كان الإمام الحسين (ع) يرى أن أفضل الموت هو القتل في سبيل الله تعالى. فكان (ع) مستعداً لذلك الموت أتمَّ الإستعداد.

5- معركة الطف: المعركة الفكرية

تمثل الحرب المرحلة الأخيرة من النزاع الفكري بين الأطراف المتصارعة في المجتمع. ولما كان الطرفان المتحاربان يستخدمان عنصرين أساسيين من عناصر الحرب هما: الإنسان والسلاح، أصبحت الحرب أكثر الوسائل تدميراً في التاريخ البشري، لسببين:

الأول: إستخدام الإنسان قوته العقلية في التفنن بإنزال الأذى بالآخر.

الثاني: أن للسلاح قوة هائلة في القطع والذبح والقتل.

والحرب غالباً ما تكون طاحنة يغلب فيها القويُّ الضعيفَ، وينازلُ الحقُّ الباطلَ، ولا تنتهي غبرة الحرب الا بغالبٍ ومغلوبٍ. إلاّ ان النتيجة الحتمية للحروب لا تكشف طبيعة النصر والهزيمة، بقدر ما تكشف طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وضعف موقف الظالم أمام المظلوم.

الإمام الحسين (ع) والمعركة:

لما بدأ عمر بن سعد بأول رمية سهم ضد معسكر الإمام الحسين (ع)، فإنه أراد أعلان الحرب. فقد "زحف عمر بن سعد نحوهم، ثم نادى: يا ذويْد، أدْنِ رايتَك. قال: فأدناها ثم وضع سهمه في كبد قوسه، ثم رمى فقال: اشهدوا أني أول من رمى"[362].

وضعَ ذلك الاعلان الإمام الحسين (ع) في موقف الدفاع والشروع في القتال، إمتثالاً لقوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ...)[363]. والآية تفيد العموم ولا تختص بالمشركين.

أهمية خوض المعركة:

كان لابد للإمام (ع) أن يخوض المعركة، وقد لخصها الحر بن يزيد في كلامه لهم، بعد توبته وإنضمامه إلى معسكر الحسين (ع): "يا أهل الكوفة، لأمِّكم الهَبَل[364] والعُبْر[365] إذْ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكَظْمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجّهَ في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهلُ بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك

---

[362] البداية والنهاية ج 8 ص 195.

[363] سورة البقرة: الآية 190.

[364] الهَبَل: فقدُ العقل، والحماقة. هَبِلت الأمُ ولدها أي ثكلته.

[365] العُبْر: سخنة العين.

لنفسه نفعاً، ولا يدفع ضرًّا، وحلأتموه[366] ونساءه وأصَبْيتَهَ وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرَّغُ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم أولاء قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمداً في ذريته! لا سقاكم الله يومَ الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه..."[367].

كان الإمام (ع) مدركاً أن وظيفته خوض الحرب اليوم ضد بني أمية، للأسباب التالية:

أولاً: ضرورة تصحيح الوضع الديني: لأن بني أمية عاثوا في الأرض فساداً، وابتعدوا عن الإسلام، وأصبحت الخلافة الدينية سلطة دنيوية يتداولونها دون رادع. وكان ذلك واضحاً من سلوك جيشهم وقوادهم وجنودهم، إلى درجة أن الإمام (ع) رأى أن القتل في سبيل الله تعالى أو الاستشهاد هو العلاج الوحيد لرجوع الناس إلى أصول الدين الصحيحة التي جاء بها خاتم الأنبياء (ص). وهو ما قاله الشاعر على لسانه (ع):

إن كان دينُ محمدٍ لم يستقم ... إلا بقتلي يا سيوف خذيني[368]

---

[366] حلأتموه عن الماء: صددتموه عنه ومنعتموه إياه.

[367] بحار الأنوار ج 45 ص 11.

[368] لم أجد مصدراً تاريخياً معتمداً نقل ذلك عن الإمام الحسين (ع). وإنما كان، في الظاهر، قول شاعر تحدث بلسانه (ع).

كانت معركة كربلاء ضرورية لإرجاع الأمور التي أوصى بها رسول الله (ص) إلى نصابها. كانت حرباً أخلاقية من الدرجة الأولى. وكانت الطف معركة فكرية أعظم من كونها معركة عسكرية.

ويمكن تلخيص أهمية خوض معركة الطف من طرف الإمام (ع)، بالصورة التالية: بعد ان أُستنفذت جميع الوسائل السلمية، قامت المعركة على مستندين. الأول: أحقية الحسين (ع) في الدفاع عن نفسه بالسلاح عندما هاجمه العدو. والثاني: الإلتزام بالحدود المقبولة للدفاع عن النفس بأن لا يجهز على جريح، ولا يقتل مدبراً، ولا يقتل طفلاً أو قاصراً، أو مجرداً من السلاح. بمعنى ان لا يقاتل إلا من يقاتله من حملة السلاح. وقد فعل الإمام الحسين (ع) وأهل بيته (ع) وأصحابه عين ذلك.

ثانياً: فشل المحاولات السلمية: وقد ذكرنا ذلك آنفاً، ونزيد بأن الإمام (ع) كان موطِّناً نفسه على الشهادة وطلب الموت، ولكنه إلتزم بأصول الحرب من الناحية الدينية، وهي التوسل بالوسائل السلمية إلى أقصى درجة ممكنة، لا تهيباً من الموت، بل إلقاءً بالحجة على العدو (... فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم...)[369]، كما قال الإمام أمير المؤمنين (ع).

ثالثاً: معركة الطف معركة دفاعية: كان استخدام السلاح عند الإمام (ع)، استخداماً محدوداً في الدفاع عن النفس، وردَّ الهجوم، فلم يجهز على جريح

---

[369] الكافي ج 5 ص 41.

كما ذكرنا، ولم يتعقب مدبراً، ولم يقطع الماء عن أحد بل سقى القوم في البداية وهو في وسط الصحراء، وكان بإمكانه ان لا يعطيهم الماء فيهلكوا في تلك الصحراء.

أ – والدليل على أن معركة الطف كانت حرباً دفاعيةً، هي أنه (ع) لم يأتِ بنية الحرب، بل أنه (ع) صَحِبَ معه أهله من النساء والصبيان والشيوخ. ولم نقرأ في المصادر التاريخية أن رسول الله (ص) صحب النساء والصبيان في معاركه الحاسمة، ولم نقرأ أن أمير المؤمنين (ع) صحب النساء والأطفال في معارك الجمل وصفين والنهروان.

بل طلب الحسين (ع) ممن لم يكن مستعداً للقتال بالإنصراف. وتلك دلالة أخرى على أن الإمام (ع) لم يكن يرغب بالحرب. وإنما أختار الدفاع عن دينه ومبدأه ونفسه. ولم يهدف يوماً إلى غنيمة دنيوية، ولم يتمنَّ الإنتقام من شخص ما. بل كان أهل البيت (ع) رجال المودة والمغفرة والعفو والهداية والإرشاد. أراد الإمام (ع) دفع الشر، وتصحيح الإنحراف الذي أصاب الأمة بعد أن تولى عليهم من هو ليس بأهلٍ لإدارتهم.

ومن نافلة القول أن نعلم أن حروب النبي (ص) كانت حروباً إبتدائية هجومية، على رأيٍ[370]، كمعركة بدر وخيبر، ونحوها. وحروب الإمام أمير المؤمنين (ع) كانت حروباً على البغاة الذين بغوا على الحاكم

---

[370] هناك رأيان بين الفقهاء حول حروب النبي (ص): 1- أنها حروب إبتدائية كان هدفها الدعوة إلى الإسلام. 2- أنها حروب دفاعية كان هدفها الدفاع عن الإسلام من الشرك.

الشرعي العادل ونكثوا البيعة، كحروب صفين والنهروان والجمل. نعم أخرج المشركون بعضاً من نسائهم في معركة أحد، إلا أنهنّ جئنّ من أجل تأليب المقاتلين من المشركين على القتال، ولم يكن لهن دور آخر.

فكانت معركة الطف معركة دفاعية بطولية متميزة، وقف فيها الإمام (ع) حتى النهاية من أجل أن ينتصر مبدأه، مع قلّة الناصر، وكثرة العدو، وحراجة الموقف، ووجود العيال.

ب – لم يستطع بنو أمية تقديم تفسير ديني مقبول لقتالهم الإمام (ع) مع أهل بيته وأصحابه. فلم يستطيعوا الإدعاء بأنهم كفار أو مشركين! حتى تكون حربهم جهاداً ضد الكفار أو حرباً إبتدائية! ولم يتمكنوا الإدعاء بأنهم بغاة على الحاكم الإسلامي العادل، لأن يزيد بن معاوية أشهر من نارٍ على علم بفسقه ومجونه[371]. ولم يبايع الإمام الحسين (ع) يزيداً أو غيره. فليست في عنقه بيعةٌ لأحدٍ. فكان لسان حال بني أمية: إئتنا ذليلاً، وإلا قطعناك بسيوفنا، فكان جوابه (ع): (والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لهم إقرار العبيد)[372].

---

[371] قال أبن الطقطقي في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية): "ان أهل المدينة خرجوا على يزيد بعد مقتل الحسين (ع) سنة اثنتين وستين، أي بعد مقتله (ع) بسنة واحدة" ص 115. وقال وفد المدينة الذي زار يزيد قبل ذلك: "قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، وتعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الحراب (أي اللصوص)" (تاريخ الطبري ج 5 ص 480).

[372] البداية والنهاية ج 8 ص 194.

ج – لما شَهَرَ الأعداء سيوفهم على الإمام (ع) وأهل بيته (ع) وأصحابه، كان لابد لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، ويقاتلونهم بنفس الطريقة. وتلك وسيلة الدفاع عن النفس (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ...)[373]. وإذا غشي المؤمنين العدو "فليدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم وهم في ذلك مثابون: قاتلهم ومقتولهم، جارحهم ومجروحهم"[374]. وهكذا كانت سيرة المتقدمين من المسلمين.

رابعاً: المعركة الفكرية: كان النصر الذي بنى عليه الإمام الحسين (ع) هو نصر فكري معنوي يبقى حيّاً على مدى الأجيال، وليس نصراً عسكرياً بحتاً. فهو (ع) وأهل بيته (ع) وأصحابه، وإن قتلوا من العدو أربع وثمانون مقاتِلاً على ما ذكره الطبري وجرحوا العديد منهم[375]، إلا أن ذلك لم يكن هدف المعركة. كان هدف المعركة هدفاً عقائدياً يُعيد من جديد التركيبة العقلية السليمة للمسلمين. نتحرى ذلك من خلال مخاطبة الإمام (ع) لهم، عبرَ:

أ – **تشخيص المشكلة:** وهي مشكلة السلطان الجائر المستحِل لحُرِمَ الله، والناكث لعهد الله، والمخالف لرسول الله (ص). فقد نقل (ع) قول النبي

---

[373] سورة البقرة: الآية 190.

[374] المراسم العلوية – سلار ص 261.

[375] تاريخ الطبري ج 4 ص 348.

(ص): (من رأى سلطاناً جائراً مُستحِلاً لحُرِمَ الله، ناكثاً لعهد الله، مُخالفاً لسنّةِ رسولِ الله، يعملُ في عبادِ اللهِ بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله)[376]. فالمشكلة التي تمحق الدين هي السلطان الجائر المستحِل لحُرِمَ الله.

ب- **تقديم البديل:** وهو الإمام العادل (ع): (فأنا الحسينُ بنُ علي وابنُ فاطمة بنتِ رسول الله (ص)...)[377]، (وأنا أحق من غيري لقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله)[378]، (... فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة...)[379]. وقد قال تعالى: (... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ...)[380]. فالآية تشير إلى التمسك بولاية أئمة أهل البيت (ع) لعصمتهم وقرابتهم من رسول الله (ص).

وقد نقل بعض الأجلاء[381] صوراً متغايرة لنفس الواقعة، حيث نُقلت روايات ترفع عدد قتلى العدو في المنازلات الفردية ظناً منهم (رضوان الله

---

[376] تاريخ الطبري ج 4 ص 304 – 305.

[377] تحف العقول ص 505.

[378] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 1 ص 234.

[379] تاريخ الطبري ج 4 ص 323.

[380] سورة الشورى: الآية 23.

[381] أوصل الفتال النيسابوري (ت 508 هـ) قتلى بني أمية إلى مائتين وخمسة وعشرين قتيلاً (روضة الواعظين ص 190)، بينما أوصل بن شهرآشوب (ت 588هـ) الأعداء

عليهم) أن المعركة حربية بحتة. لكنها في الواقع كانت معركة فكرية أستخدمت فيها أجساد الامام الحسين (ع) وأهل بيته وأنصاره للدفاع عن فكر الإسلام ومنهجه. ومعركة الطف الفكرية مستمرة ولم تنتهِ إلى اليوم، بل لن تنتهي إلى يوم الدين. ومعركة الطف أصبحت معركة الحق ضد الباطل، ورمزاً من رموز رفض الإنحراف عن الدين، وهي تتكرر كلما أُستحدثت الظروف المشابهة لإنحراف ذلك الزمان.

نعم كان أئمة أهل البيت (ع) من أعظم الأبطال في التاريخ، فأمير المؤمنين علي (ع) قَتلَ في معركة بدر نصف ما قتله جيش المسلمين[382]، وأفنى جيش الخوارج في النهروان عن آخره إلا تسعة منهم[383]، وهكذا كانت بطولة أهل البيت (ع). لكن ظرف الطف كان مختلفاً، فهو وإن سمح بظهور البطولة الفردية إلا أن المعركة كانت معركة وجود عقائدي وفكري. فكل من جاء مع الحسين (ع) من رجالٍ قتلوا، إلا واحداً وهو زين العابدين (ع). فالمبارزة كانت مبارزة وجود، وإثبات فكر بغض النظر عن عدد قتلى العدو. وبمعنى آخر أن المعركة كانت معركة دفاع عن النفس والدين والعرض، ولم تكن معركة عسكرية بالمعنى العسكري للحروب.

الذين قتلهم برير بن خضير فقط إلى نيف وأربعين رجلاً (مناقب آل أبي طالب ج 3 ص 250)، ورفع ابن نما الحلي (ت 645 هـ) عدد أصحاب الحسين (ع) إلى خمسة وأربعين فارساً ومائة راجل (مثير الأحزان ص 39). وأوصل أبو مخنف قتلى العدو إلى ثلاثة الآف ومائة وخمسة قتلى (مقتل الحسين (ع) – خ. ص 99– 148).

[382] نهج البلاغة – ح. ج 1 ص 8.

[383] الملل والنحل – الشهرستاني ج 1 ص 159.

ج- التمسك بالإمامة الحقة: المتمثلة بأئمة أهل البيت (ع) هو جوهر الإصلاح الفكري الذي كان يريده الإمام (ع). وذلك التمسك لا ينتهي في معركة واحدة، بل لابد من زمن وتجارب، حتى يترسخ في ذهن الأمة مفهوم الإمامة الصحيحة المستندة على: العلم الكامل بالشريعة، والتقوى الكاملة من المهد وحتى اللحد عند الإمام (ع)، وهي ما نصطلح عليه بالعصمة في الدين. وقول رسول الله (ص) أعظم شاهد على ذلك: (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[384].

خامساً: سلوك الإمام (ع) في المعركة: وكان سلوك الإمام (ع) سلوكاً أخلاقياً سامياً، نلمسه في النقاط التالية:

أ- التمسك بالله تعالى: عندما اقتحمت الخيل معسكر الحسين (ع) " رفع الحسينُ يديه، فقال: (اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمرٍ نزل بي ثقة وعُدّة، كم من همٍ يَضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمتَ فيه العدو، أنزلتُه بك، وشكوتُه إليك، رغبةً مني إليك عمّن سواك، ففَّرجتَه وكشفتَه، فأنت وليُّ كلِّ نعمة، وصاحبُ كلِّ حسنة، ومُنتهى كلِّ رغبة)."[385].

---

[384] الإرشاد ص 204.

[385] مصباح المتهجد – الشيخ الطوسي ص 558.

ب- قبول توبة المخطئين بحقه (ع): قَبِلَ توبة الحر بن يزيد الرياحي قائد الكتيبة التي جعجعت بالحسين (ع) وأهل بيته إلى كربلاء. ولما كان الحر بن يزيد السبب في نزول الإمام (ع) في صحراء قاحلة، لا ماء فيها ولا زرع، كان لقبول التوبة منه، والترحيب به، والدعاء له من قبله (ع) مغزى خاص. فقد أظهر الإمام (ع) أنه إمام رحمة ومغفرة وهداية للناس جميعاً، المذنب منهم وغير المذنب.

قال الحر بن يزيد لصاحبه لما رأى مظلومية الحسين (ع)، وقد عرَضَ عليهم الخصال فرفضوها: "إني والله أخيّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطعِّتُ وحُرّقت، ثم ضرب فرسَه فلحِق بالحسين عليه السلام، فقال له: جعلني الله فدِاك يابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعتَ بك في هذا المكان. والله الذي لا إله إلا هو ما ظننتُ أن القوم يردون عليك ما عرضتَ عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة... وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة؟ قال (ع): (نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك، ما اسمك؟)، قال: الحرَ بن يزيد، قال (ع): (أنت الحرَ كما سمتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة)."[386].

---

[386] البداية والنهاية ج 8 ص 195.

وكذلك قبول توبة يزيد بن زياد. و"يزيد بن زياد بن المهاجر ممن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين، فلما ردوا الشروط على الحسين، مالَ إليه، فقاتل معه (ع) حتى قُتل"[387].

ج- الصلاة وسط تطاير السهام وتصلية السيوف: صلى بهم الإمام (ع) صلاة الظهر (صلاة الخوف) وهو في قلب المعركة، لا لأنه كان خائفاً، بل إنّ طبيعة الصلاة في ذلك الموقف لها هيئة خاصة تستدعي الإشارة والإيماء بدل السجود والركوع. وطلب منهم الهدنة حتى انتهاء الصلاة، لكنهم رفضوا ذلك، وأداء الصلاة بتلك الصيغة، وفي ذلك الموقف واقعة لم يسبقه أحدٌ في الأديان.

قال أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي للحسين (ع) وقد رأى كثرة القتلى في معسكر الحسين (ع)، فتمنى الموت دونه: "... وأحب أن ألقى ربي وقد صليتُ هذه الصلاة التي دنا وقتُها. قال: فرفع الحسينُ رأسه ثم قال: (ذكرتَ الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين! نعم، هذا أول وقتها. سلوهم أن يكفّوا عنا حتى نصلي...)[388]، فرفضوا أن يوقفوا الحرب. ثم "صلّوا الظهر، صلى بهم الحسين صلاةَ الخوف..."[389].

---

[387] مقتل الحسين (ع) – ز. ج 2 ص 25.

[388] تاريخ الطبري ج 4 ص 334.

[389] المصدر السابق ج 4 ص 336.

لم يطلب الإمام (ع) وقفاً للقتال إلا وقت الصلاة كي يؤدي صلاة الظهر الواجبة. ومع ذلك لم يحترموا إرادة الإمام (ع) في إداء الصلاة، فصلى الإمام (ع) صلاة الخوف، فقُتل دفاعاً عن ذلك من قُتِل من أصحاب الإمام (ع).

ومن المعلوم أن الجيش النظامي يطلب وقفاً مؤقتاً للحرب لإعادة ترتيب مواضع الجنود، وبناء استراتيجية دفاعية جديدة، ولكن الإمام (ع) لم يفعل ذلك. فقد كانت معركته البطولية عبادة متواصلة حتى النهاية.

د- المحاولة الأخيرة لتحريك قلوبهم القاسية: قام الإمام (ع) بآخر فرصة لتحريك الرحمة داخل قلوبهم القاسية، فعرض عليهم طفله الرضيع وما قاساه من عطش، حتى ترقّ قلوبهم ويسقوه ماءً. لكنهم رفضوا، ورموه بسهم قاتل فذبحه. وقد سقى كتيبة الحر بن يزيد الرياحي قبل توبته، وكان بإمكانه أن يحبس عنهم الماء، إلا أن أخلاقه الرسالية كانت تمنعه من ذلك. وبالتأكيد كان هناك من الجنود ممن سقاهم الحسين (ع) يحاربونه، ويعلمون أن كبده وأكباد أهل بيته وأصحابه قد تفطرت من العطش. ذلك أن كتيبة الحر بن يزيد التحقت بكتيبة عمر بن سعد. أفلم يكن من تذّكرَ سقاية الحسين (ع) لهم وقت عطشهم قبل أسبوع فقط، والآن يذيقونه وأهله وأصحابه الظمأ القاتل الذي منعه إياهم؟!

هـ - ترتيب نظام الحرب: "عبأ الحسين (ع) أصحابه... فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيبَ بن مُظاهر في ميسرة أصحابه، وأعطى

رايته العباس بن علي أخاه، وجعلوا البيوت في ظهورهم، وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت يحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم"[390].

و- **القوة والبأس:** كان الإمام (ع) وأصحابه من البأس والقوة، وقد قاتلوا حتى نهاية المطاف، رغم العطش الشديد. ولم يقع أيٌّ منهم أسيراً لدى العدو، عدا نافع بن هلال الذي كُسرت عضداه فأسروه وقتلوه. وكان العدو يأمل بأن يأخذ الحسين (ع) أسيراً. لكن العزيمة القوية، والإرادة الالهية الحتمية، ويقين معسكر الحسين (ع) بحقهم، أوصلهم إلى تلك النهاية المشرفة.

ومن المعلوم أن المقاتِل إذا أُسّر من قبل العدو، يكون خطره الحربي قد زال، لكنه اصبح عبئاً على مبدأه. فإنْ ثَبَتَ وقُتِلْ، فازَ بكرامةٍ دنيوية ونعيمٍ آخروي، وإلا فلا يبقى من تضحيته شيء يُعتدّ به !

التسلسل المنطقي لأحداث الطف:

1- حاول الإمام (ع) معالجة الموقف بالموعظة الحسنة، والخطاب الهادئ، والحكمة البليغة، لكنهم رفضوا كل ذلك وبدأوا الحرب. وكأن إعلان بداية الحرب كانت شرفاً لهم يتمناه صغيرهم وكبيرهم، خلافاً لنص القرآن المجيد!

2- لخّص الحرّ بن يزيد الموقف العام تجاه الحسين (ع) بخمس نقاط:

---

[390] تاريخ الطبري ج 4 ص320.

أ – دعوة أهل الكوفة الحسين (ع) لإمامتهم وإعطائهم البيعة له، زاعمين أنهم سوف يفدونه بأنفسهم وأرواحهم!

ب – وعندما لبى (ع) الدعوة، وسار إليهم، انقلبوا عليه لدنيا زيّنها لهم عبيد الله بن زياد. فأصبحوا جنوداً مع عدوه يقاتلونه (ع)!

ج – وعندما عرض (ع) عليهم الرجوع إلى المكان الذي جاء منه، منعوه عن ذلك!

د – ولما منعوه من الرجوع من حيث أتى، ولم يكن باستطاعته الذهاب إلى الكوفة، أصبح (ع) كالأسير المحبوس في قطعة ضيقة من الصحراء، يطوقه جيش من المقاتلين، حيث لا ماء ولا زرع!

هـ – ثم لم يتوقفوا عند ذلك، بل منعوه الوصول إلى الماء وهو على مقربة منه. وبكلمة، فقد حكموا عليه بالموت عطشاً هو (ع) وعياله وأصحابه، قبل الحرب!

3- ومع ذلك كانت معركة الطف من طرف الإمام (ع) معركة واضحة خالية من الاسرار الحربية، فقد كان عدد مقاتليه معروفاً، بل إلتمس (ع) من جاءه طلباً للدنيا والسلطة ونحوها إلى الإنصراف تحت جنح الظلام، فلم تكن لديه مفاجأت يفاجأ بها العدو. لقد كانت معركة مبدأ، وعقيدة، وبطولة، وشجاعة بكل المقاييس، بينما كان جيش الظلمة يتزود بالإمدادات القتالية، من رجال وعتاد ومؤن، وخطط قتالية.

4- كان لابد للإمام الحسين (ع) من خوض المعركة، بهدف الإصلاح في أمة جده (ص)، وتصحيح الوضع الديني الذي تمثّل بمشكلة السلطان الفاسق الجائر. وبكلمة، فإن معركة الطف كانت متميزة لأن مبدأ الإمامة

الشرعية امتزج فيها مع الدفاع عن النفس، وامتزجت المسؤولية الدينية بالإيثار والتضحية العظمى. كان هدف الحسين (ع) واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، وهو تنبيه الأمة على التمسك بالإمامة الحقة، التي أوصى بها رسول الله (ص).

جنود الإمام (ع):

تميز جنود الإمام (ع) بالشجاعة الفائقة، والإخلاص غير المسبوق، وصفات أخرى فاضلة نعرضها:

أ – الشجاعة: وهي " قوة في القلب يتمكن معها الإنسان تَحمُلّ الحرب ومكارهها"[391]. قال المؤرخون: "... وقاتلهم أصحاب الحسين (ع) قتالاً شديداً، وأخذتْ خيلهم تحمل وإنما هم اثنان وثلاثون فارساً، وأخذتْ لا تحملْ على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفته، فلما رأى ذلك عَزْرَة بن قيس – وهو على خيل أهل الكوفة – أن خيله تنكشف من كل جانب، بعث إلى عمر بن سعد [رجلاً]، فقال: أما ترى ما تلقى خيلي مذ اليوم من هذه العدِّة اليسيرة! أبعث إليهم الرجال والرّماة..."[392]. و"كثرت المبارزة يومئذٍ

---

[391] رسائل الشريف المرتضى ج 2 ص 274

[392] تاريخ الطبري ج 4 ص 332.

بين الفريقين، والنصر في ذلك لأصحاب الحسين (ع) لقوة بأسهم، وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم ..."[393].

والظاهر أن ذلك كان قبل أن تُعقر الخيول، فيترجل أصحاب الحسين (ع) مشاة يقاتلون فرسان العدو.

ولذلك وصفهم الإمام (ع) بالقول: (... فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أفضل من أهل بيتي...)[394].

ب - الإخلاص غير المسبوق: أخلص أصحاب الإمام (ع) وأهل بيته (ع) إخلاصاً منقطع النظير لإمامهم (ع) ولعقيدتهم. فقد وقفوا صفاً واحداً ممتثلين بالطاعة التامة، والتفاني من أجل الدين، والتسابق على الموت بطريقة أذهلت الدنيا.

فهذا زهير بن القين يخاطب الحسين (ع): "والله لوددتُ أني قُتِلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك"[395]. ومسلم بن عوسجة الأسدي يقول: "أنحنُ نخلي عنك ولما نُعذِر إلى الله في أداء حقك!... ولو لم يكن معي سلاح أقاتلُهم به، لقذفتهم بالحجارة دونَك حتى أموت معك"[396]. وسعيد بن عبد الله الحنفي: "والله لا نخليّك حتى يعلم الله أنا

[393] البداية والنهاية ج 8 ص 195.

[394] أمالي الشيخ الصدوق ص 220.

[395] إعلام الورى ج 1 ص 456.

[396] إقبال الأعمال ج 3 ص 76.

حفظنا غيبةَ رسول الله (ص) فيك، والله لو علمتُ أني أقتل، ثم أحيا، ثم أحرق حياً، ثم أذرّ، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. فكيف لا أفعل ذلك! وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً"[397]. وقال آخرون: "واللهِ لا نفارقُك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفيّنا، وقضينا ما علينا"[398]. وقال آخرون: "... لا والله لا نفعل، ولكن نفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نَرِدَ مورِدَك، فقبح الله العيش بعدك"[399].

ج – الصفات الفاضلة لأصحاب الحسين (ع): كان أهل بيت النبوة (ع) من الأتقياء الطاهرين الذين عاشوا أجواء الرسالة والوحي، وكانوا القدوة والمثل الأعلى في الدين والأخلاق. وهكذا تعلّم أصحابُ أهل البيت (ع) من أئمتهم العبادة، والدعاء، والتقوى، والأخلاق الفاضلة. وبكلمة، فقد كانوا مصداقاً لوصف القرآن الكريم: (... وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[400]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)[401]. فقد كانوا يذكرون الله كثيراً، ويتهجدون بالأسحار، وينفقون أموالهم، ويبذلون أنفسهم في سبيل الله تعالى. وإلى ذلك أشار حبيب بن مظاهر عندما

---

[397] روضة الواعظين ص 184.

[398] تاريخ الطبري ج 4 ص 318.

[399] إعلام الورى ج 1 ص 456.

[400] سورة الأحزاب: الآية 35.

[401] سورة الأحزاب: الآية 41.

خاطب كتيبة عمر بن سعد قائلاً: "أما والله لبئسّ القوم عند الله غداً، قومٌ يقدمون عليه قد قتلوا ذرية نبيه (ص)، وعترته، وأهل بيته (ع)، وعبّاد أهل هذا المصر، المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيراً"[402].

ولعلنا نصل إلى بوابة الحقيقة في معركة الطف لو قلنا إن أهم ميزة ميّزت كتيبة الإمام الحسين (ع) هي أن أغلب المقاتلين فيه كانوا إما علماءً أو فقهاءً أو قرآءً للقرآن، وكان إمامهم المعصوم (ع) يجمع العلم والفقه والقرآن. وبكلمة، فقد كان جيش الإمام (ع) جيش فكر ومعرفة وتقوى. كانت كتيبة الحسين (ع) كتيبة العلماء الأتقياء. فقد كان الإمام الحسين (ع) إمامَ حقٍ، منصوص عليه من قبل النبي (ص): (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[403]، ذكره القرآن الكريم بفضائل جمة في آيات التطهير، والمباهلة، والأبرار، وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة.

والعباس بن علي (ع) كان عالماً من علماء أهل البيت (ع)[404]، وبُرير بن حُضير كان قارئاً للقرآن في مسجد الكوفة، بل كان أقرأ أهل زمانه[405]، ومسلم بن عوسجة كان مجاهدا فاتحاً من الذين فتحوا المناطق النائية في ذلك الزمان كأذربيجان. ولا أقلّ من أن يمضون ليل المعركة، وهم ما بين قارئ للقرآن، ومتهجد، ومستغرق بالصلاة والدعاء. أيُّ معسكرٍ

---

402 مقتل الحسين (ع) – خ. ص 105.

403 الإرشاد ص 204.

404 يستقرأ ذلك من ملازمته الإمام الحسين (ع).

405 أمالي الشيخ الصدوق ص 224.

عظيمٍ ذلك المعسكر الأخلاقي الذي ينتظر ساعة الإنطلاق، وهو مستغرقٌ في ذكر الله تعالى.

صاح عمرو بن الحجّاج بالناس: "أتدرون مَن تقاتلون! فرسانَ المِصرْ، قوماً مستميتين، لا يبرزنَّ لهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم"[406]. ولا أقل من أن يُفاجئ عفيف بن زهير بن أبي الأخنس من جيش الكوفة، وهو يقاتل معلم القرآن، فقال: "إن هذا بُريَر بن خُضير القارئ الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد"[407].

قال بُرير، قارئ القرآن، قبل المعركة: "والله لقد علم قومي أني ما أحببتُ الباطلَ شاباً ولا كهلاً، ولكن والله إني لمستبشرٌ بما نحن لاقون"[408]. وقد وصف الإمام الحسين (ع) حبيب بن مظاهر بالقول: (لله درّك يا حبيب لقد كنتَ فاضلاً تختم القرآن في ليلة واحدة)[409].

كان المشخّصون من أصحاب الحسين (ع) خمسة رجال: زهير بن القين، وحبيب بن مظاهر، وكانا من قادة كتيبته (ع)، ومسلم بن عوسجة البطل فاتح آذربيجان، وبرير بن خُضير الهمداني قارئ القرآن في مسجد الكوفة، ثم التحق به الحر بن يزيد البطل الشجاع التائب لله تعالى ولرسوله (ص). وكان هناك أبطالٌ أفذاذٌ آخرون قاتلوا دون الحسين (ع)، واستشهدوا جميعاً بين يديه (ع).

---

406 تاريخ الطبري ج 4 ص 331.

407 المصدر السابق ج 4 ص 328.

408 مثير الأحزان ص 39.

409 مقتل الحسين (ع) – خ. ص 104.

أما أهل بيته (ع)، فكان أخوه العباس بن علي (ع) حامل لواء الحسين (ع). قُتل هو وأشقاؤه الخمسة من أولاد أمير المؤمنين (ع): جعفر، وعبد الله، وعثمان، ومحمد، وأبو بكر. وقُتل من ابناء الحسين (ع) إثنان: علي بن الحسين، وعبد الله الرضيع. ومن أبناء أخيه الحسن (ع) ثلاثة هم: أبو بكر، وعبد الله، والقاسم. ومن أولاد أعمامه (أولاد عقيل) أربعة وهم: جعفر، وعبد الرحمن، وعبد الله، ومسلم بن عقيل. ومن أحفاد أعمامه أربعة: عون، ومحمد أولاد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن مسلم بن عقيل، ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل.

سلوك معسكر الإمام الحسين (ع):

استلهم جنود الحسين (ع) معاني التضحية والفداء من إمامهم (ع) الذي ما فتئ يذكر الله تعالى، ويصلي له ويدعوه، ولا يتكلم إلا حقّاً، فسابقوه على الشهادة والقتل في سبيل الله، وفي ذلك شواهد:

1 – قدّم الإمام (ع) جنوده على قلّتهم ليبارزوا العدو فرداً فرداً، فردٌ يقاتل وآخرٌ يحميه من وراء ظهره. والمبارزة الفردية تقتضي جهداً عقلياً فائقاً، لأن المقاتل إنما يقاتل لوحده دون مساندة الجماعة. ولذلك قيل بين العارفين أن الفرق بين الصبر والمصابرة هو أن الصبر يقوم به الإنسان وحده، بينما المصابرة تقوم بها الجماعة تساند بعضها بعضاً. فمثل القتال الفردي كالصبر يتحمله الصابر لوحده.

تكشف تلك العملية البطولية مبنى أولئك الأبطال وتفانيهم في دينهم ومعرفتهم لإمامهم الحق (ع). فبعد أن أنجلت الغبرة عن مقتلِ عددٍ كبيرٍ من أصحابه (ع) في الحملة الأولى، تقدم الصيداوي عمر بن خالد يقاتل دون إمامه الحسين (ع)، وهكذا جابر بن الحارث السلماني، وسعد مولى عمر بن خالد، ومجمّع بن عبد الله العائذي، وغيرهم، ثم الغفاريان، ثم الفتيان الجابريان، ثم حنظلة بن أسعد الشبامي، ثم عابس بن أبي شبيب الشاكري، ثم شوْذَب، وغيرهم من الشهداء الأبرار.

2 – قدّم الإمام (ع) أبناءه وأخوته وأهل بيته للقتال، وهو يعلم أنهم سيقتلون، لكن الإيمان غير المحدود واليقين بالله جعل التضحية النهائية قضية اطمئنان. فاستشهد ابنه الأكبر علي بن الحسين، ثم عبد الله بن مسلم، ثم عون بن عبد الله بن جعفر، ثم محمد بن عبد الله، ثم عبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل وبقية أهل البيت (ع)، ثم العباس بن علي (ع)، والقاسم بن الحسن (وهو غلام)، وعبد الله الرضيع في حجره (ع).

وهذا يتطلب قوة عقلية إستثنائية، خصوصاً وهو يرى أن أهل بيته (ع) يستشهدون الواحد تلو الآخر. وهو ثابت الجَنان، قوي العزيمة، قد غمر تفكيره حب الله، وحب الاستشهاد بين يديه.

3 – قام الإمام (ع) بعد كل ذلك بالقتال والإستشهاد ولم يتراجع لحظة واحدة حتى النهاية. هذا التصميم العظيم على التمسك بالمبدأ، مع وجود البدائل الاخرى كحرب الجبال، أو المكاتبة ليزيد أو نحوها، رفضها الإمام (ع) عالماً بالخاتمة الطيبة التي كانت تنتظره. فكان الاستشهاد بتلك القوة

قد أثبت بأن معركة الطف معركة عقلية بالدرجة الأولى، تغلب فيها عقل الإمام (ع) على كل ما خططه الأعداء.

والمهم في الحروب، على طول التاريخ، هو أن السلاحَ يصيبُ العدو فيقتله، ويفرض المقاتِل الحي إرادته. ولكن واقعة الطف كانت حرباً فريدة. فقد فرض الإمام الحسين (ع) وبعد استشهاده، إرادته الدينية ومنهجه العقلي على العدو والصديق. فباتت شريحة واسعة من الأمة تؤمن بمبدأ الإمامة من الناحيتين العقلية والشعورية، بعد أن غفلت عنه زمناً، وهو المبدأ الذي حارب من أجله الإمام الشهيد (ع).

وترسخت عند الأمة أفكار الإمامة الشرعية وشروطها. فقد أحيت قضية الإمام الحسين (ع) وشهادته في الطف أمرين: الأول: الإمامة الحقّة المصانة عن الخطأ والمعصية. والثاني: طلب الشهادة والموت في سبيل الله تعالى. وبدونهما لا يمكن للإمام الحق أن يقود الأمة. وبذلك أرجع الإمام الحسين (ع) للمسلمين حالتهم العقلية الطبيعية التي كانت في زمن النبي (ص)، وهي حالة التفكير بالقرآن الكريم والإمامة الكبرى. تلك الإمامة التي نافح من أجلها رسول الله (ص)، وحرَّمها القرآن الكريم على كل ظالم.

الفصل الخامس

الطف وقوة الإدراك لدى الإمام المكثور (ع)

القوة العقلية للمكثور (ع). الألم الإنساني وطبيعة تحمله. قضية العقل والجسد. آليات إدراك المكثور (ع). الضمير الناطق. كمالية الوعي العقلي. التعامل بخطٍ متوازٍ مع الأعداء. نية التقرب إلى الله تعالى. التضافر بين العقيدة والرغبة الشخصية. المزاج العقلي. الألم الجسدي والعقل. العقل وتفسير الأحداث. الإستنتاج.

القوة العقلية للمكثور (ع)

قوة الإدراك والعقل للمكثور (ع) هو بحثٌ حول الإقتراب من بوابة قوة الإدراك لدى الإمام (ع) في اللحظات الأخيرة من حياته في الطف، رغم الظمأ القاتل، والضربات والطعنات العديدة في جسده (ع)، ومقتل أهل بيته (ع) وأصحابه، ودقة موقف عياله (ع). وتلك من معاجز الإمام الحسين (ع). وهي بالتأكيد إمضاءٌ لصفة الإمامة الحقة التي تحلى بها (ع).

القوة العقلية والدعاء الأخير:

إنّ الفظائع التي حصلت في واقعة الطف ضد الإمام (ع) يمكن أن تؤثر سلباً على عقل أي انسان، ذلك أن الإنسان قد يتحمل ألم الضربات في معركة عسكرية، لكنه يكون مرتوياً من الماء. وقد يتحمل ألم العطش القاتل إذا كانت عياله خارج دائرة المعركة يعيشون في سلمٍ في وطنهم. أما أن تجتمع آلام الضربات والطعنات، والعطش الشديد، وقلّة الناصر، وكثرة القتلى من أهل بيته (ع)، والقلق على نسائه في خيمةٍ قريبةٍ من المعركة، فهذا ما لا يحتمله إنسان، إلا الحسين (ع).

كان الإمام الحسين (ع) ثابتاً صلباً في طلب الحق حتى النهاية إلى درجة أن شخصاً اسمه عبد الله بن عمار، وكان من جنود بني أمية، وهو من شهد مقتل الحسين (ع)، شهِدَ شهادة الحق وقال: "فوالله ما رأيتُ

مكثوراً[410] قط قد قُتِلَ وُلْدُه وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، ولا أمضى جَناناً[411] ولا أجرأ مقدماً منه ..."[412].

فمع مقتل جميع أهل بيته (ع) وأصحابه القادرين على حمل السلاح، وقرب مخيم العيال من ساحة المعركة، والآم العطش والجروح، كان (ع) ثابت الجأش، قوي الإرادة، مع قوة عقلية كاملة.

آخر كلمات الحسين (ع) قبل استشهاده (ع) أظهرت القوة العقلية للمكثور. فلما اشتد به الحال رفع (ع) طرفه إلى السماء وقال: (اللهُمَّ متعاليَ المكانِ، عظيم الجبروتِ، شديد المحالِ، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما يشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء. قريبٌ إذا دُعيت، محيطٌ بما خلقت. قابلُ التوبة لمن تاب إليك، قادرٌ على ما أردت، تدرك ما طلبت. مشكورٌ إذا شُكرت، ذكورٌ إذا ذكرت. أدعوكَ مُحتاجاً، وأرغبُ إليك فقيراً، وأفزعُ إليك خائفاً. وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكلُ عليك كافياً. اللهمَّ أُحكم بيننا وبين قومنا، فإنهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد (ص) الذي اصطفيته بالرسالة، وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، يا أرحم الراحمين. صبراً على قضائك يا رب، لا إله سواك يا غياث المستغيثين. ما لي ربٌّ سواك، ولا معبودٌ غيرك. صبراً

---

410 ذكرنا سابقاً إن المكثور: من كثرة القتلى في أهله (ع) وأصحابه.

411 الجَنانُ: القلبُ.

412 تاريخ الطبري ج 4 ص 345.

على حكمك يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاذ له. يا محيي الموتى، يا قائماً على كلِ نفسٍ بما كسبت، أحكم بيني وبينهم، وأنتَ خيرُ الحاكمين)[413].

كيف تحمّلَ العقل تلك الضربات المؤلمة على الجسد، وهو لا زال يفكر بتلك الطريقة المُحكمة؟ أو بشكل أخص كيف تحمّل الإمام الحسين (ع) عشرات الطعنات والضربات، وهو لا يزال يدعو الله عز وجل بهذا الدعاء العظيم؟ ذلك العقل المؤمن المتكامل كعقل الإمام (ع) هو الذي كان يتحمل تلك الضربات المؤلمة للجسد، دون أن يتقاطع الألم مع التفكير. فتخرج الألفاظ المتوازنة، والمفاهيم الغنية إلى العالم الخارجي سليمة قوية دون إنكسار أو إختلاط.

وإذا كانت الجوارح الظاهرية الخمس: السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق، نقطة إتصال بين العالم الداخلي للعقل والعالم الخارجي المحيط بالإنسان، فإن الارادة القوية المؤمنة هي التي تحرك أعضاء جسده نحو العمل والأداء. والعقل المملوء فكراً بالله عز وجل، والسائر بإنسجام مع إرادة الخالق، يكون إحساسه بالضربة أهون من ذلك الذي يفكر بالضربة ذاتها ويتخوف من تبعاتها الحسية. لأن المشغول بشيء أهم، وهو الله تعالى، لا يلتفت أحياناً للشيء المهم، وهو النفس وأحوالها، وما يتعلق بها من ألمٍ أو فقدان.

---

[413] إقبال الأعمال ج 3 ص 305، وبحار الأنوار ج 98 ص 348.

تحليل دعاء: (اللهم متعالِ المكان)

ولو رجعنا قليلاً إلى الدعاء الأخير في حياة الإمام (ع)، وحلّلنا محتواه، لرأينا أنه جمع أصول الدين وفروعه:

1 – التوحيد: فهو يصف الله تعالى بما وصف به نفسه سبحانه، في العظمة والجبروت، والغنى والقدرة، والقرب والإحاطة، والإنعام والإبتلاء. ويقول (ع): (ما لي ربٌّ سواك، ولا معبودٌ غيرك)، وهو الله القائم على كل نفسٍ بما كسبت.

2 – النبوة والإمامة: فهو الذي اصطفى محمداً (ص) بالرسالة وائتمنه بالوحي. والإمام الحسين (ع) من عترته (ص)، فهو الإمام الحق، وهو الهادي إلى سبيل الله، كما قال تعالى: (...إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[414]. يقول (ع) في دعائه: (ونحن عترة نبيك، وولدِ حبيبك محمد (ص) الذي اصطفيته بالرسالة، وائتمنته على الوحي ...).

3 – العدل الآلهي: فهو يطلب من الله تعالى الحُكْمَ العادل، حيث يقول (ع): (اللهم أحكم بيننا وبين قومنا...)، ، وحكمه تعالى عدل ورحمة.

4 – محراب الصلاة: يدعو الله عزّوجلّ وكأنه في محراب الصلاة. وما الصلاة إلا دعاء. ودعاؤه (ع) هو أن يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، وأن يلهمه الصبر على ما حلّ به. يقول (ع): (أدعوك محتاجاً، وأرغبُ إليك فقيراً، وأفزعُ إليك خائفاً ...).

---

[414] سورة الرعد: الآية 7.

5 – الشكوى إلى الله تعالى وحده: كان (ع) يشكو أمره إلى الله عزوجل، ويتوكل عليه، ويستغيثُ به ولا يستغيثُ بأحدٍ سواه. يقول (ع): (يا محييَّ الموتى، يا قائماً على كل نفسٍ بما كسبت، أُحكم بيني وبينهم، وأنتَ خيرُ الحاكمين).

الألم الإنساني وطبيعة تحمله

ومن أجل فهم أوسع لقوة الإدراك عند الإمام (ع) في اللحظات الأخيرة، لابد من دراسة معنى الألم الذي يصيب الإنسان ومدى تأثيره على قوته العقلية، في الحياتين: الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم يعرض طرق الألم التي تُنزَلْ بالمعاقَبين يوم القيامة. فإنزال الألم في الحياة الآخرة هو أقصى عقوبة للإنسان العاصي. وقد عدَّ الله تعالى النار وما فيها من الالآم عقوبةً للإنسان، لأنها تسبب ألماً للمعاقَبين. والألم الإنساني له نفس المعنى في الدنيا والآخرة، ولكن الألم في الدنيا قد ينزله إنسانٌ بإنسانٍ آخر ظلماً. أما في الآخرة فهو مقيّدٌ بفعل الله تعالى على شريحة معينة من ذوي المعاصي، وهو عدلٌ. وقد يكون الألم الآخروي ألمٌ روحي، كما أن الألم الدنيوي ألمٌ جسدي، كما سنرى.

الألم عند الإنسان:

الألم هو شعور عقلي عند الإنسان ناتج عن أذىً جسدي أو أذىً روحي. وهل يعتبر الألم عند الإنسان قضية موضوعية أم قضية ذاتية؟

الألم قضية ذاتية وليست قضية موضوعية. والفرق بينهما أن القضية الذاتية تختص بالإنسان ذاته، فهو الذي يتألم من ضربة السيف التي تنزل به. ولا يتألم بها غيره إذا لم يمسّه حد السيف، حتى لو كان قريباً – من الناحية المكانية – من المضروب. بينما القضية الموضوعية هي القضية التي تخص مجموعة من الناس. فيُقال مثلاً أن أهل العراق عانوا من حكم بني أمية، لأن الألم نزل بمجموعة كبيرة منهم.

وإذا أردنا أن نبين نموذج الألم الذي يصيب الإنسان ظلماً وعدواناً، لقدمنّا مثال الإمام الحسين (ع) في عاشوراء سنة 61 هـ. لأنه عانى من جميع العوامل المتضافرة التي تسبب الألم الشديد، والمشقة التي لا تحتمل عادةً.

كانت صدور بني أمية تنشرح بإنزال الأذى بالإمام (ع) وأهل بيته وأصحابه في عاشوراء، بدافع الرغبة في الإنتقام. فقد منعوهم من الماء الذي هو حقّ طبيعي لكل إنسان، من أجل إشعارهم بألم الظمأ. وضربوهم بالسيوف والرماح من أجل إشعارهم بألم الجرح والقتل. وقتلوا أبناءهم وأشقائهم من أجل إشعارهم بألم فقدان الحبيب. ومن الطبيعي فعندما يتعرض الإنسان للضرب ويحس بالألم يصرخ أو يُظهِر على قسمات وجهه ما يبين ذلك. روى التاريخ إن النساء في معسكر الحسين (ع) أظهرن الألم بالبكاء والعويل ونحو ذلك!

ولكنك إذا راجعت تلك الروايات التاريخية، فإنك لا تجد ولا رواية واحدة زعمت بأن الحسين (ع) توجع من الضرب أو الطعن أو قال آه من الألم أو تنفر من الضربات والطعنات، بل كان لسانه يلهج بذكر الله تعالى.

وقد ذكرنا للتو شواهد على ذلك، كتكرار قوله (ع): (...إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ)[415]، (صبراً على قضائك، لا إله سواك يا غياث المستغيثين)[416]، (اللهم متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال...)[417]، وغيرها.

وحتى مناداته (ع): (أما من مغيثٍ يغيثنا، أما من مجيرٍ يجيرنا، أما من ناصرٍ ينصرنا)[418]، كان غضباً لله تعالى، فلم يغضب لنفسه. بل كانت الإستغاثة لسانُ حالٍ يبين الدرجة التي هوت إليها الأمة من ناحية إنعدام الشهامة والخُلق، في ذبح أُناسٍ أطهار مرتبطون برسول الله محمد (ص).

كان ألم الحسين (ع) من الضربات شديداً، يحسب بعدد الضربات، وحجمها، وقوتها، وفترة تكرارها:

أ - عدد الضربات: أربع وثلاثون طعنة رمح، وثلاث وثلاثون ضربة سيف. وهذا بحد ذاته عدد كبير من الضربات لا يحتملها الجسم الإنساني عادةً.

ب - حجم الضربات: لاشك أن ضربة السيف تسبب جرحاً واسعاً يتناسب مع حجم السيف وحدته. وطعنة الرمح تدخل في الجسم بعمق أطراف الرمح.

---

[415] سورة البقرة: الآية 156.

[416] مقتل الحسين - خ. ص 142.

[417] مصباح المتهجد ص 827.

[418] مقتل الحسين - خ. ص 117.

ج – قوة الضربات: كانت ضربات الأعداء قوية، لأنهم كانوا يمتطون الخيول المسرعة، وضربة الفارس على فرسٍ مسرع أشد من ضربة الراجل السائر على الأرض.

د – فترة الضربات: استمرت المعركة من الصباح وحتى بعد صلاة الظهر. وهي فترة طويلة بمقياس الحروب التي كانت تقع في ذلك الزمان، وبملاحظة العدد القليل للمقاتلين في معسكر الحسين (ع) نسبة إلى جيش الكوفة. وكان الألم الذي يراد إيقاعه بالحسين (ع) من قبل الأعداء هو ألم ذاتي خاص به. فبالأضافة إلى ألم العطش كان ألم القطع والضرب والجرح.

الألم الجسدي بين العقل والجسد:

أن ضربة السيف التي تسبب الجرح أو القطع إنما تصيب الجلد والأعصاب المنتشرة تحته. وما أن تصل الضربة إلى العصب فتقطعه حتى تنبعث رسالة الألم إلى العقل لتبلغه بالمُصاب. عندها تُحدِثْ تلك الضربة تغييراً في عقل الإنسان المضروب ومزاجه، تتمثل بصرخة ألم أو تعابير للوجه أو ردّة إنعكاسية تنمُّ عن حجم التأثير الفادح الذي نزل به أو ربما بتوقف ماكنة العقل عن العمل والإستجابة!

ولو أخذنا مثلاً ثانياً عن الألم وهو العقوبة الآلهية في الآخرة. فالنار تحرق جلد الإنسان وعصبه، وذلك الحرق الجسدي يبعث رسالة مباشرة إلى الدماغ وما يمثله من عقل فيشعر بالألم. وكلما مسّ ذلك الحرق

جلد الإنسان مرة أخرى كان تأثيره على نهايات الأعصاب أعظم، وكان الألم أشدُّ وأقوى على الإنسان.

فللإنسان قدرة محدودة عموماً على تحمّل الكمّ الهائل من المعاناة، ذلك أن الألم يؤثر دائماً على القوة العقلية. فيشغلها في البداية، ثم سرعان ما يشلّها. وطالما كان العقلُ مرتبطاً بالجسد، فإن الألم الجسدي يشغل العقل ويشلّه عن أداء دوره الطبيعي في الإستيعاب والتحليل.

أ – الألم بمعناه العام في القرآن الكريم:

وردت كلمة (الألم) في آية واحدة في القرآن الكريم وهي: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ...)[419]. ومفادها أن الألم يصيب الطرفين المتحاربيَن طالما وقعت مسببات الألم، وهي الحرب يوم أُحد وهو مورد نزول الآية الكريمة، وما تلاها من جروح وقتل للمسلمين.

والأصل في نزول الألم – عموماً – هو فعلين: الأول: فعلٌ داخليٌّ كالمرض أو تلف الأعضاء الداخلية. الثاني: فعلٌ خارجيٌّ كالإحراق بالنار، وضربة السيف، وطعنة الرمح، ونحوها.

وما يهمنّا في هذا البحث هو فهم الطرق التي تؤلم الإنسان. فهناك مساحتان للألم الإنساني في الحياة الآخرة:

---

[419] سورة النساء: الآية 104.

الأولى: الجلد الرقيق للإنسان حيث تنتهي فيه دقائق الأعصاب. ذلك لأن الجلد مرتبطٌ بالإحساس بالألم، وكلما يحترق الجلد وتحترق معه نهايات الأعصاب يُستبدل ذلك الجلد بجلدٍ آخر لإدامة ألم العذاب. قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)[420]. وقال تعالى: (كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ. نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ)[421].

الثانية: ما يستهلكه الإنسان من طعام طيب وشراب في الدنيا يتبدل للمعاقَبين في الآخرة إلى طعامٍ حارقٍ، وشرابٍ صديدٍ: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)[422].

ويتلخص عذاب الآخرة في النار بحرق الجلود وتبديلها لتحرق مرة أخرى، وشربهم ماء الصديد وماء الحميم فيقطع امعاءهم، وصب الحميم على رؤوسهم فيذيب جلودهم وبطونهم، وأكلهم من شجرة الزقوم، وربطهم

---

[420] سورة النساء: الآية 56.

[421] سورة المعارج: الآية 15- 16.

[422] سورة إبراهيم: الآية 15- 17.

بالأغلال، ونكس رؤوسهم أذلالاً لهم، وحشرهم على وجوههم، وسحبهم في النار. وكل ذلك ألمٌ يستشعره الإنسان العاصي.

أما عذاب الدنيا فيتلخص بالقتل، كما قال تعالى: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ...)[423]. فالألم الذي ينزله إنسانٌ بآخر في الدنيا – من هذه الزاوية – هو ما تسببه الآلة الحادة ضرباً أو طعناً.

وتلك كليات منطوق العقاب والعذاب في الآيات القرآنية الشريفة، والظاهر – والله أعلم – أن هدفها الإنذار والتحذير والترهيب فيما يتعلق بالآخرة، والأمر بالقتال فيما يتعلق بالدنيا. ولكن نفهم من منطوقها أن أصل العقوبة هو إنزال الألم بالمعاقَب.

ذكرنا آنفاً أنّ الالآم التي توجع الإنسان هي آلام نهايات الأعصاب المنتشرة تحت الجلد، ولذلك تركزت العقوبة الآلهية في الآخرة حول الجلد الخارجي للإنسان لأنه يستبطن أعصاباً تؤلمه.

أما في هذه الدنيا فإنّ أكثر الألم فيها هو ألم الجروح، وقطع نهايات الأعصاب، وهو الألم الناتج من ضربة السيف وطعنة الرمح ونحوها لأنها تمس الجلد. أما ألم الأنسجة الداخلية كالمرض، أو تمزق العضلات، فهي تأتي بالدرجة الثانية. ومكان الضربة أيضاً يحدد درجة الألم، فألم ضربة السيف على القلب أشد من ألم ضربة الساق، والضربة على الدماغ أشد من كليهما.

وبالإجمال فإنّ الألم تجربة مرة يمر بها الإنسان، ويتعلمها من الصغر، وهو إحساسٌ ناتج من أحد أربعة أفعال هي: إما تلف أنسجة

---

[423] سورة التوبة: الآية 14.

الجسم بفعل داخلي، أو بآلة حادّة قاطعة، أو إحساسٌ ناتج عن فقدان الحبيب، أو إحساسٌ ناتج عن الكآبة والأمراض النفسية ونحوها.

ب – بين الألم المادي والألم الروحي في القرآن الكريم:

ولاشك أن للروح سعادةٌ وشقاءٌ، وللجسد سعادةٌ وشقاءٌ أيضاً. وعندما يصيبُ الإنسانَ الألمُ فإنه إما أن يكون ألماً خاصاً بالجسد، وإما أن يكون ألماً خاصاً بالروح، أو ربما يكون ألماً بكليهما.

ينظر الإسلام إلى الإنسان بإعتباره جسداً متغيراً وروحاً ثابتةً لا تتغير. وسعادة الروح عند الإمام الحسين (ع) يوم عاشوراء كان الإستشهاد أو القتل في سبيل الله تعالى بالرغم مما أصاب الجسد من الآم وقروح. كان الحسين (ع) مطمئن القلب، لأنه (ع) كان ذاكراً الله تعالى، وقد قال سبحانه في كتابه المجيد: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[424].

والإطمئنان: هو السكون والإستقرار، والإطمئنان إلى أمرٍ هو السكون إليه والإستقرار عنده. والإيمان بالنسبة لإمامِ هدىً كالحسين (ع) هو قبولٌ وإرتقاءٌ بالنفس إلى ما يوجب تسليمها له تعالى، وما يقتضيه ذلك التسليم من قبولٍ بقضائه عزوجل، وسعادة عُظمى بالتفكير فيه، وإشغال الذهن في جزئياته. فمطاوعة النفس على القبول بالله تعالى هو مطاوعة لجميع جوارح الجسد لأمره تعالى.

---

[424] سورة الرعد: الآية 28.

وعندها تطغى لذة العقل بالتفكير بمولاه عزوجل على ألم الجراح الواقع على الجسد. وهكذا يفهم الأبرار قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[425].

وهذا لا يتنافى مع قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...)[426]. فالوجل المذكور في الآية هو الخوف من الأعمال السيئة التي يحاسب عليها الإنسان.

و" قد وصف الله المؤمن ها هنا بأنه يطمئن قلبه إلى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وَجِلَ قلبه. لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه وأنعامه وآلاءه التي لا تُحصى، وأياديه التي لا تُجازى فيسكن إليه، وبالثاني أنه يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويوجل قلبه"[427].

أما سعادة الجسد في الحياة الدنيا، فإن فيها راحة مؤقتة سرعان ما تنفذ وتنتهي، ولذلك أشار القرآن الكريم إلى تلك السعادة المجردة بالمتاع الزائل. قال تعالى: (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)[428]. ولذلك لم يكترث الحسين (ع) لسعادة الجسد، فتحمّلَ آثار الضربات التي وقعت عليه، غيرُ مكترثٍ لحجمها أو قوتها.

---

[425] سورة الرعد: الآية 28.

[426] سورة الأنفال: الآية 2.

[427] مجمع البيان ج 4 ص 427.

[428] سورة آل عمران: الآية 196- 197.

فالألم واللذة عند الإنسان تتقومان بالإدراك والشعور. والألم الذي لا يشعر به الإنسان لا يعدُّ شقاءً. وهكذا كان قلب الذي تعلق بالله عزوجل وخاض الطف في عاشوراء، فهو لم يرَ الحياة إلا ورأى معها ربه الجليل. فكانت سعادة روحه (ع) أعظم مما كان ينالُه جسُده من الضرب والطعن.

قضية العقل والجسد

هناك رابطٌ من نوعٍ ما بين العقل والجسد؟ فالعقل يقرر، والجسد يستجيب. وإذا أصاب الجسدَ مكروهٌ، يتألم العقل. فكيف يستوعب العقل الإنساني آلام الجسد وقراحاته؟ فيما يتعلق بموضوع البحث الذي نحن بصدده الآن، نعيد السؤال المهم: كيف تحمل الإمام الحسين (ع) تلك الضربات والطعنات في عاشوراء من سنة واحد وستين للهجرة، ولا زال يفكر بقوة عقلية متناسبة مع إمامته الكبرى؟ وهل يعتبر ذلك أمراً طبيعياً للإنسان العادي تحت قساوة العطش، والجهد البدني، وألم فقدان الأحبة من أبنائه وأخوته (ع)؟

وفي الجواب على ذلك لابد أن نقترب من بوابة إدراك الإمام المكثور (ع) لنرى كيف كان يتصرف في ذلك الموقف الإستثنائي الرهيب.

آليات إدراك المكثور (ع):

هناك آليات تكشف لنا طبيعة العقل في الأزمات التي يمرُّ بها الإنسان، نقارنها بما مرَّ به الإمام الحسين (ع) في الأوقات الأخيرة من يوم عاشوراء الدامي. ومنها:

1- الضمير الناطق: يرى الإنسان أحياناً أشياءً خارجية وأفعالاً، لكن لسانه يبقى صامتاً لا يتكلم، بينما يتحرك ضميره فيستنكر الأشياء أو الأفعال ويستقبحها في داخله، لكن الحسين (ع) كان ضميره متكلماً، ولم يصمت لسانه (ع) أبداً. لأن وظيفة الإمام الحق: الأمر، أو الإمضاء، أو الإستنكار، وهي بمجملها تمثل وظيفة التبليغ والهداية للإمام (ع). ووظيفةٌ كتلك لا ينفع معها الضمير الصامت. تكلم الحسين (ع) مع كل من قاتلَ من أصحابه وأهل بيته (ع)، ومع أعدائه أيضاً.

قال الحسين (ع) لأخته العقيلة زينب (ع): (يا أختاه أقسمتُ عليكَ بحقي إذا أنا قُتلت فلا تشقي عليَّ جيباً ولا تخمشي عليَّ وجهاً)[429].

وعندما قال له قيس بن الأشعث: أنزل على حكم الأمير ابن زياد، قال الحسين (ع): (والله لا أعطي بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار العبيد)[430]، ثم تلى قوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)[431].

وعندما حان وقت صلاة الظهر يوم عاشوراء، والمعركة قائمة، طلب الإمام (ع) أن يكفّوا عن قتاله (ع) حتى يؤدي الصلاة لكنهم رفضوا، فصلى صلاة الظهر بالإيماء والإشارة. وبعد أن فرغ من صلاته (ع)، قال: (إن هذه الجنّة قد فتحت أبوابها، وأتصلت أنهارها، وأينعت ثمارها، وزينت

---

[429] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 77.

[430] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 86.

[431] سورة غافر: الآية 27.

قصورها، وتؤلفت ولدانها وحورها، وهذا رسول الله (ص) والشهداء الذين قتلوا معه وأبي وأمي يتوقعون قدومكم عليهم، ويتباشرون بكم، وهم مشتاقون إليكم، فحاموا عن دينكم، وذبّوا عن حرم رسول الله (ص) وعن إمامكم وابن بنت نبيكم، فقد إمتحنكم الله تعالى بنا، فأنتم في جوار جدنا، والكرام علينا، وأهل مودتنا...)[432].

كلُّ ذلك يدل على إنّ ضميره (ع) كان ناطقاً بالحق، مرشداً إلى الخير، لا يرضى بالذل ولا الفجور. تكلم كفايةً، وأرشد كثيراً، ولكن القوم لم يستفيدوا من كلامه (ع). فجاء جيلٌ جديدٌ، وآخر، وثالث، يقدِّر تلك الكلمات الثمينة ويعظّمها.

والقاعدة الأصلية أن ضمير الإمام الثالث من أئمة أهل البيت (ع) كان ناطقاً في أصعب الحالات التي يمكن أن تمرّ على إنسانٍ ما، فكان يقوم بوظيفته في التوجيه والإرشاد. وكان لسانه العذب (ع) ينطق خيراً، ومعرفةً، وحقاً.

2- كمالية الوعي العقلي: الملفِت في قضية الإمام الحسين (ع) يوم عاشوراء أنه كان (ع) واعياً وعياً تاماً لكل أحداث اليوم الدموي. فلم يكن غائباً عن الوعي في أيةِ لحظةٍ من لحظاتِ ذلك اليوم، خصوصاً في اللحظات الأخيرة من حياته (ع). مع إن ألم الضربات، والظمأ، وفقدان الأحبة تُفقد الإنسان وعيه. فلا يعي عندها ما يقول، ويخبط خبط عشواء.

---

[432] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 105 – 106.

حيث يُقدَّر وعي الإنسان في الشدائد بمقدار إحساسه بالعطش والجوع، وإحساسه بالحزن والغضب، وإحساسه بالألم.

لكن الوعي التام للحسين (ع) في الساعات الأخيرة يدلّ على أنه تحمّل ألم العطش، والجوع، والحزن، والجراح بقلبٍ ثابتٍ لم يتزعزع بحب الله تعالى، والإيمان بقضائه. وفي ذلك شواهد، منها:

عندما استشهد أبو الفضل العباس، حمل الإمام (ع) على القوم فكشفهم عنه، ونزل إليه، وقال (ع): (جزاك الله من أخٍ خيراً، لقد جاهدتَ في اللهِ حق جهاده)[433].

وعندما استشهد إبنه علي الأكبر، وضعه في حجره، وقال: (يا ولدي أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وسرتَ إلى روحٍ وراحةٍ، وبقي أبوك وما أسرع لحوقه بك)[434].

وعندما رموا الطفل الرضيع وهو في حجره (ع) بسهم مسموم قاتل، جعل الحسين (ع) يتلقى الدم بكفيه ويرمي به إلى السماء، ويقول: (اللهم إني أشهدك على هؤلاء القوم فإنهم نذروا أن لا يتركوا أحداً من ذرية نبيك)[435].

---

[433] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 93.

[434] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 129.

[435] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 130.

3- التعامل بخطٍ متوازٍ مع الأعداء: من مظاهر قوة الإمام (ع) على الصعيد الفكري في اللحظات الأخيرة أنه كان يتعامل معهم بخطٍ متوازٍ، أي أنه عندما كانوا يحملون عليه كان (ع) يحمل عليهم ويفرّق جمعهم، وكان يخاطبهم بنفس البلاغة التي عهدناها منه صبيحة يوم عاشوراء وقبله، وكان (ع) يطلب الناصر، ويشكو خذلان الناس بنفس الطريقة التي عملها في الماضي القريب. وفي ذلك دلالة قوية على انه كان يتعامل معهم بخطٍ متوازٍ، أي أن قوته الفكرية كانت متقدة حتى آخر لحظة من لحظات حياته (ع).

فعندما برز جابر بن عروة الغفاري وكان شيخاً كبيراً من أصحاب رسول الله (ص) وقد شهد بدراً، فجعل يعصب حاجبيه ويرفعهما عن عينيه، والحسين (ع) ينظر إليه ويقول: (شكر الله سعيك يا شيخ)[436].

وعندما برز أحد أبناء أخيه الحسن (ع)، وله من العمر ستة عشر عاماً، قاتل الأعداء ثم رجع إلى الحسين (ع)، وقد غارت عيناه من شدة العطش فنادى: يا عماه هل من شربةِ ماءٍ أبردُ بها كبدي وأتقوى بها على أعداء الله ورسوله (ص)؟ فقال له الحسين (ع): (يا بن أخي أصبر قليلاً حتى تلقى جدك رسول الله (ص) فيسقيك شربةً من الماء لا تظمأ بعدها أبداً)[437].

---

[436] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 110.

[437] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 126.

لاحظ دقة التعبير التي نصّت على أن عيناه غارت من العطش، وقد كانت شدة العطش قد أصابت الحسين (ع) نفسه، ولكن ماذا كان جواب الحسين (ع)؟ كان جوابه (ع): أصبر قليلاً. ولم يقل له أنا عطشان مثلك، وشأني شأنك في ألم العطش ومرارته! وفي جوابه (ع) دلالة واضحة على تحمله (ع) ألم العطش، ولكن بالَهُ (ع) كان مشغولاً بالله أكثر من إنشغاله بالماء.

4- **نية التقرب إلى الله تعالى:** ولاشك أن أهم مظاهر القوة العقلية عند الإنسان هو ترجمة نيته القلبية إلى فعلٍ ملموسٍ. فالنية تُترجِم الأمرَ العقلي إلى عمل، وكانت نية الحسين (ع) الدفاع عن نفسه وأهله (ع) حتى بلوغ الشهادة، وقد ترجم تلك النية العقلية إلى فعل. ولو اقتربنا – إفتراضاً – من بوابة إدراك الإمام (ع) لرأينا أن نيته في التقرب إلى الله تعالى كانت أعظم من فعله الخارجي في قتالٍ أو مبارزةٍ. فقد كان يذكر الله تعالى في كل لحظة، وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه وأهل بيته (ع) وأصحابه الجنة، والقرب من رسول الله (ص)، والإرتواء من ماء الكوثر الذي سيسقيه جده (ص) للشهداء المؤمنين.

وكان (ع) يكثر من قوله: (... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[438] خصوصاً عندما قُتل آل عقيل، وأبناء الإمام الحسن (ع)، وأبنائه وأخوته (ع).

---

[438] سورة البقرة: الآية 156.

وكرر (ع) مرات قول: (اللهم إن كنتَ حبستَ عنا النصر في دار الدنيا، فاجعل ذلك لنا في الآخرة وانتقم لنا من القوم الظالمين)[439].

وعندما رماه أبو قدامة العامري بسهم، جعل (ع) ينزع السهم بيده ويتلقى الدم بكفيه، ويخضب به لحيته ويقول: (هكذا ألقى ربي وألقى جدي وأشكو إليه ما نزل بي)[440].

وطالما أوصل الحسين (ع) نيته إلى العالَم المحيط به، من أعداء وأولياء، وجنود وقواد، أراد أن يَصْل العالَم الخارجي إلى مراده (ع) في تلك الواقعة الفريدة. ولا يمكن الوصول إلى فهم مراده (ع) إلا باجتماع عقول المفكرين ونوابغهم لدراسة العلاقة الرابطة بين العقل وما فيه من نزوعٍ نحو خالقه بالتفكر والتأمل، وبين الجسد وحاجاته ومعاناته من الألم والظمأ والجوع.

ومن حسن التوفيق أننا، وبعد حوالي أربعة عشر قرناً من الزمان، نحاول الوصول إلى مراد الإمام (ع) وفهمه.

فلم يكن (ع) يتكلم ليخاطب المخاطَبين الموجودين على ساحة المعركة فحسب، بل أراد أن يوصل صوته إلى كل من بلغ سمعَهُ قصة سيد شباب أهل الجنّة (ع) في كربلاء يوم عاشوراء، وقصة مقتله الفظيع على يد بني أمية. وهؤلاء المخاطَبين من قبل الإمام الحسين (ع) هم أفرادٌ وجماعات يتجددون في كل زمان، ولا يُحصى عددهم إلى يوم الدين!

---

[439] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 125.

[440] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 141.

5- التضافر بين العقيدة السماوية والرغبة الشخصية: تدعو عقيدةُ الإسلام الإنسانَ المؤمن إلى محاربة الظالم والإستشهاد في سبيل الله، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[441]، (... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[442]. وكانت رغبة الحسين (ع) تسير على ذلك الخط، وهو مقارعة الظالم، والموت في سبيل الله كنتيجة من نتائج تلك المقارعة.

فعندما سارَ الإمام (ع) إلى مكة، وأتخذ الجادة العظمى، وفيها مخاطر القتل، أُشير عليه بإتخاذ الطريق الأقرع، وهو الطريق الفرعي الآمن، أجابهم بأبياتِ شعرٍ تدلل على عزمه السير نحو الموت الفاضل مع العزة والأباء، وهذا ما تريده عقيدته منه، وما تريده نفسه المطمئنة منه أيضاً، يقول (ع)[443]:

إذا المرءُ لا يحمي بنيه وعرضه　　　عترته كان اللئيم المسبّبا
ومن دون ما ينعى يزيد بنا غداً　　　نخوض بحارَ الموتِ شرقاً ومغرباً

ولما علم الحسين (ع) بمقتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة في الكوفة، قال (ع): (لا خير في الحياة بعد هؤلاء الفتية). فعُلِمَ أنه قد عزمِ على المسير، ثم قال بعد وصوله إلى منطقة صحراوية اسمها (زبالة): (أيها الناس إنما جمعتكم على أن العراق في قبضتي، وقد جاءني خبر

---

[441] سورة البقرة: الآية 190.
[442] سورة المائدة: الآية 45.
[443] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 25.

صحيح أن مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة قُتِلا، وقد خذلتنا شيعتنا، فمن كان منكم يصبر على ضرب السيوف، وطعن الرماح، وإلا فلينصرف من موضعه هذا فليس عليه من ذمامي شيء)[444].

وعندما وصل (ع) إلى كربلاء قال (ع): (أرضُ كربٍ وبلاءٍ. أنزلوا، ها هنا مناخُ ركابنا، ها هنا تُسفك دماؤنا، ها هنا والله تُهتكُ حريمنا، ها هنا والله تُقتل رجالنا، ها هنا والله تُذبح أطفالنا، ها هنا والله تُزار قبورنا، وبهذه التربة وعدني جدي رسول الله (ص)، ولا خَلَفَ لقوله (ص))[445].

وفي هذه الحالة، كان كل شيء يقع في موضعه الصحيح، فليس هناك صراع بين العقيدة التي آمن بها وبين رغبته الشخصية.

ولتوضيح ذلك نأخذ مثلاً لشخص يرغب في القتل في سبيل مبدأه، ولكن مبدأه لا يجيز له ذلك بل يحبب له البقاء في الدنيا حتى مع الذل والهوان. في هذه الحالة يبدأ الصراع العقلي بين أن يُقْدِم على العمل أو لا يقْدِمْ. هنا يعيش ذلك الإنسان صراعاً بين عقيدته التي آمن بها وبين رغبته الشخصية المغايرة!

مثلٌ آخر: الصراع العقلي بين شخص لا يرغب في القتل في سبيل الله، وبين مبدأه الذي يحثّه على التضحية والإستشهاد. في هذه الحالة يبدأ الصراع أيضاً بين الإسترخاء في الدنيا وبين القتل من أجل المبدأ.

---

[444] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 66.

[445] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 76.

فنحن نلمس في تلك الأمثلة صراعاً عقلياً بين عقيدة الإنسان ورغبته الشخصية في التضحية من عدمها. وذلك الصراع يجعل صورة التضحية إما ناقصة أو معدومة. بينما قدّم لنا الحسين (ع) نموذجاً آخر.

ذلك النموذج يلخّص المبدأ الإسلامي في الإنسجام العقلي، ومفاده إن الدين يحبب للإنسان التضحية والإيثار والموت من أجل المبدأ، وإن النفس المؤمنة تنسجم مع ذلك التوجه الديني. وإذا حصل ذلك الإنسجام العقلي صار شعار الإنسان: إنّ الموت بشرف وإباء أفضل من البقاء في الدنيا بذلّ وهوان.

هنا وضع الحسين (ع) العالَم الأرضي والتاريخ الدنيوي على صفحة الواقع، ولسان حاله يخاطب البشرية بشموخ: إن التضحية والفداء في سبيل الدين لا يتم إلا بالإنسجام العقلي بين العقيدة السماوية الداعية إلى التضحية وبين الرغبة الشخصية التي تدعو إلى الإيثار ونكران الذات. وإذا تم إقناع العقل بذلك أصبحت التضحية أيسر منالاً، وأقلَّ ألماً.

6- **المزاج العقلي:** ونقصد به الرغبة العقلية في أداء العمل. فالعمل العبادي أو الجهادي لا يؤدى إلا بإرادةٍ عقليةٍ، وحسٍ مرهفٍ. كانت جميع حواس الإمام الحسين (ع) في ذلك اليوم الدموي المروع فعّالة، بصره كان حاداً، بحيث لم يختبر خطأً في رؤية الأعداء أو المقاتلين من أصحابه وأهل بيته (ع). وكان سمعه (ع) حاداً يسمع إستغاثة القاسم بن الحسن وهو صبي، وبكاء عبد الله الرضيع، وإستغاثة علي الأكبر وهو يقاتل الأعداء. فلم يختلط عليه في ذلك اليوم الرهيب صوت طفلٍ مظلوم على

صوتِ عدوٍ ظالم. وكان صوته (ع) جهورياً بحيث كان يسمعه معسكر بني أمية وهم على بعدٍ منه.

عندما نظر الإمام (ع) يميناً وشمالاً فلم يرَ أحداً حوله من أصحابه وأنصاره إلا قتيلٍ وجديلٍ وطريحٍ وجريحٍ، نادى (ع): (أما من مغيثٍ يغيثنا، أما من مجيرٍ يجيرُنا، أما من ناصرٍ ينصرنا، أما من طالبٍ للجنة فيذبّ عنا، أما من خائفٍ من عذاب الله فيرحمنا، أما من معينٍ فيكشف الكربَ عنا، ثم أنشأ يقول[446]:

أنا ابن علي الطهر من آل هاشمٍ كفاني بهذا مفخراً حين أفخرُ
وفاطمةٌ أمي وجدي محمدٌ وعميَّ هو الطيّارُ في الخلدِ جعفرُ
بنا بيّنَ اللهُ الهدى عن ضلالةٍ ونحنُ سراجُ اللهِ في الأرضِ نزهرُ
ونحنُ ولاةُ الحوضِ نُسقي مُحبنَّا بكأسِ رسولِ اللهِ من ليسَ ينكرُ
وشيعتنا في الخلقِ أكرمُ شيعةٍ وباغضُنا يومَ القيامةِ يخسرُ
وطوبى لعبدٍ زارنا بعد موتنا بجنةِ عدنٍ صفوها لا يكدر

في تلك الأجواء كان الحسين (ع) قادراً على نقل ما يدور في ذهنه إلى العالَم المحيط به. وهذا يعكس رغبته العقلية في نقل المحتوى الفكري بقصدٍ ونيةٍ كما يُريدها هو، لا كما يُريدها الأعداء. بمعنى أنه كان يسيّر الأحداث بقوة عقله (ع)، لا أن تسيّره الأحداث بضخامتها. كلُّ كلامه (ع) مع جيش عبد الله بن زياد، أو مع أصحابه وأهله كان واضحاً، مملوءً بالثراء الروحي والفكري.

---

[446] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 117 – 118.

ونحن نعلم من خلال قراءة التأريخ أن الجنود والقادة في المعركة الدموية تتغير أفكارهم وأولوياتهم، ويتغير مزاجهم العقلي خصوصاً إذا كانت خسائر المعركة في القتل والتدمير فادحة. إلا الحسين (ع)، فقد كان ثابتاً وفي قمة الإدراك والوعي حتى النهاية.

وبعد مقتل القاسم بن الحسن (ع)، وهو صبي على أبواب بلوغ الحلم، قال (ع): (اللهمَّ إنك تعلم أنهم دعونا لينصرونا فخذلونا وأعانوا علينا أعداءنا. اللهم أحبس عنهم قطرَ السماءِ واحرمهم بركاتك. اللهمَّ فرقّهم شعباً، واجعلهم طرائقَ قدداً، ولا ترضَ عنهم أبداً. اللهمَّ إن كنتَ حبستَ عنّا النصرَ في دار الدنيا فاجعل ذلك لنا في الآخرة، وانتقم لنا من القوم الظالمين ... هذا يومٌ قلَّ ناصرهُ وكثُرَ واترُه)[447].

7- **الألم الجسدي والعقل:** يتمنى الإنسان إذا تألم أن يتوقف الألم، خصوصاً إذا كان الألمُ ناتجاً عن قطعٍ أو جرحٍ بآلة حادة كالسيف والرمح. فالألم هنا لا يمثّل مجرد اضطرابٍ لوظيفةٍ جسديةٍ أو إرباكاً لعضوٍ مصابٍ، بل يمثّل شعوراً جامحاً، ودافعاً قوياً بضرورة توقيف ذلك الألم. ولذلك فإن الطب الحديث يحاول إيقاف الألم بالمسكنّات حتى لو كانت تلك المسكنّات مضرّة بالجسم، بمقدار. لأن تحمّل الألم عملية شاقة على الإنسان. والشعور بالألم عموماً يوقف تفكير الإنسان إلى أن يتوقف الألم نفسه.

---

[447] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 125.

وهنا تكمن أحد معجزات الطف، وهي أن الألم الناتج عن ثلاث وثلاثون ضربة وأربع وثلاثون طعنة، والظمأ القاتل، وثقل حديد الحرب، والخوف على الأهل لم يثنهِ (ع) عن التفكير بالله عزوجل، لا بصمتٍ بل بطريقة ناطقة وثّقتها لنا صحائف التأريخ. ولم يغيّر الألم طريقة تفكير الإمام (ع)، لا بطلب الأمان منهم، ولا بوقف القتال أو نحوه. بل كل ما كان يفعله (ع) كان يمثّل إدانة لهم على طريقتهم الوحشية في التعامل مع آل محمد (ص).

وخيرُ ما نستدل به على ذلك دعاؤه الأخير: (اللهم متعالي المكانِ، عظيم الجبروتِ، شديد المحالِ، غنيٌّ عن الخلائقِ، عريضُ الكبرياءِ، قادرٌ على ما تشاءُ، قريبُ الرحمةِ ... أدعوكَ محتاجاً، وأرغبُ إليك فقيراً، وأفزعُ إليكَ خائفاً ... ونحنُ عترةُ نبيك وولدُ حبيبكَ محمدٍ بن عبدِ اللهِ، الذي اصطفيته بالرسالةِ وأئتمنته على وحيك، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً برحمتك يا أرحم الراحمين)[448].

8- العقل وتفسير الأحداث: وعندما حالوا بين الإمام (ع) وبين عياله، صاحَ بهم: (وَيحكُمْ يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دينٌ، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم. أنا الذي أقاتلكم وتقاتلونني، والنساء ليسَ عليهن جناحٌ، فامنعوا عتاتكم وجهّالكم عن التعرض لحرمي ما

---

[448] مصباح المتهجد ص 827.

دمتُ حيّاً)[449]. وكانت تلك ضمن اللحظات الأخيرة في حياته (ع)، فقد كان واعياً وعياً تاماً لمجرى الأحداث، كما أشرنا أكثر من مرة.

ولما وقع الحسين (ع) على الأرض ملطخاً بدمه، وبقي على تلك الحال فترة، كان (ع) يردد: (صبراً على قضائكَ، لا إله سواك يا غياث المستغيثين)[450].

وعندما أراد الشمر الضبّابي أن يذبحه (ع)، بعد أن جثم على صدره، وأمسك برقبته، قال (ع) له: (من أنت ويلك فلقد ارتقيتَ مرتقى صعباً طالما قبّله النبي (ص)...)[451].

تلك الشواهد تثبت أن الإمام (ع) في لحظاته الأخيرة كان قادراً على تفسير الأحداث تفسيراً واقعياً، وهذا لا يتم إلا بقوة عقلية عظيمة هي أقرب إلى الإعجاز، مع ملاحظة حقيقة وهي أن ظرف الحسين (ع) كان ظرفاً صعباً قاسياً إلى أبعد الحدود.

وإذا كان للعقل الإنساني قابلية على تفسير الواقع الخارجي تفسيراً صحيحاً، فإنما يدلّ ذلك على القوة العقلية وعلى عدم تغيرها بفعل المؤثرات الخارجية القاسية كالظمأ، ومقتل الأبناء والأخوة والأصحاب، وتعرض العيال للأسر والذل. والتفسير الصحيح يدلُّ على أن العقل المفسِّر كان

---

[449] بحار الأنوار ج 45 ص 51.

[450] مقتل الحسين – خ. ص 142.

[451] المصدر السابق ص 144.

واعياً لحجم الأحداث، وهيئتها، وحركتها، وعددها، وكثافتها. والتركيب المنطقي لتلك الصفات هو الذي يحدد قوة العقل في تلك الظروف.

لقد كانت قوة الحسين (ع) العقلية في اللحظات الأخيرة من عاشوراء خارقة للعادة. ولا أخال أنساناً في التاريخ قد تحمّل ما تحمّله الإمام (ع) وبقي إدراكه في قمة القوة والنشاط، وإلى ذلك أشار أحد أعدائه: "فوالله ما رأيت مكثوراً قط قد قُتِلَ وُلدُه، وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، و لا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه، والله ما رأيتُ قبله ولا بعده مثله..."[452].

الإستنتاج:

نستنتج أنّ العلاقة بين العقل بما فيه من إدراك وتفكير وإتخاذ قرار، وبين الجسد بما فيه من قدرة على التنفيذ وطاقة على التحمل علاقة حقيقية حتى لو أنكرها البعض من فلاسفة التاريخ. فالعقل يأمر الذراع بالحركة بصورة تتناسب مع نية الإنسان في فعل ما. والعقل يحس بالألم عندما يُصيب الذراع مكروه من نوع ما. تلك العلاقة الثنائية بين العقل والجسد طرحت ذلك السؤال المهم: كيف استطاعت قوة الإدراك عند الإمام الحسين (ع) تحمل تلك الضربات العنيفة على جسده (ع) دون أن يصرخ بكلمة آه من الألم؟ وإذا كانت العلاقة بين العقل والجسد متناسبة، أي كلما أصاب الجسد مكروه أشدّ أحسّ به العقل بقوة أعظم، كيف إستطاع الإمام

---

[452] تاريخ الطبري ج 4 ص 345.

الحسين (ع) أن يتجاوز ذلك التناسب بين الجسد الذي أصابه القرح وبين العقل المتقد؟

والجواب أن قوة الإيمان عند الإمام الحق (ع) وإرتباطه الشديد بالله تعالى، وذوبان تفكيره في ربه العظيم حطّم ذلك التناسب الطبيعي بين العقل والجسد. فأصبح التفكير العقلي الذائب في الله تعالى يفترق رويداً عن الجسد المتألم.

تزعزت الثنائية الفلسفية[453] في تفسير تلك الظاهرة عند الإمام الحسين (ع) في اللحظات الأخيرة من حياته. فقد بقي فكره يردد ذكر الله تعالى دون إراءة ظاهرية لحجم المعاناة التي كان يمر بها، ولذلك قال القائل من أعدائه: "شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله"[454]. والعادة أن المتألم يميل وجهه إلى الإصفرار والذبول. ولكن كان نور وجهه (ع) يعكس مقدار إرتباطه بالله عزوجل، وكان نور وجهه (ع) يعكس ذوبانه في عالم الملكوت الأعلى الذي هو على أبواب دخول عالمه الرحيب.

---

[453] تفترض فلسفة العقل أن الظواهر العقلية غير مرتبطة بالجسد المادي، وهذه تسمى بالثنائية الفلسفية أو (ديولزم). والثنائية التي قال بها ديكارت نفت أي إتصال بين العقل الذي جوهره التفكير، وبين الجسد الذي جوهره الإمتداد. ولكن المؤاخذات على تلك النظرية الفلسفية أنها فشلت في تفسير إحساس العقل بالألم عندما يقول (آه) إذا تعرض الجسد لمكروه كالضربة أو الطعنة!

[454] مقتل الإمام الحسين (ع) – المقرم ص 282.

الفصل السادس

قضية الماء
في السياسة الأموية ضد الحسين (ع)

الماء في القرآن الكريم والسنّة النبوية. الماء في الإمتحانات السماوية. الماء في فكر بني أمية. حرمة منع الماء في المذاهب الأربعة. الإمام الحسين (ع) وتحمل أعباء العطش. الإستنتاج العام.

كيف بررت الوسيلة الإعلامية الأموية قطع الماء عن الإمام الحسين (ع)، وعياله (ع)، وأصحابه محاوِلةً قتلهم عطشاً دون رحمة؟ وكيف تقبلت الشريحة الكبرى من المسلمين آنذاك ولحد اليوم شرعية قطع الماء عن حفيد رسول الله (ص) وحبيبه؟ من أجل الجواب على ذلك لابد أن ندرس: الماء في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، والماءُ في فكر بني أمية، ورأي المذاهب الأربعة في قضية الماء، وتحمّل الإمام الحسين (ع) أعباء العطش الشديد.

الماء في القرآن الكريم والسنّة النبوية

قال تعالى: (... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...)[455]. أكتشف علماء الطبيعة أن الماء هو المكون الرئيسي في تركيب الخلية الصغيرة، بل هو وحدة بنائها، ووسطاً لتفاعلاتها الحيوية، حيوانية كانت الخلية أو نباتية. وهذا هو مصداق إرادته تعالى بجعل الماء مصدراً لكل شيءٍ حيٍّ.

فالماء يعدُّ من أعظم نعم الله تعالى على المخلوقات، فبالماء حياةُ كلّ مخلوق، كما قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[456]. وارتباطُ الماءِ بالوجود والحياة، جَعَلَه قوامُ نشاط الكائنات بما فيها من إنسان وحيوان ونبات.

---

[455] سورة الأنبياء: الآية 30.

[456] سورة الأنبياء: الآية 30.

وقد ورد ذكر الماء في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة. فهو مظهر القدرة الآلهية على العباد، وقد قال عز من قائل: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)[457].

وطالما خلق الله تعالى الماء، وجعله مادة أساسية لكل حيٍّ، شرّعَ قوانين لتنظيم توزيعه، وحدد طبيعة وضع اليد عليه. فقد جعلَ الإسلامُ الناسَ شركاء فيه، وشجعهم على إرواء الآخرين بالماء العذب، فعن سعد بن عبادة قال: قلتُ يا رسول الله أيُّ الصدقة أفضل؟ قال (ص): (سقيُ الماءِ)[458].

وعلى ضوء ما قدمناه، قال الفقهاء بحرمة منع الماء عن الناس لأن فيه أصلُ وجودهم، وشريان حياتهم. أستندوا في ذلك على ما ورد عنه (ص) من روايات. ومن ذلك ورد عنه (ص) قوله: (لا يُمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ، ومن منع كان آثماً يوم القيامة)[459]، و(ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ: رجلٌ كان له فضلُ ماءٍ بالطريق فمنعه من ابن السبيل ....)[460]، و(من سقى مسلماً شربةً من ماء

---

[457] سورة النمل: الآية 60.

[458] سنن ابن ماجة ج 2 ص 1214.

[459] فتح الباري شرح صحيح البخاري ج 5 ص 31.

[460] فتح الباري ج 5 ص 31.

حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى مسلماً شربةً من ماء حيث لا يوجد ماء فكأنما أحياها)[461].

وانسجاماً مع كون الماء أصلٌ في حياة الإنسان، فإن ملكية الماء في الطبيعة ملكيةٌ عامةٌ مُشاعةٌ، أي أن الماء الجاري مباحٌ لجميع الناس للشرب بالخصوص. والدليل على ذلك قول رسول الله (ص): (المسلمون شركاء في ثلاثٍ: الماءُ، والكلأُ، والنارُ)[462]. خصوصاً الماء الجاري كالأنهار والغدران ونحوهما، فهي عامة للناس، والناس أحرارٌ في الشرب والسقي منها. ولا يجوز حرمانهم من الماء أبداً. تلك هي تعليمات الإسلام.

وربما تحمّلَ الإنسانُ الجوعَ لأيام، لكنه لا يستطيع تحمّل العطش، لأن العطش يؤدي لا محالة إلى هلاك النفس. فالعطش الشديد يؤدي إلى تعطيل وظيفة الدماغ، وإلى تيبس العضلات، وعندها تتعطل الحركة العقلية والجسدية للإنسان!

إضافةً إلى ذلك، فطالما كان الإنسان بحاجةٍ يوميةٍ مستمرةٍ إلى الماء، لأن الماء ينظّف الأعضاء الداخلية للجسم من الأملاح الزائدة، فإن أي توقف عن شرب الماء وما يتبعه من عطش، يؤدي بالكِلْية التي تصفي الدم وتلفظ الشوائب والفضلات إلى خارج الجسم إلى العطل، وعندها

---

[461] جامع الأحاديث – السيوطي ج 12 ص 296. وقد ضعّفت المذاهب الأربعة هذا الحديث لوجود زهير بن مرزوق في السند وهو مجهول. وتضعيف المجهول من الرجال قضية إجتهادية لا يأخذ بها جميع الفقهاء.

[462] سنن ابن ماجة ج 2 ص 826.

تُصيب الإنسان الظمآن حالةٌ من حالات الإغماء، وعدم الوعي حتى الموت.

الماء في الإمتحانات السماوية:

كان الماءُ محوراً في بعض معجزات الرسالات السماوية، كما في رسالة خاتم الأنبياء محمد (ص)، والنبي موسى (ع)، والنبي طالوت (ع)، والإمام الحسين (ع):

1- معجزة خاتم الأنبياء محمد (ص): وبالإضافة إلى معجزة الإسلام الأبدية: القرآن الكريم، كان لرسول الله محمد (ص) معجزات وقتية في زمانه دلّت على صدق نبوته (ص)، ومن ذلك نبع الماء من بين أصابعه، فقد روي عن أنس أن النبي (ص) أُتي "بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم..."[463]. كان عدد المسلمين أنذاك حوالي مائة وخمسين شخصاً توضأوا منه وشربوا. وتلك معجزة وقتية من معجزات النبي (ص)، كان هدفها المخاطَبون في ذلك الزمان، ومن بعدهم من المؤمنين برسول الله (ص).

2- معجزة النبي موسى (ع): وقعت معجزة النبي موسى (ع) عندما انفجر الماء من حجرٍ بعد أن ضربه (ع) بالعصا بأمر الله تعالى، وتلك

---

[463] صحيح البخاري ج 2 ص 521.

دلالة على صدق نبوته أيضاً. قال تعالى: (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)[464].

و"الإنعام بالماء في التيه أعظم من الإنعام بالماء المعتاد؛ لأن الإنسان إذا اشتدت حاجته إلى الماء في المفازة[465]، وقد انسدت عليه أبواب الرجاء لكونه في مكان لا ماء فيه ولا نبات، فإذا رزقه الله الماء من حجرٍ ضُرِبَ بالعصا فانشق، واستقى منه، عَلِمَ أن هذه النعمة لا يكاد يعدلها شيء من النعم، وأما كونه من نعم الدين، فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه، ومن أصدق الدلائل على صدق موسى (ع)"[466].

فقد كانت معجزة موسى (ع) في خروج الماء من الحجر مشابهة لمعجزة رسول الله (ص) في نبع الماء بين يديه (ص)، ففي كلا الحالتين خرج الماء بشكل غير طبيعي، تحدى فيه النواميس الطبيعية، وتلك هي المعجزة. والقاسم المشترك بينهما هو الماء الذي خلقه الله تعالى للناس جوهراً للحياة المادية، وعاملاً حيوياً في نشاطها.

---

[464] سورة البقرة: الآية 60.

[465] المفازةُ: الصحراء أو الأرض المقفرة.

[466] التفسير الكبير ج 3 ص 88.

3- إمتحان جيش طالوت (ع): امتحن الله تعالى جيش طالوت، بعدم الشرب من ماءِ نهرٍ قبل قتالهم الطاغية جالوت. يقول تعالى: (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[467].

نقل الثقة أبو بصير عن الإمام الصادق (ع) في تفسيره الآية: (... قال الله: إنّ الله مبتليكم بنهرٍ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني، فشربوا إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، منهم من اغترف، ومنهم من لم يشرب. فلما برزوا لجالوت قال الذين اغترفوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وقال الذين لم يغترفوا: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)[468].

ففي الحديث دلالة على إن الذين شربوا من ماء ذلك النهر لم يقدروا على القتال، وبضمنهم الذين اغترفوا. أما الذين لم يشربوا من النهر إطلاقاً، قالوا: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

في تلك القصة خطوط متوازية مع قصة الطف. وهي: إن الخاتمة الحسنة هي للقلّة المؤمنة التي وعدها الله تعالى بالنصر النهائي على

---

[467] سورة البقرة: الآية 249.

[468] الكافي ج 8 ص 316.

معاناتها الشديدة في العطش مع توفر الماء قريباً منها. فقد استجاب الله تعالى دعاء تلك القلّة المؤمنة حينما قالت: (... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[469].

والظاهر إن جنود النبي طالوت (ع) كانوا على ثلاثة أقسام: الأول: من شرب من النهر. والثاني: من اغترف غرفةً بيده. والثالث: من لم يشرب أصلاً إمتثالاً لأمر الله تعالى[470]. والقسم الثالث هو الذي قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. فنصرهم الله تعالى بتلك الفئة القليلة المؤمنة التي قاتلت، وهي صابرة مع عدم شرب الماء.

4- إمتحان الإمام الحسين (ع) بالماء: كان من حكمة الله تعالى أن يستشهد الإمام الحسين (ع) على ظمأٍ شديدٍ هو وأهل بيته (ع) وأصحابه من الشهداء الأبرار بعد أن قاتلوا عدوهم بأفضل ما يكون القتال. ومع ذلك فإن العطش الشديد لم يمنعهم من الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم.

ولو أخذنا قصة جنود طالوت (ع) في المعيار وحللناها، لاستنتجنا بأن الله تعالى قد امتحن أبطال الطف بعدم شرب الماء القريب منهم، لكنهم قاتلوا قتال الأبطال حتى استشهدوا جميعاً، ولسان حالهم يقول: (... كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[471]، وقالوا كما

---

[469] سورة البقرة: الآية 250.

[470] الميزان في تفسير القرآن ج 2 ص 292.

[471] سورة البقرة: الآية 249.

قال جنود طالوت (ع) من القلّة المؤمنة: (... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)[472].

الماءُ في فكر بني أمية

لم تكن سياسة بني أمية من منع الماء عن معسكر الحسين (ع) وقتله عطشاً سياسة جديدة، بل أُستخدمت نفس السياسة في معركة صفين، عندما منع معاوية الماء عن جيش الإمام أمير المؤمنين (ع) حتى فتحها الحسن والحسين (ع)، ثم سمحا لجنود معاوية بشرب الماء[473]. لأن الإسلام شرّعَ إباحة الماء لجميع المخلوقات، حيث يشربه الجميع.

ولكن السياسة الأموية في حرمان الإنسان من الماء الزلال مرت بمراحل، منها:

1- تزوير حقائق معركة بدر بالزعم بحرمان النبي (ص) المشركين من آبارها ومياهها، ولصق ذلك العمل بسنّة النبي (ص). فتم إعطاؤها صبغة شرعية، وسنّة نبوية مفتعلة!

2- تطبيق منع الماء عن العدو في معركة صفين، ومعركة الطف في كربلاء.

---

[472] سورة البقرة: الآية 250.

[473] الفتوح 3 ص 2.

الماء في معركة بدر:

سار المسلمون بزعامة رسول الله (ص) إلى الإقتصاص من قريش لظلمهم من أسلم في مكة، حيث سُلِبتْ أملاكهم، وقُطِعتْ أرحامهم، وكانت تلك من باب المقدمة. أما النتيجة فإنّ معركة بدر الكبرى كانت محطةً لإنطلاق الإسلام إلى عالمٍ أوسعٍ. فعندما نزلوا بالقرب من بدر، كانت الأجواء الجغرافية والنفسية غير ملائمة للمسلمين، إلا إن الله تعالى غيّرَ الأجواء المحيطة بالمعركة، فأنزل الماء على المسلمين، وثبت قلوبهم. يقول تعالى عن تلك المعركة: (... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)[474]. فقد كان الإمداد الآلهي في بدر واضحاً، حيث كان عدد المسلمين آنذاك ثلث عدد المشركين، وقوتهم عُشر قوة المشركين. إلا إن الله تعالى نصرَ المسلمين بوسائل، أهمها: إنزال الماء من السماء مطراً، حيث كانت أحدى وسائل تثبيت المؤمنين من حيث سقيهم وإروائهم بالماء الزلال، وإغتسالهم به تطهيراً لهم من النجاسات، وتثبيت الأرض التي مشوا عليها بعد أن كانت رملاً تغطس فيها أقدامهم.

تفصيلاً: كان المطر نعمة الله العظمى على المسلمين في بدر، كما أشار تعالى: (... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...) [475]، ففي الخبر "إنّ القوم [المشركين] سبقوا المسلمين إلى موضع الماء، واستولوا عليه،

---

[474] سورة الأنفال: الآية 11.

[475] سورة الأنفال: الآية 11.

وطمعوا لهذا السبب أن تكون لهم الغلبة. وعطشَ المؤمنون وخافوا، وأعوزهم الماء للشرب والطهارة، وأكثرهم احتلموا وأجنبوا ... وكان ذلك الموضع رملاً تغوص فيه الأرجل، ويرتفع منه الغبار الكثير، وكان الخوف [مستملِكاً] قلوبهم، بسبب كثرة العدو، وسبب كثرة آلاتهم وأدواتهم، فلما أنزل الله تعالى ذلك المطر صار ذلك دليلاً على حصول النصرة والظفر، وعظمت النعمة به من جهات:

أحدها: زوال العطش، فقد روي أنهم حفروا موضعاً في الرمل، فصار كالحوض الكبير، واجتمع فيه الماء حتى شربوا منه وتطهروا وتزودوا. وثانيها: أنهم اغتسلوا من ذلك الماء، وزالت الجنابة عنهم، وقد عَلِمَ بالعادة أن المؤمنَ يكادُ يستقذرُ نفسه إذا كان جُنباً، ويغتمّ إذا لم يتمكن من الإغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب، فلا جرم عند الله تعالى تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه "[476].

إذن، فالماء نعمة آلهية أنزلها الله تعالى على المسلمين في وقتٍ كانوا في أمسّ الحاجة إليه، لأنهم أرادوا الإرتواء من الماء، وأرادوا العبادة فتطهروا به، وأرادوا أن يمشوا بسرعة في أرض رملية تغوص فيها الأقدام، فجاء المطر ليجعلها أقرب إلى الأرض الطينية الصلبة. فلم يكن أحدٌ

---

[476] التفسير الكبير ج 15 ص 107 – 108.

من المسلمين قرب آبار بدر. ولذلك كان المطر نعمة عظمى من الله تعالى عليهم.

هذا هو الواقع الذي ذكره القرآن الكريم، لكن كانت هناك رغبات أخرى من البعض أرادت تغيير صورة هذا الواقع، عبر افتعال روايات تصرح بأن آبار بدر وقعت بأيدي المسلمين أولاً، فمنعوا المشركين من الماء أملاً في أن يموت أولئك عطشاً!

مناقشة من زعم بأن المسلمين حرموا المشركين من مياه آبار بدر: كانت لدى بني أمية فكرة تراودهم منذ أمدٍ بعيدٍ، وهي استخدام الماء كوسيلة من وسائل الحرب، وخُدعةٌ يُراد منها تركيع العدو. وقد استخدموها في معارك صفين، والطف. لكنهم أرادوا غطاءً شرعياً مزعوماً لفكرتهم، فكانت فكرة ابتداع منع النبي (ص) المشركين من آبار بدر ومياهها!

فلم يكن الزعم بأن النبي (ص) قد حرم قريشاً من آبار بدر قبل معركتها إلا وسيلةً لتبرير صحة فعل بني أمية بمنع الماء عن الإمام الحسين (ع) وأهله وأصحابه. وزعمهم: إذا صحت سنّة النبي (ص) وكانت خدعة حرب، فلمّ لا تصح مع الحسين وهي خدعة حرب أيضاً؟

لكن النبي (ص) كان أرحم من أن يمنع ماءً عن أحد، وهو الموصوف من قبل الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[477]، وهو

---

[477] سورة الأنبياء: الآية 107.

القائل بعد انتصاره (ص) عليهم في فتح مكة: (اذهبوا فانتم الطلقاء)[478]. وهو (ص) لا يخشى هؤلاء حتى يمنعهم الماء، وهو المسدد المنصور من قبل الله تعالى. والرواية الزاعمة بأن النبي (ص) استولى على آبار بدر، ومنعَ المشركين من شرب الماء مخدوشة من جهتين. الأولى: أنها تعارض القرآن الكريم، والثانية: أن هناك رواية معارضة لها تماماً.

فرواية منع الماء عن المشركين في بدر غير صحيحة، ذلك أن المسلمين لم يكونوا قرب آبار بدر، بل كان المشركون قرب الآبار، وكان المسلمون في الصحراء. فأرسل الله تعالى على المسلمين المطر، كما قال تعالى: (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)[479]، فكيف يمنّ الله تعالى عليهم بإنزال المطر وأيديهم على آبار بدر؟ إذن لم يكونوا قرب آبار بدر حتى يمنعوا المشركين عن الماء. وقد ورد عن ابن الأثير (ت 630 هـ) ان المشركين قد وردوا الحوض[480]، فأمر النبي (ص) بعدم اعتراضهم"[481]. وهذه الرواية تعارض ما زُعم من حرمان النبي (ص) قريش من آبار بدر!

[478] النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الأثير ص 567.

[479] سورة الأنفال: الآية 11.

[480] الحوض: الماء المتجمع من المطر.

[481] الكامل في التاريخ ج 2 ص 122.

ولو قرأنا في كتاب واحد وهو (تفسير ابن كثير) وفي صفحة واحدة: مقطعين يخصان معركة بدر لفهمنا مقداراً من خفايا تخطيط بني أمية لواقعة الطف:

الأول: يذكر الحقيقة القرآنية، وهي أن المسلمين لم يكونوا قرب آبار بدر، بل سيطر المشركون على تلك الآبار، ومنعوا المسلمين من الإستفادة من مياهها، تماماً كما حصل في واقعة الطف بعدما يقرب من ستين عاماً، عندما منعوا أهل البيت (ع) من الوصول إلى نهر الفرات.
الثاني: الرواية المزورة التي زعمت بأن قطع الماء عن المشركين كان من قبل النبي (ص)، وكان جزءً من الخدعة المشروعة في الحرب. وفي ذلك تفصيل:

المقطع الأول: في (تفسير ابن كثير) تفسير الآية 11 من سورة الانفال: "قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي (ص) حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة[482]، وأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تُصلُّونَ مجنبين! فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وانشف الرمل حين أصابه المطر، ومشى

482 رملةٌ دعصةٌ: تلٌ من الرمل مجتمعٌ ومستدير.

الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمدّ الله نبيه (ص) والمؤمنين بألفٍ من الملائكة ..."[483].

فهذه الرواية تصرح بشكل لا يقبل الشك بأن المسلمين، وفي أول تباشير معركة حاسمة لهم، قد ضعِفوا عندما رأوا المشركين قد سيطروا على آبار بدر، بحيث منعوا المسلمين من الإقتراب منها. فأنزل الله تعالى المطر على أولئك المسلمين للشرب، والطهارة، وتقوية الأرض التي كانوا يمشون عليها. وثمة رواية ثانية تؤيد هذا التسلسل من الأحداث، وهي:

و"كذا قال العوفي عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلّون مجنبين محدثين، حتى تعاظموا ذلك اليوم في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملئوا الأسقية، وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدت، وثبتت عليها الأقدام"[484].

المقطع الثاني: وهو المقطع المخالِف، وهو الموجود على نفس الصفحة في تفسير ابن كثير (ت 774 هـ) يقول: " والمعروف أن رسول الله (ص)

---

[483] تفسير القرآن العظيم – ابن كثير ج 4 ص 23.

[484] المصدر السابق ج 4 ص 23.

لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أي: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر، فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: بل منزل نزلته للحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض، فيكون لنا ماء وليس لهم ماء! فسار رسول الله (ص)، وجبرئيل جالس عند رسول الله (ص)، فقال ذلك المَلَك: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر، فالتفت رسول الله (ص) إلى جبرئيل (ع)، فقال: هل تعرف هذا ؟ فنظر إليه، فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه مَلَك وليس بشيطان"[485]!

تحليل المقطع الخطير:

لابد من تحليل المقطع الثاني تحليلاً مُسهباً حتى نستطيع فهم سياسة تزوير الحقائق القرآنية، وما تعلق منها بواقعة الطف، وفي ذلك نقاط:

1- يبدأ ابن كثير (ت 774 هـ) كلامه في المقطع الثاني بقوله: والمعروف أن رسول الله (ص)... ، فكيف يكون المعروف أو المشهور مخالفٌ لكلام

[485] تفسير القرآن العظيم ج 4 ص 23.

الله عزوجل الوارد في الآية 11 من سورة الأنفال، التي ورد فيه إنزال المطر على المسلمين في بدر؟!

2- لاحظ منطق الحباب بن المنذر[486] أو ما نُسب إليه، كيف كان يخاطب رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى، فيسأله سؤالاً هو أقرب إلى الإستنكار منه إلى الإستفهام! يسأله هل أن العسكرة في ذلك المكان كان برأيه (ص) أو من عند الله تعالى؟ وأقلّ ما يقال في ذلك أنه لم يفهم بعد أن رسول الله (ص) لا يتصرف برأيه في مسألة عظمى تمس الدين كمعركة بدر، بل هو مأمورٌ فيما يفعله، وتلك هي سنّة النبي (ص): قوله أو فعله أو تقريره، وفي كل حالة منها هي قانون لنا، وهي شريعة سماوية يتبعها (ص) وينفذها بكل صدق، وقد ذكر تعالى في كتابه المجيد: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)[487].

وربما يتخذ النقاش طريق: الحكم والموضوع، أي إن النبي (ص) هو أعلم بالحكم الشرعي، لكنه ليس خبيراً بالموضوع، وهو موضوع الماء في بدر! وهذا لا يستقيم في النبوة، لأن النبي (ص) هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فكيف يأخذ (ص) المسلمين إلى حربٍ دفاعية أو إبتدائية،

---

[486] الحباب بن المنذر هو الذي أشار على المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة قائلاً: منا أمير ومنكم أمير، ولم يأخذوا بقوله (الطبقات الكبرى ج 3 ص 567).

[487] سورة الحاقة: الآية 44-46.

وهو لا يعلم بمواضع الحرب؟! فالمصلحة من وجود النبي (ص) هو النظر إلى مصلحة المسلمين، بالإضافة إلى هدايتهم.

فالنبي (ص) كان يعلم بمواضع الحرب، وهو الذي دعى الله عزوجل لنصرته فأمدّه تعالى بألفٍ من الملائكة مسومين. وهذا غير المشاورة التي ورد فيها، حول معركة أُحد: (... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)[488]، فأصول المشاورة أن تتم قبل الشروع في العمل، لا بعده كما في الرواية المزعومة!

3- ورد في المقطع الثاني أن الحباب بن المنذر أشارَ على رسول الله (ص) بأن يذهبوا إلى مكانٍ فيه ماء وليس للمشركين ماء، ثم زعمت الرواية بأن رسول الله (ص) إتبعه، وهذا تقليلٌ من شأنِ رسول الله (ص)، وكأنه (ص) لم يكن عارفاً بالأمور الخارجية لرسالته! يتبعهم في كل أمر أو هكذا كانوا يصورون الأحداث! وكأن الأمر لم ينبع عن رسالة سماوية، فيصوروا الأمر وكأنه قضية خدعة حربية سياسية، وثقافة عشائرية بدوية لم يكن لرسول الله (ص) علمٌ بها!!

وهو (ص) الذي قاد حروب الإسلام الأولى، فحطّم كيان الكفر والأوثان بذلك التسديد الآلهي العظيم. وكلُّ ما ذُكِر في هذا الشأن من أن رسول الله (ص) كان يقول لهم أنكم أعلمُ بأمور دنياكم، يدخل في هذا الإطار. وحاشا للنبي (ص) أن يكون عالِماً بالحكم وعلى غير دراية

---

[488] سورة آل عمران: الآية 159.

بالموضوع. أو ليست أحكام الدين مرتبطة بمواضيع الحياة؟ وإذا كانت الحياة هي موضوع الحكم الشرعي، والدين هو الحكم الشرعي، أفلا يُفترض علم النبي (ص) بالموضوع كي يستطيع تطبيق الحكم الشرعي عليه؟!

4- تزعم الرواية أنه وبمحضر جبرئيل (ع) مع رسول الله (ص) يوحى إليه، يأتيه ملكٌ آخرٌ ويُشير عليه أن الرأي هو ما أشار به الحباب بن المنذر. وكأن الملائكة لا ترتبط بأوامر موحدة من الله عزوجل؟! وأن الحباب هو صاحب الرأي والفصل الذي أمضته السماء!!

5- ومن السخرية أن تذكر تلك الرواية المكذوبة على رسول الله (ص) استفساره (ص) من جبرئيل (ع) بمعرفة ذلك المَلَك؟ فيجيبه (ع) أنه لا يعرف جميع الملائكة، وكأن الرواية توحي بتقاطعٍ خطير في المهمات السماوية. ملَكٌ يأتي والآخر يذهب، والأول لا يعرف بمهمات الثاني! وذلك من مورد سقوطها كرواية مكذوبة أُريد منها تبرير فعل منع الماء عن المقاتلين من الطرف الآخر.

وأخالُ أن تلك الرواية المكذوبة على النبي (ص) قد وُضِعت في وقتٍ لاحقٍ من معركة بدر، أي في عهد بني أمية ليبينوا للناس أن منع الماء عن الإمام الحسين (ع) في كربلاء قضية شرعية تبررها مكيدة الحرب!

6- لابد في مناقشة هذه القضية من النظر إلى (تفسير القرآن العظيم) المعروف باسم (تفسير ابن كثير) أيضاً، ومصنفه ابن كثير إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ) الشافعي. ومنهجه في التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن، فإن أعياه ذلك يرجع إلى السنّة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. وكان يتحرج من ذكر الإسرائيليات في التفسير، ويقول إذا ذكرتها فإنما أذكرها: " للإستشهاد لا للإعتضاد"[489].

ولا أرى تبريراً لذكر تلك الرواية المبتورة المتناقضة مع نص القرآن الكريم في بدر إلا ميولاً لآراء بني أمية، يؤيده ما رواه عن الإمام الحسن بن علي (ع) عندما هادن معاوية، وهو ما يقدح بإمامة الحسن (ع) ونشيح عن ذكره[490] كرامةً بحفيد رسول الله (ص)، وما ذكره من إن (الكوثر) نهر في الجنة[491]، بينما كان منهج تفسير القرآن بالقرآن الذي قال ابن كثير أنه يسير عليه، يدلُّ على أن المقصود بالكوثر هو ذرية رسول الله بدليل سياق قوله تعالى: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)[492].

حرمة منع الماء في المذاهب الأربعة:

ومع إن بني أمية قد حاولوا جعل قطع الماء عن المحارِب المقاتِل لهم سنّة نبوية بتزوير وقائع معركة بدر وآبارها، وتطبيق تلك الفكرة في

---

[489] تفسير القرآن العظيم ج 1 ص 4.

[490] المصدر السابق ج 4 ص 566.

[491] المصدر السابق ج 4 ص 566.

[492] سورة الكوثر: الآية 3.

صفين، والطف، إلا إن أغلب الفقهاء من المدارس الأربعة التي تأسست لاحقاً قالوا بحرمة قطع الماء عن الإنسان، دون أن يذكروا واقعة الطف أو صفين، ولم يدينوا معاوية أو ابنه يزيد على فعلتيهما!

وخلاصة المطلب أن الإسلام حرّم بالأصل منع الماء عن الناس مشركين كانوا أو مسلمين، مسالمين كانوا أو محاربين، فلا يمكن استخدام الماء سلاحاً ضد الآخر. وذلك إستناداً إلى الرواية المروية عن رسول الله (ص) حيث قال فيها بأن الله تعالى لا ينظر إلى ثلاثة يوم القيامة، منهم (رجلٌ كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه من ابن السبيل ...)[493]، وبقية الروايات الواردة عن النبي (ص)، والتي ذكرناها آنفاً.

إلا أن ما حصل في صفين، والطف، وتزوير التاريخ بزعم منع النبي (ص) المشركين من آبار بدر خلافاً لنص القرآن الكريم، ما هو إلا سياسة ممنهجة لإعادة توجيه العقل المسلم نحو طريقٍ هم صانعوه!

وبعد نشوء المذاهب الأربعة في القرن الثاني الهجري وصعودها السريع، حرّمت تلك المذاهب منع الماء عمن احتاج إليه، بل أباحت مقاتلة مالك الماء المانع، كما ذكر السرخسي في (المبسوط): " روي أن قوماً سُفّراً وردوا ماءً، فطلبوا من أهله السماح لهم بالشرب منه، وبسقي دوابهم التي كادت أن تهلك من العطش، فأبوا، فذكروا ذلك إلى الخليفة الثاني فقال: هلا وضعتم فيهم السلاح"[494].

---

[493] صحيح البخاري ج 2 ص 164.

[494] المبسوط – السرخسي ج 23 ص 166.

فاتفق الجمهور على فكرة مفادها إنه إذا إشتدّ العطش بأناسٍ، فخافوا الموت، وجب على مالك الماء سقيهم، فإنْ منعهم فلهم أن يقاتلوه عليه. هذا فيما إذا ملكَ الماء. أما إذا كان نهراً جارياً فلا يحق لأحدٍ تملكه، ولا يجوز لأحدٍ منع آخر منه.

وأفتى المذهب الحنفي بالخصوص بجواز قتال المضطر بالسلاح لمالك الماء، إن كان الماءُ في حوضٍ أو بئرٍ، أو نهرٍ ملكه، لأنه قصد إتلاف الإنسان المضطر، وذلك بمنع حقه من الإنتفاع بالماء[495].

بل قالوا بدفع دية المقتول من قبل المالك، إذا مُنع العطشان من الوصول إلى الماء، ومات عطشاً. ففي (الأحكام السلطانية) قال: " إن رجلاً أتى أهل ماء فاستسقاهم، فلم يسقوه حتى مات، فأغرمهم الخليفة الثاني الدية"[496].

وفي (المدونة) لمالك ابن أنس: " ولو منعوهم الماء حتى مات المسافرون عطشاً، ولم يكن للمسافرين قوة على مدافعتهم، كان على عاقلة أهل الماء دياتهم، والكفارة على كل نفس منهم، على كل رجل من أهل الماء، والأدب الموجع من الإمام في ذلك لهم"[497].

أقول ماذا كان تبريرهم لمنع الماء عن الإمام الحسين (ع) وعياله وأصحابه؟ لم نسمع منهم شيئاً يدين ذلك العمل، ولم يذكروا اسم الحسين

---

[495] الإختيار لتعليل المختار – عبد الله بن مودود ج 3 ص 96.

[496] الأحكام السلطانية – الماوردي ص 239.

[497] المدونة – مالك بن أنس ج 4 ص 469.

(ع) ولا أهل بيته (ع) الذين ماتوا عطشاً في موارد ذكرهم تلك الأحكام والفتاوى!

الإمام الحسين (ع) وتحمل أعباء العطش

وفي السابع من شهر محرم الحرام سنة واحد وستين للهجرة منع بنو أمية الماء عن معسكر الإمام الحسين (ع)، وكان كتاب عبيد الله بن زياد والي الكوفة إلى عمر بن سعد قائد الكتيبة التي حاربت الحسين (ع)، واضحاً في ذلك: "أما بعد، فحُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولا يذوقوا منه قطرة.... فبعث عمرُ بنُ سعدٍ عمرو بنَ الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة[498]، وحالوا بين الحسين (ع) وأصحابه وبين الماء أن يُسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث [أيام]..."[499].

بينما كان منهج الإمام الحسين (ع) هو المنهج الرحيم للإسلام المقتضي سقي الإنسان العطشان، حتى لو كان عدواً. وكان ذلك قبل أسبوع واحد فقط من عاشوراء:

أ – لما اقتربت كتيبة الحرّ بن يزيد بألف فارس من قافلة الحسين (ع) في حر الظهيرة، في تلك الصحراء القاحلة القاتلة، و"الحسين وأصحابه معتمّون متقلدوا أسيافهم، قال الحسين لفتيانه: (اسقوا القوم وأرووهم من الماء، ورشِّفوا الخيل ترشيفاً)، فقام فتيانه فرشّفوا الخيل ترشيفاً، فقام فتية وسقوا

---

[498] الشريعةُ: مورد الماء الذي يُستسقى منه بلا دلو (أو رِشاء).

[499] تاريخ الطبري ج 4 ص 312.

القوم من الماء حتى أرؤوهم، وأقبلوا يملئون القصاع والأتْوار[500] والطِّساس من الماء ثم يُدنونَها من الفَرَس، فإذا عبَّ فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عُزلتْ عنه، وسقوا آخرَ، حتى سقوَا الخيل كلَّها"[501].

ب – قال علي بن الطعّان المحاربيّ: "كنتُ مع الحر بن يزيد، فجئتُ في آخر من جاء من أصحابه، فلما رأى الحسينُ ما بي وبفرسي من العطش، قال: أنخ الرّاوية – والرّاوية عندي السقاء – ثم قال (ع): يابن أخِ، أنخ الجمل، فأنختُه، فقال: اشربْ، فجعلتُ كلما شربتُ سال الماء من السقاء، فقال الحسين (ع): إخنث السقاء – أي اعطفه – قال: فجعلتُ لا أدري كيف أفعل! قال: فقام الحسين (ع) فخنَثَه، فشربتُ وسقيَتُ فرسي"[502].

ولو قارنّا بين المنهجين: منهج بنو أمية باستخدام الماء ضد الضِماء كوسيلة حربية، وبين منهج الإمام الحسين (ع) الذي سقى أعداءه وهم على شفير الهلاك من العطش في تلك الصحراء القاحلة لتبين لنا طبيعة ذلك الطرف الرحيم الذي تمسك بمبادئ الإسلام، وقيم الأخلاق الفاضلة.

---

[500] الأتوار: جمع تور، وهو إناء من صفر أو حجارة.

[501] تاريخ الطبري ج 4 ص 302.

[502] المصدر السابق ج 4 ص 304 .

عوامل زيادة شدة العطش في عاشوراء:

يفقد جسم الإنسان الماء إما عن طريق الجلد عبر التعرق، أو عن طريق الكِلْية ومجاريها عبر التبول. وعلى أية حال فإن الماء يعدُّ أهم وسيلة لإدامة الحياة عند الكائنات، خصوصاً الإنسان. والإنسان – بغريزته – يبحث عن الماء عند إحساسه بالعطش. ولاشك ان العطش يؤثر على عضوين مهمين في الجسم، هما: الدماغ، والكِلْية. وإذا إشتد العطش فالتأثير الأكبر يقع على الدماغ، بحيث يصل العطشان إلى فقدان القدرة العقلية، وإنعدام التركيز على الأمور الخارجية، ثم الغيبوبة. ويقع التأثير أيضاً على الكِلْية حيث تفقد وظيفتها وتزداد نسبة الأملاح فيها.

وإذا نظرنا نظر الفاحص المدقِّق لما جرى في واقعة الطف، لوجدنا عوامل أخرى أدت بإنسان الطف الإستثنائي، إلى العطش الشديد، منها:

1- **حرارة الجو:** فالأيام التي قضاها ركب الحسين (ع) في الغاضرية كانت أيام الخريف[503]، وهي عموماً أيام حارة في الصحراء القاحلة. وحرارة الجو تؤثر تأثيراً سلبياً على مقدار الماء الذي يحتاجه الإنسان من أجل العيش. فالشمس الحارقة والجو الصحراوي الحار تؤديان إلى جفاف خلايا الجسم. وفي ذلك أمران:

---

[503] كما يفهم من تحويل الاشهر القمرية الى أشهر ميلادية، حيث صادفت في الشهر العاشر من سنة 680 ميلادية، وهي أيام الخريف.

الأول: أن الجسم الإنساني بطبيعته يتعرق في الجو الحار، وذلك التعرق يساهم في تبريد جسم الإنسان في الصيف. والتعرق يحتاج إلى كمية من الماء على الفرد أن يتناولها. فالحاجة إلى الماء هي حاجة إلى تبريد الجسم في الجو الحار.

الثاني: أن الماء الذي يتناوله الإنسان يمر بمراحل حتى يصل إلى الكِلْية، ثم ينتهي إلى إدرار البول. وقد تزداد تلك المراحل سرعةً خلال إزدياد الحرارة الخارجية. وكأن الجسم يحتاج إلى استفراغ الماء الموجود فيه عبر التعرق والتبول، ويحس بحاجته إلى مزيد من الماء لإدخاله في النظام الحياتي لوظائف الجسم الإنساني عن طريق شرب الماء.

2- النشاط الجسدي: كمية الماء المطلوبة للشرب تعتمد على حجم الإنسان، فالطويل والمربوع يحتاجان إلى كمية أكبر، والبُنية الضعيفة الصغيرة ربما تحتاج إلى كمية أقل من الماء. كانت أجساد أهل البيت (ع) أجساد قوية فارهة، بحيث وُصِفَ أبا الفضل العباس (ع) بأنّ رجليه كانتا تخطان الفرس المُطَّهم[504]، وكان عريضاً ما بين المنكبين، وبذلك كانت حاجته للماء أكثر من غيره. وهكذا كان أصحاب الحسين (ع) الأبطال، مثل عبد الله بن عمير عندما طلب منه الإمام (ع) مبارزتهم حيث رآه "رجلاً آدم طويلاً شديد الساعدين، بعيد ما بين المنكبين"[505].

---

[504] الفرس المُطَّهم: الفرس التام، المُتناهِ في الرشاقة.

[505] البداية والنهاية ج 8 ص 195.

وأكبر كمية من الماء الموجود في جسم الإنسان هي في العضلات والدم، فإذا أصاب الإنسان العطش الشديد: قلّت نسبة الماء في العضلات، وعندها قلّت الحركة المناطة بالعضلات حتى لو أراد الإنسان تحريكها، وتقل عندها القدرة العضلية على حمل السيف أو الضرب بشكل عام؛ وقلّت نسبة الماء في الدم، وعندها تقلّ القدرة العقلية على التركيز في مبارزة العدو أو مخاطبته.

نفهم من ذلك أن مقاتلة الإمام الحسين (ع) وأهل بيته (ع) وبقية الأصحاب في كربلاء بتلك البسالة والشجاعة حتى اللحظة الأخيرة، وأجسامهم تعاني من قلّة الماء والجفاف لأمر محيّرٌ فعلاً! وليس له تفسير إلا إذا أرجعناه إلى القوة الغيبية التي كانت تمدهم بأسباب القوة والبقاء.

3- طبيعة الطعام: لو كان طعام أهل البيت (ع) وأصحاب الحسين (ع) من أنواع الأطعمة التي تحتوي على الماء كالخضروات واللحوم والألبان لكان تأثير العطش عليهم محدوداً. لأن تلك الأغذية تحتوي على نسبة كبيرة من الماء. ولكن من المعلوم أن قافلة الحسين (ع) في سفرها الطويل قد استنفذت المتاع الذي حملته معها من المدينة، وربما استنفذت المتاع الذي ربما حصلت عليه في المنازل التي نزلوا فيها في طريقهم.

وحتى أن الماء الذي خزنوه معهم عند إلتقائهم بالحر بن يزيد الرياحي قبل توبته قرب القادسية قد نفذ بسبب منحهم تلك الكمية من الماء لكتيبة الحر أولاً، وبسبب المسافة التي قطعها الركب ثانياً، ومكثهم في الطف ستة أيام مع قلة ماء، وثلاثة أو أربعة أيام بدون ماء تماماً، ثالثاً.

والأغلب أن معسكر الإمام (ع) لم تكن فيه أغنام أو أبل، بشكل يُستفاد من لحومهما إلا القليل، ولم يكن المعسكر على أية حال معسكر بدو رحل بحيث يستطيعون فيها التنقل وراء العشب والكلأ. إضافة إلى كل ذلك كان المكان صحراوياً قاحلاً، لا ماء فيه ولا عشب.

4 – **حمل الحديد:** أن القدرة على حمل الحديد كالسيف والدرع والرمح من العوامل الأساسية في مواجهة المقاتِل لعدوه. وإذا فُقدت تلك القابلية فُقدت القدرة على القتال ومبارزة العدو.

فالشرط الأول في المواجهة العسكرية هو صحة المقاتِل من حيث قدرته على حمل السلاح واستعماله بصورة فعالة، واستعمال عضلاته وعقله بأقصى درجة. فإذا كان عطشاناً، وقد يبست عضلاته، فكيف يقاتل؟ أختلف الأمر بالنسبة إلى واقعة كربلاء. فقد قاتل علي الأكبر (ع) حتى النهاية، نعم كان يطلب الماء ويشكو شدة عطشه لأبيه (ع)، "ولم يزل علي بن الحسين (ع) يحمل فيهم على فرسه ويقتل منهم، ويرجع إلى أبيه، ويقول: يا أبة العطش..."[506]، ولكنه قاتلَ حتى النهاية. وأحد أبناء الإمام الحسن (ع) "قد غارت عيناه من شدة العطش، فنادى يا عماه هل من شربة ماءٍ أُبرد بها كبدي وأتقوى بها على أعداء الله ورسوله (ص)؟ فقال له

---

[506] شرح الأخبار – القاضي النعمان ج 3 ص 153.

الحسين (ع) يابن أخي اصبر قليلاً حتى تلقى جدك رسول الله (ص) فيسقيك شربة من الماء لا تظمأ بعدها أبداً"[507].

وكذلك الإمام الحسين (ع) قاتل حتى النهاية. وكان (ع) "ينزع السهم بيده ويتلقى الدم بكفيه ويخضب به لحيته ورأسه، ويقول: هكذا ألقى ربي وألقى جدي وأشكو إليه ما نزل بي..."[508]. و"بقي الحسين (ع) على الأرض ملطخاً بدمه ثلاث ساعات[509] وهو يقول: (صبراً على قضائك، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين)"[510]. فلم نرَ من الامام الحسين أو أهل بيته (ع) تأثير سلبي على قواهم العقلية والعضلية حتى اللحظة الأخيرة قبل استشهادهم (ع)، وتلك بحد ذاتها، كما ذكرنا أكثر من مرة، من معجزات واقعة الطف.

الإستنتاج العام:

نستنتج من مواضيع هذا الفصل جملة من الأفكار المهمة، نرتبها في النقاط التالية:

أولاً: الحسين (ع) وأعباء العطش: تحمّل الإمام الحسين (ع) وأهل بيته (ع) وأصحابه العطش الشديد، عندما أحاط العدو بنهر الفرات، ومنع

---

[507] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 126.

[508] المصدر السابق ص 141.

[509] الساعة في اللغة العربية: جزءٌ من أجزاء الوقت وإن قلّ.

[510] مقتل الحسين (ع) – خ. ص 142.

الحسين (ع) وعياله وأصحابه من الوصول إلى الماء. وكان ذلك ضمن تعليمات أموية بعدم سقي الحسين (ع) قطرة واحدة من الماء حتى الموت!

والملفِت أن الإمام الحسين (ع) قد سقى جيش الكوفة الذي جاء لمحاربته، عندما كان جنود الحر بن يزيد الرياحي تشكو الظمأ وقلة الماء، قبل حوالي أسبوع من واقعة الطف.

ومن العوامل التي أدت إلى زيادة الجهد البدني على أصحاب الحسين (ع) وأهل بيته (ع) هي: حرارة الجو الصحراوي القاحل، حيث تؤدي الشمس الحارقة إلى جفاف خلايا الجسم؛ وطبيعة الطعام الذي كانت تحمله قافلة الحسين (ع) ونفترض أنه كان جافاً كالخبز والتمر، فلم يساعد على تحمل آثار العطش الشديد؛ وحمل الحديد أي السيف والدرع ونحوهما من معدات الحرب، فكانت تحتاج إلى جهد عضلي، حتى يستطيع المحارِب أن يقاتل بصورة سليمة.

ومع تلك الظروف القاسية، يتسائل المرء: كيف قاتل الإمام الحسين (ع) بقوة عقلية كاملة، وبحركة جسمية وعضلية صحيحة؟ ولم يؤثر العطش الشديد على قوته العقلية (ع)، ولا على عضلات ذراعه (ع) التي كان يحمل بها السيف ويقاتل بها هؤلاء؟ مع أن العطش الشديد غالباً ما يؤدي إلى تعطيل وظيفة الدماغ، ويعطل وظيفة العضلات!!

نُرجع الجواب إلى القوة الغيبية التي كانت تمدّهم بأسباب القوة والبقاء، بالإضافة إلى قوتهم في مبدأهم، وعشقهم للموت في سبيل الله تعالى.

ثانياً: الماءُ حياةٌ لكل شيءٍ حيّ: إن الله عزوجل جعل من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ، فالماء هو المكون الرئيسي للأجسام الحيّة، وبدون الماء لا حياة على الأرض، ولا على غيرها من الكواكب. وقد أباحَ الإسلام الماءَ لجميع البشر، وأصبح الناس تحت ظل رحمة الإسلام شركاء في: الماء، والكلأ، والنار، كما قال المصطفى محمد (ص).

وحرّمَ الإسلامُ بجميع مذاهبه منع الماء عمن احتاج إليه، بل أباحَ مقاتلة مالك الماء المانع له، بل قال الفقهاء بدفع دية المقتول عطشاً إذا قتله العطش بمنع مالك الماء من الوصول إليه.

ومع ذلك، فإنّ جيش الكوفة منع الإمام الحسين (ع) شرب الماء، حتى استشهاده (ع) وأهل بيته (ع) وأصحابه، مع أن ماء الفرات كان لا يبعد عنهم سوى أمتار قليلة ملئها جيش يزيد جنداً وسلاحاً حتى لا يصل حفيد رسول الله (ص) إلى الماء، فيموت وفي قلبه حرقة الظمأ والعطش الشديد.

ثالثاً: إمتحانات الماء ومعجزاته: وشيءٌ له تلك الأهمية القصوى كالماء، لم تهمله التعاليم السماوية، فقد كان الماءُ حاضراً في معجزة النبي محمد (ص)، عندما نبع الماء من أصابعه الشريفة (ص)؛ وكان الماء حاضراً في معجزة النبي موسى (ع) عندما ضرب الحجر فانفجرت اثنتا عشرة عيناً، فكانت لكل جماعة من أتباعه (ع) عيناً واحدةً، وكان حاضراً في جيش طالوت (ع) الذي أمرهم الله تعالى بعدم الشرب من ماء النهر، فشربوا إلا القلة القليلة منهم لم يشربوا فجاء النصر النهائي على أيديهم.

وكان امتحان الإمام الحسين (ع) في الماء شديداً، فقد حُرِمَ (ع) من الماء هو وأصحابه، لكنهم قاتلوا قتال الأبطال دفاعاً عن دينهم وعرضهم حتى استشهدوا جميعاً. وكان لهم النصر النهائي الأبدي، فـ (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[511].

رابعاً: تزوير حقائق بدر: ولعل أهم ما في موضوع الماء في التاريخ الإسلامي هو تزوير الحقائق القرآنية التي جاء بها الإسلام كدينِ رحمةٍ للإنسانية جميعاً. فعندما أمر الله تعالى المسلمين بمقابلة مشركي مكة، سار جيش المسلمين إلى منطقة بدر، وعندها نزل المشركون على آبار بدر، وحاولوا منع المسلمين من الإستفادة من الماء.

فأصبح المسلمون في موضع المعاناة، والحرمان من الماء، إلا أن الله تعالى أنزل عليهم المطر فسقاهم، وطهرهم، وثبّت لهم الأرض ليمشوا فيها، قال تعالى يصف مقدمات معركة بدر الكبرى: (... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)[512].

ثم وقعت معركة بدر، وانتهت بانتصار المسلمين، وهزيمة المشركين. هذه هي حقيقة المعركة، إلا إن الأمويين أرادوا تزوير الحقائق، فادعوا أن النبي (ص) نزل في بدر، وسيطر على آبارها للحرب والمكيدة،

---

[511] سورة البقرة: الآية 249.

[512] سورة الأنفال: الآية 11.

ومنعَ (ص) الماء عن المشركين، وكأنهم أرادوا تمهيداً شرعياً لأفعالهم الحربية في السنوات اللاحقة في صفين، والطف!

ويبقى موقف الإمام الحسين (ع) معجزة خالدة، لأنه قاتلَ مع الظمأ القاتل بكامل قوته العقلية والجسدية، ولم يؤثر فقدان الماء على قواه الإستثنائية تلك حتى آخر لحظة من حياته (ع).

.

الفصل السابع

الإرث العقلي والعاطفي لواقعة الطف

(الإنسان، الجماعة، الأرض)

مقدمة. الإرث العقلي للطف: (1) الإنسان. البكاء والدليل العقلي والروائي. بكاء الإحتجاج. بكاء الحزن. بكاء الندم. بكاء العمل. لغة الدموع. (2) الجماعة. مجالس الحسين (ع): الدليل العقلي والآليات. زيارة الإمام الحسين (ع): الدليل العقلي. (3) المكان. السجود على تربة الحسين (ع). شرف التربة والمكان. المكان والقوة الروحية. الإستنتاج العام.

مقدمة

ترك لنا الإمام الحسين (ع) إرثاً عظيماً في الفكر، والمعتقد، والفضائل. وقد تميز ذلك الإرث العظيم بميزتين: الأولى: أنه لم يكن إرثاً مالياً أو مادياً، بل هو إرثٌ معنوي تستفيد منه الأجيال المتوالية جيلاً بعد جيل بالثراء الروحي والفكري والمعنوي. الثانية: إنّ ذلك الإرث غير محصور بورثته من الأرحام، بل هو إرثٌ عامٌ لجميع البشر ممن يستمع لرحلته العظيمة في التضحية والإيثار والثبات على المبدأ رغم المحن الجسيمة، ومصائب الجسد، ومتطلباته وحاجاته.

قال تعالى في كتابه المجيد: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)[513]. وطالما كان الحسين (ع) ولا زال حياً بيننا بموجب الآية الكريمة، فإن نهضته (ع) كانت جزءً من سببٍ سماويٍ في تثبيت رسالة الإسلام في نفوس الناس. وبذلك بقيت واقعة الطف حية نابضة بالحياة، وستبقى كذلك إلى يوم القيامة.

وقد حثّ أئمة أهل البيت (ع) على إبقاء جذوة مظلومية الحسين (ع) مشتعلة في كل مكان وزمان عبر وسائل فعالة مرتبطة بحياة الإنسان الشخصية والإجتماعية. فذلك الأرث الحسيني يجب أن يبقى ويستمر في العطاء للأجيال القادمة.

ومن أجل توضيح ذلك، نناقش في هذا الفصل: الإرث العقلي للطف من زاوية: الإنسان، والجماعة، والمكان.

---

[513] سورة البقرة: الآية 154.

أولاً: الإرث العقلي للطف: الإنسان

أراد الإمام الحسين (ع)، ومهما طال الزمن، أن يوصل إلى الإنسان فكرته في الثبات على المبدأ، وحب الموت في سبيل الله تعالى، والثقة بخالق السموات والأرض. ولقضية الحسين (ع) اهداف وأبعاد تتعلق بالإنسان ذاته، مهما بَعُدَ الزمن.

فالإرث العقلي في الطف يقوم على أساسين: التفكر بقضية الحسين (ع)، والبكاء عليه (ع). والتفكر والبكاء متداخلان مع بعضهما، فلنبدأ ببحث البكاء على الحسين (ع) من الناحية العقلية والدينية.

لاشك إنّ البكاء يعبّر عن حالة تأثر النفس وإنفعالها بما يصيبها أو بما يصيب من يمت لها بصلة، ويرتبط بها برابط العقيدة. وإلى ذلك أمر الحسين (ع) محبيه بالإستعبار، فقال (ع): (أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر)[514].

والبكاء أثر من آثار التفكر في مصيبة كربلاء، ويترتب عليه حمل الباكي على الالتزام بالمبدأ الذي ضحى من أجله سيد الشهداء (ع). والصلة بين ذكر مقتله (ع) والبكاء عليه، تثمر في بقاء ما جاهدَ غضاً طرياً متجدداً، وكأن الواقعة قد حصلت للتو. ومن مقتضيات البكاء رقة القلب. ورقة القلب تلك تؤدي بالإنسان إلى الخشوع لله تعالى والتسليم والإذعان لأوامره ونواهيه.

---

[514] كامل الزيارات – ابن قولويه ص 108.

والتباكي هو إستحضار الإرادة للبكاء حتى لو لم تنهمر الدموع. وقيل أن التباكي هو تكلف البكاء لا عن رياء[515].

البكاء: الدليل الروائي

وقد ورد الحثّ على البكاء والتباكي عند ذكر الآخرة عن رسول الله (ص)، قال: (إني قارىء عليكم ألهاكم التكاثر، من بكى فله الجنة ومن تباكى فله الجنة)[516]، ولما قرأ (ص) أواخر سورة الزمر: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا...)[517] على جماعة من الانصار فبكوا إلا شاباً منهم، قال: لم تقطر من عيني قطرة وأني تباكيت. فقال (ص): (من تباكى فله الجنة)[518].

وورد الحثّ على البكاء والتباكي عند ذكر مصيبة الإمام الحسين (ع)، فقد أوصى الإمام الباقر (ع) بإعطاء ثمانمائة درهم لنوادب يندبن الحسين (ع) بمنى أيام الموسم[519]. وأيام منى: هي ثلاثة أيام يجتمع فيها الحجيج في منى بعد إنتهاء مناسكهم على عرفات والمشعر، فتكون فترة من فترات التأمل والتفكر. وفي ذلك وسيلة من وسائل نشر معارف الإمام الحسين (ع) وتضحياته في عاشوراء.

---

[515] تفسير المنار- محمد عبده ج 8 ص 301.

[516] كنز العمال – المتقي الهندي ج 1 ص 148.

[517] سورة الزمر: الآية 71.

[518] كنز العمال ج 1 ص 147.

[519] تهذيب الأحكام – الشيخ الطوسي ج 2 ص 108.

وورد ما يحثُّ على البكاء في حديث الإمام الباقر (ع) إلى حماد الكوفي: (الحمد لله الذي جعل في شيعتنا من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا)[520]. وقال (ع): (ما من عبد قطرت عيناه فينا قطرة، أو دمعت عيناه فينا دمعة إلا بوأه الله بها في الجنة حقباً)[521].

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الباقر (ع) قال: كان أبي علي بن الحسين (ع) يقول: (أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي (ع) دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفاً، يسكنها أحقاباً. وأيما مؤمن دمعت عيناه دمعاً حتى يسيل على خده لأذىً مَسّنَّا من عدونا في الدنيا بوأه الله مبوأ صدق في الجنة. وأيما مؤمن مسه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خديه مضاضةَ ما أوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى، وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار)[522].

البكاء: الدليل العقلي

وكما أن البكاء تعبيرٌ عاطفيٌّ عن حالة شعورية تجاه صاحبُ الشأن الذي يُبكى عليه، فهو تعبيرٌ عقليٌّ عن حالة الإرتباط بين الباكي والمبكيّ عليه. أي أن الإنسان لا يبكي إلا أن تكون هناك حالة إرتباط عقلي وعاطفي من نوع ما بين الطرفين. فالأب يبكي – غالباً– لموت ولده،

---

[520] كامل الزيارات ص 325.

[521] أمالي الشيخ المفيد ص 209.

[522] بحار الأنوار ج 44 ص 281.

وربما لا يبكي غالباً لموت ولدِ غيره. وكذلك الأم فإنها تبكي لعثرة ولدها بالخصوص أو تألمه أو إصابته بمكروه.

والبكاء هنا يعبّرُ عن أمرين:

الأول: رسالة إحتجاج يبعثها العقل تعبيراً عما حصل للمَبكيّ عليه.

الثاني: شعورٌ بالألم لمعاناته.

والبكاء يحصل عموماً عند الإنسان:

1 - إما بالإنفصال، كالرُضع والأطفال الصغار عندما يفتقدون إمهاتهم، فيبدأون بالبكاء.

2 - وإما بفقدان العزيز كفقدان الإبن أو البنت أو الأب أو الأم، فيبدأ الإنسان بالبكاء لا شعورياً.

3 - وإما ألم الجوع والمرض والعطش، فالجوع والعطش يدفعان الإنسان نحو البكاء.

4- وإما بألم فقدان القائد الديني كالنبي (ص) والإمام (ع).

وتلك الحالات لها إرتباط مباشر بالرابطة الإنسانية التي تربط الناس بالنسب (الأمومة والأبوة ونحوها)، أو السبب (الزوجية ونحوها)، أو الذات، أو الإعتقاد.

البكاء على الحسين (ع):

أما البكاء على مصيبة الحسين (ع) فهو يعبّر عن حالة عقلية بتصور المصيبة، والإرتباط بها. وأغلب الناس ليست لديهم علاقة نسب أو سبب مع الحسين (ع)، فالبكاء – ومع أنه تعبير عن شعور جياش – إلا

أنه بكاءٌ عقلي على المصيبة، وهو إرتباطٌ متعلقٌ بالعقيدة التي يؤمن بها الإنسان. فالموالي لأهل البيت (ع) يبكي على مصيبة الحسين (ع)، لكنه قد لا يبكي على مصيبة إنسان آخر بعيدٌ عنه تاريخياً وعقائدياً وجغرافياً.

والبكاء العقلي على الحسين (ع) هو تعبير عن رسالة الإحتجاج التي يبعثها العقل إستنكاراً لمصيبة الإمام (ع).

ولو حوّلنا البكاء على الحسين (ع) إلى كلمات على لسان الباكي، لكانت: الله أكبر على تلك الجناية العظيمة التي حلّت بعترة النبي (ص)، نحن معكم في السلم والحرب، اللهم اجعلنا مع الحسين (ع) في مصابه. هذا هو لسان حال الباكي، لكن الكلمات تحولت إلى دموع، وكلما خرجت تلك الدموع بحرقة وحرارة كان صاحبها أصدق وأكثر إستيعاباً لواقعة الطف وما حصل فيها.

وتلك الدموع تحتاج بلاشك إلى علمٍ بشخصية الحسين (ع) وبما حصل له ولأهله وأصحابه (ع) في تلك الأيام من محرم الحرام سنة واحد وستين للهجرة. ولا تنتهي تلك الدموع بوقتٍ محددٍ، فمتى ذُكر الحسين (ع) إنهمرت دموع المؤمنين به، وبقضيته العادلة مرة أخرى، بل تبقى تلك الحالة حتى آخر يوم يعيش فيه الإنسان على وجه هذه الأرض.

والمشهور أن النساء – وبسبب عاطفتهن – يبكين أكثر من الرجال في حالات فقدان العزيز أو في الحالات العاطفية المتعلقة بمشاعر الإنسان، إلا أن الرجال والنساء يتساوون في البكاء على مصيبة الحسين (ع). وهذا يدلُّ على إنّ البكاء على مصيبة الحسين (ع) هي حالة عقلية تتجاوز قضية العاطفة الخاصة بالأنوثة.

فالمشهور من الناحية الطبية أن الغدد الصماء (الهرمونات) عند المرأة هي السبب في بكائها كما هو السبب في إنوثتها. ويقابل هذا الرأي رأي آخر وهو أن طبيعة أمومتها المصمَّمة على العناية بالرضيع، وحضانة الصغير هي السبب في عاطفتها وسهولة بكائها، وليست إفرازات تلك الغدد. وعلى أية حال، فإنّ مصيبة الحسين (ع) تُبكي الرجال بقدر ما تُبكي النساء. وهنا تتوقف نظرية الغدد الصماء على عتبة الحسين (ع) ومصيبته.

تبعات التوقف عن بكاء الحسين (ع):

لو إفترضنا – جدلاً – إننا قُطعنا أو قاطعنا مجالس الحسين (ع) التي تُذكَر فيها مصيبته، وتوقف بكاؤنا، فماذا الذي يحصل؟

أولاً: يتوقف البكاء، فيتوقف تذكر المصيبة أولاً، ويتوقف الإحتجاج على بني أمية في قتلهم الحسين (ع).

ثانياً: إذا لم نرجع إلى مجلس الحسين (ع) ونتذكر المصيبة، فسوف يموت شعورنا بها تدريجياً، ولا نتذكر منها إلا شواهد تأريخية قد لا تحرك مكامن شعورنا.

ثالثاً: وقد نصل إلى حالة من حالات قطع الإرتباط أو فصم الصلة بما يتعلق بعلاقتنا بالإمام الشهيد (ع). وإذا قُطِعَ الإرتباط بالحسين (ع) نصل إلى حالة الشعور بالصمت، وعدم التفاعل على أحسن التقادير. وهذا يعبّر عن أخطر حالات عدم الإرتباط بالمعتقد الذي ضحى من أجله الإمام (ع). وتلك الحالة تؤدي إلى العزوف عن تضحيات الحسين (ع)، وعدم

الإنفتاح على الآخرين من الذين يشاركوننا نفس الشعور، والهروب من معتقدنا تدريجياً.

فالإنسان المتألم لمصيبة ما يحتاج إلى البكاء بصوتٍ مسموعٍ أو النحيب حَزَناً، وهو البكاء بصوتٍ عالٍ. ذلك أن الألم التي تولده المصيبة العظيمة كمصيبة أبي عبد الله (ع) يحتاج إلى تحرير طاقة الألم عبر البكاء المسموع، وهذا يعطي العقل فرصة الإرتباط أو الصلة بالمصيبة، وإبقاءها حيّةً في ضمير الإنسان.

أما الصمت الناتج عن عدم العيش في أجواء المصيبة فقد يؤدي إلى إنسحاب العقل من قضية الإرتباط بالإمام (ع)، ومن ثمَّ ضعف الإرتباط بالإسلام. ولذلك جاء التأكيد على بكاء الحسين (ع)، حتى ولو كانت دمعة واحدة تُسكب. لأن الدمعة مهما كان حجمها تؤكد قضية الإرتباط به (ع).

ومن المهم أنْ نعلم إنّ بكاء الإنسان على حبيبٍ أو عزيزٍ فُقِدْ يعبّر عن اليأس عن رجوع ذلك الحبيب أو العزيز، فالحزن الذي يصاحب فقدان العزيز يتلبسه اليأس من رجوعه إلى الحياة. لكن الحزن والبكاء على مصيبة الحسين (ع) يرافقه أمل بالشفاعة. فالحزن هنا حزنٌ مع شعور بالأمل.

أقسام البكاء على الحسين (ع):

والبكاء على الإمام الحسين (ع) في التاريخ الإسلامي ينقسم إلى أربعة أقسام، هي:

1- بكاء الإحتجاج:

وهو البكاء على مصيبة الإمام (ع) شعوراً بالألم بفقدانه (ع)، مع نية الثواب عند الله تعالى، ونية التحدي للظالم الذي إستباح أطهرَ دمٍ من دماء المسلمين. وهذا البكاء يعطي شعوراً للباكي بأنه أخذ يقترب من شخصية الحسين (ع) رويداً رويداً، فهو يحتجّ كما إحتجَّ (ع) بالظلم الواقع عليه وعلى أمته آنذاك.

ويعطيه شعوراً بالإرتباط لأنه تحسس لتلك الالآم التي عانى منها أولئك الأطهار (ع) في تلك الواقعة الفريدة من نوعها في التاريخ. وإذا تم البكاء بصورة جماعية، فإنه يوحّد تلك الجماعة في أهدافها وطرقها. وطاقة البكاء تستثمر في إستلهام العبر من تضحيته الفريدة.

وكل دمعة تسكب من مؤمن مخلص في بكاء الإحتجاج إنما هي سهمٌ غير لفظي موجهٌ للظالم. بمعنى أن فعل البكاء على سيد الشهداء المظلوم (ع) أمضى من عشرات الكلمات التي يمكن أن يتفوهُ بها الإنسان من دون بكاء.

وبمعنى ثالث أن البكاء يعبّر عن وجهٍ من وجوه الإحتجاج لعدم وجود الناصر، وخذلان الناس للحسين (ع) في عاشوراء، في واقعة الطف في العقد السادس بعد الهجرة. فالباكي المُحتجّ يعبّر عن فكرة مفادها أنه لو كان حيّاً في ذلك الزمان والمكان لنصر الحسين (ع) بروحه، وفداه بدمه. وتلك دمعةُ إحتجاج لها قيمتها وثقلها، خصوصاً ونحن نبتعد عن الواقعة بقرون عديدة.

2- بكاء الحزن:

هو البكاء الذي يقوم به الإنسان عندما يشعر بعظم المصيبة أو بفقدان العزيز، بحيث يحس بفقدان الأمل عن نصرة الحسين (ع). وهنا يشعر الإنسان بالعجز عن التواصل الجسدي مع الحسين (ع) لنصرته.

كتب الحسين (ع) إلى رؤوس الأخماس في البصرة وإلى أشرافها رسالة مفادها: (...أدعُوكُم إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نبيّهِ (ص)، فإنّ السُنَّةَ قد أُميتَتْ، وإنّ البِدْعَةَ قد أُحيِيَتْ، وإنْ تسمَعُوا قولي وتُطيعوا أمري أهدِكُمْ سبيلَ الرشادِ)[523]. فجمع يزيد بن مسعود، وهو من أشراف البصرة الذي وصلته تلك الرسالة، القبائل التي تحت أمرته، وأبلغهم رسالة الحسين (ع)، فأجابوه إلى ذلك. فلما تجهزَّ للخروج إلى الحسين (ع) بلغه قتله (ع) قبل أن يسير، فجزع من انقطاعه عنه[524].

هنا خيّم الحزن عليهم، وكان بكاؤهم على الحسين (ع) بكاء حزن وفقدان، وعدم قدرة على نصرته.

ونعي الحسين (ع) هو شكل من أشكال توظيف الكلمات والمواقف في إنتزاع دموع الحزن من الإنسان. وبكاء الحزين هي طريقة من طرق التواصل مع مصيبته (ع) وآلامه.

وهذا البكاء يختلف عن بكاء الإحتجاج، فبكاء الحزن يتم في زمن الحسين (ع)، أي في زمن استشهاده (ع)، وليس هناك مفرّ من تغيير

---

[523] تاريخ الطبري ج 3 ص 280.

[524] الملهوف ص 38، وبحار الانوار ج 44 ص 339.

الماضي أو الحاضر. أما بكاء الإحتجاج فهو يعبّر عن عدم قبول الأمر الواقع إلا بالإقتصاص من الظالمين الذين قتلوا الإمام المظلوم (ع). ولذلك كان الدعاء بإبعاد الظالمين من قتلة الحسين (ع) عن رحمته تعالى تصبّ في هذا الإطار. فعدم القبول عما وقع في واقعة الطف يعني أنّ للطف بداية ونهاية، رأينا البداية عبر التاريخ ولكننا لم نرَ النهاية بعد. والنهاية هي بالإقتصاص من قتلة الحسين (ع)، وهي قضية مستمرة. وإلى ذلك يفسّر طلب أئمة أهل البيت (ع) من شيعتهم بالدعاء ضد هؤلاء القتلة.

3- بكاء الندم:

ومن أمثلته بكاء عبد الله الجعفي. فقد ندم عبد الله الجعفي على قعوده عن نصرة الحسين (ع)، وهو الذي دعاه (ع) إليه، فتعذر. فقال له الحسين (ع): (إذا بخلتَ علينا بنفسك، فلا حاجة لنا بمالك)[525]، ثم تلا قوله تعالى: (... وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)[526]، (ولقد سمعتُ جدي رسول الله (ص) يقول: من سمع واعيتنا أهل البيت ولم ينصرنا أكبه الله على منخريه يوم القيامة...)[527].

وعندما ندم، بعد فوات الأوان، جعل يضرب يده على الأخرى، ويقول: ما فعلتُ بنفسي، وأنشأ يقول:

---

[525] فلا حاجة لنا بمالك: أي لا حاجة لنا بفرسك وسيفك ورمحك.

[526] سورة الكهف: الآية 51.

[527] مقتل الحسين – خ. ص 72 – 73.

فيالك حسرة ما دمت حياً ... تردد بين صدري والتراقي

حسينٌ حيث يطلب نصر مثلي ... على أهل العداوة والشقاق

مع ابن المصطفى روحي فداه ... فويلي يوم توديع الفراق

فلو أني أواسيه بنفسي ... لنلتُ الفوزَ في يومِ التلاقي

لقد فازَ الذين نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون ذو النفاقِ

فقد كان الجعفي عارفاً بمنزلة الإمام الحسين (ع)، لكنه بخل بنفسه عن مناصرته (ع)، فأصبح بكاء الندم سمة من سمات حياته، ولاتَ حين ندم!

4- بكاء العمل:

يعبّر بكاء العمل على الحسين (ع) عن جملة أمور، منها:

1- تحرر الإنسان من عالَم بني أمية: ذلك العالَم الممتلئ وحشيةً ونفاقاً، وطمعاً غير محدود في الدنيا، ومتعلقاتها وإكراهاً للناس على الإلتحاق بهم. فالباكي على الحسين (ع) يشعر بأنه تحرر من ذلك العالَم البغيض ودخل عالَم الحسين (ع) المملوء رحمةً وعلماً.

2- تحرر الإنسان من قيود الزمن: تبكي الناس عموماً على الضعيف، من الناحية الظاهرية. وربما يعكس الضعف الظاهري قلّة الناصر، وغياب المُعين. والبشر، عموماً، يعتبر الضعف عجزاً عن قدرة الإنسان على الإبداع.

لكن الحسين (ع) كان قوياً بالله عزّوجل، وكان قوياً بيقينه. فلماذا نبكي على الحسين (ع) إذن؟ والجواب: إنما نبكي لعدم وجودنا معه

لنصرته (ع)، وكلماته الداعية لنصرته تقطع نياب قلوبنا: (هل من ناصر ينصرنا؟ هل من معين يعيننا؟ هل من ذابّ [يذبّ] عن حرم رسول الله صلى الله عليه وآله)[528]. وهذا بكاء العمل، أي لو كنّا في زمنه لقمنا بنصرته (ع). فالبكاء حررّنا من قيود الزمن، نبكي وكأن الحسين (ع) يعيشُ في زماننا، وبين جوانحنا.

3- القدرة على الإنتقاد: البكاء على الحسين (ع) يجعل الباكي قادراً على إنتقاد أي نظام غير عادل. وأصبح البكاء بفضل تضحية أبي عبد الله (ع) سلاحاً فعالاً ضد الظالمين. وأصبح للشيعة الموالين لأهل البيت (ع) عقلية نقدية لا تهاب بطش الظالم. وابتعد مفكرو الشيعة، بفضل البكاء على الحسين (ع)، عن مجاملة الظالم أو مهادنته حتى لو كان يملك أقوى أدوات السلطة والبطش.

عندما يأتي شهر محرم من كل سنة، نعيش في عالمين:

الأول: عالمنا الواقعي الذي نعيش فيه لحظاتنا الدنيوية بما فيها من عمل شاق، وراحة بيتية، وهموم حياتية.

الثاني: عالَم الإمام الحسين (ع)، الذي ننتقل إليه عبر ذكرى شهادته في عاشوراء من ذلك المحرم. ذلك العالَم الأخلاقي الذي نعيش فيه يضمر معاني الإيثار، والتضحية، والدفاع عن الإسلام، وحب أهل البيت (ع). وكأننا ندخل في كل سنة عالَماً يهذّب أخلاقنا ويعلّمنا التضحية والإيثار.

---

[528] الملهوف ص 50.

ولابد أن نوازن بين هذين العالَمين. فالبذل والعطاء الذي نراه في محرم من كل عام هو ثمرة من ثمرات تضحيات الحسين (ع). وفي النهاية نحن نرجع إلى عالَمنا الأول، شئنا أم أبينا. ولكننا نتسائل دائماً كم تعلمنا نحن من العالَم الثاني الذي سطّره لنا الإمام الحسين (ع) بتضحياته. والمؤمن بقضية الحسين (ع) يحرص أن لا يصطدم عالماه الواقعي والإفتراضي ببعضهما البعض. فنحن نتعلم من عالم الحسين (ع) ما يسددنا في عالَمنا الواقعي النسبي الذي نعيش فيه بزماننا المحتوم.

لغة الدموع:

للدموع لغة يفهمها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان. فإذا بكى الإنسان على ما حصل في واقعة الطف مثلاً، فإن بكاءه يُفسَّر على كونه تعاطفٌ مع الحسين (ع). فالبكاء هنا شعورٌ متلازمٌ مع إرادة البكاء. أي أن البكاء على الحسين (ع) رسالة يبعثها الباكي إلى المجتمع مع إرادة التضامن مع المظلوم، والإقتصاص من الظالم. وتلك رسالة فعالّة واضحة تحدد إنتماء الإنسان، وهي من أعظم الوسائل لنشر رسالة الإسلام من نظر أهل البيت (ع) إلى العالم.

لغة الدموع مقابل سياسة السيوف:

لقد حارب أئمة أهل البيت (ع) بني أمية بسياسة الدموع، فقد حضوا أتباعهم على البكاء أو حتى على التباكي على الحسين (ع)، وكانوا

أول من بكى مظلومية الحسين (ع). فالإمام السجاد (ع) كانت تختلط دموعه بطعامه، وكان يبكي في كل صغيرة وكبيرة ويذرف الدموع الساخنة على مصرع والده الإمام (ع) وأهل بيته. وكان (ع) يقول: (... إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة)[529]. وما وضع طعام بين يديه إلا بكى[530]. وكذلك كان الإمامين الباقر والصادق (ع) وبقية أئمة أهل البيت (ع). وقد بكى قبلهم رسول الله (ص)، وأمير المؤمنين (ع).

ولاشك أن الدموع ترتبط بالمشاعر والعواطف، والمشاعر ذاتها ترتبط بالعقل مباشرة. فعندما يتذكر العقل بذاته أو عن طريق خطيب مصيبة الحسين (ع)، فإنما يبعث رسالة قوية إلى العقل، وعندها تنهمر الدموع.

وأصبحت الدموع المنهمرة من محبي الحسين (ع) وسيلة إتصال بالمبدأ الذي قام (ع) من أجله وجاهد. أي أن الدموع المنهمرة في حب الحسين (ع) أصبحت وسيلة من وسائل تذكير الفرد والجماعة بمبدأ الحسين (ع) وصلته بجده رسول الله (ص).

وسياسة البكاء تلك تهدف إيضاً إلى إظهار المعاناة التي عاناها الإمام (ع) من الناس في ذلك الزمان. وما إظهار الحزن على مقارعته الظلم وحيداً، إلا لسان حال الباكين، وكأننا نقول: لو كنا معك لقاتلنا مِن قاتلك، ولرُزقنا الشهادة بين يديك.

---

[529] أمالي الشيخ الصدوق ص 204.

[530] بحار الأنوار ج 46 ص 109.

ولا ريب أن تذكر مصاب الإمام (ع) والبكاء عليه هو بكاءٌ ناتجٌ عن حزن ولوعة، وليس بكاءٌ ناتجٌ عن كآبة نفسية، ذلك إنّ المكتئِب نفسياً حتى لو بكى لبقي الإكتئاب يراوده كل حين. فالإكتئاب حالة مرضية متعلقة بالمزاج والإضطراب العقلي. أما الحزن على الحسين (ع) والبكاء على غربته، فهو ليس حزن كآبة بل حزن عمل وجدية، ومبدأ عقلي. فإن الدموع التي تنهمر لذكره (ع) تدفع الإنسان نحو العمل، ونحو نصرته (ع) بالكلمة، أو بتطبيق الدين على الحياة، وإقامة الصلاة، وتهذيب النفس.

فالحزن يوحّدنا مع الحسين (ع)، فقد كان (ع) حزيناً على أمته، ولم يكن حزيناً على الدنيا، ولم يكن مكتئباً أبداً. لأن سبب الإكتئاب في الدنيا هو فقدان الأمل بالله عزّوجل. كان الحسين (ع) سعيداً بالشهادة متقبلاً قضاء الله أحسن القبول.

وعندما ينتهي الخطيب من سرد الواقعة، ويبكي الحاضرون وتنهمر دموعهم، يمر الحضور بعدها بحالة صمت. ذلك الصمت هو الذي يترك العقل يفكر بصفاء بما حلّ على الإمام (ع) يوم عاشوراء في العقد السادس من الهجرة. وتأثيرُ ذلك الصمت على الباكي نفسه تأثيرٌ إيجابيٌّ يحمل شعوراً لتنقية النفس، والعمل من أجل الدين، والرجوع إلى الله تعالى.

فللبكاء على الحسين (ع) قيمة روحية، تتمثل بإحترام قيمة الإنسان للحياة. فالإنسان إنما خُلِقَ ليحيى حياةً طيبةً كريمةً يعبدُ فيها الله تعالى، ولا يتعرض لأذىً أو جرحٍ أو قتلٍ!

والإنسان يبكي حرمة إنزال الألم بالآخر بقتلٍ أو بجرحٍ، ويبكي حرمة التعرض للإمام الحق (ع)، العالِم المتقي، من أبناء الأنبياء (ع)،

ويبكي حرمة الظلم. ولذلك كان للبكاء عليه (ع) تلك القيمة الروحية. لأن فقدانه بتلك الطريقة البشعة كان فقداناً للموازين الشرعية المتمثلة به، وفقداناً للعلم الديني الذي كان يحمله، وفقداناً لمراتب الكمال التي كان ينتهجها في حياته (ع). وبذلك كان فقدانه فقداناً للقيم الأخلاقية بجميع صورها وأشكالها.

ثانياً: الإرث العقلي للطف: الجماعة

وإذا كانت المصيبة كبيرة، فإن بكاء الفرد لوحده لا يساعده في تجاوز المحنة، فكان بكاء الجماعة. أي أن الموالين يجتمعون ويتذاكرون المصيبة ويبكون عليها بكاءً جماعياً. ولذلك حثّ الإمام الباقر (ع) الجماعة على التلاقي (... بالبكاء عليه بعضهم بعضاً في البيوت، وليعزّي بعضهم بعضاً بمصاب الحسين)[531].

إنّ أهمّ الوسائل العقلية التي أورثها الإمام الحسين (ع) للمسلمين هي: مجالس عاشوراء ، وزيارته في مرقده (ع).

1- مجالس الحسين (ع):

أصبحت مجالس الإمام الحسين (ع) بعد استشهاده بفترة قصيرة من أهم منابع العلم الإسلامي لعامة الناس، وشكلاً من أشكال الثقافة الخاصة بالتضحية والإيثار. فإطلاق الأخبار الواردة عن أهل البيت (ع)

---

[531] كامل الزيارات ص 174.

أفاد باستحباب عقد المحافل للتذكير بفاجعة الطف. ففي حديث الإمام الباقر (ع) إلى حماد الكوفي: (الحمد لله الذي جعل في شيعتنا من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا)[532]. ومخاطبة الإمام الرضا (ع) أصحابه: (من ذكّر بمصابنا فبكى وأبكى، لم تبكِ عينه يوم تعمى العيون)[533].

وعن الإمام الباقر (ع) في كلامه للمحبّ من أتباع أهل البيت (ع): (في يوم عاشوراء وليندب الحسين (ع) ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه)[534]. وفي كلامه عن الجماعة: (ويتلاقون بالبكاء عليه بعضهم بعضاً في البيوت وليعزّ بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام)[535].

والظاهر من كلامه (ع): (من ذكّر بمصابنا...)[536] مطلق وسائل التذكير، بمعنى أي وسيلة كانت من وسائل التذكير بمصاب الحسين (ع) كالمأتم والتعزية والمحاضرة والكتاب والشعر وبذل المال لإطعام المساكين وإروائهم باسم الحسين (ع)، كلٌ ذلك جامعٌ لذلك اللفظ. ولكن المجلس الحسيني هو الغالب في وسيلة التذكير.

وتلك المجالس تُبقي الرابطة الدينية لحفظ الدين الأصيل قوية وفاعلة، وقد تحرى أهل البيت (ع) مختلف أساليب البيان للتعبير عن ذلك.

---

[532] كامل الزيارات ص 325.

[533] امالي الشيخ الصدوق ص 131.

[534] بحار الأنوار ج 98 ص 290.

[535] كامل الزيارات ص 174.

[536] أمالي الشيخ الصدوق ص 131.

يشير الإمام الباقر (ع) إلى ذلك ويقول: (ما إجتمع إثنان على ذكرنا إلا باهى الله بهما الملائكة فإذا إجتمعتم فاشتغلوا بالذكر فإن إجتماعكم ومذاكرتكم إحياؤنا، وخير الناس بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا)[537]، و(رحم الله عبداً إجتمع مع آخر فتذاكر في أمرنا فان ثالثهما ملك يستغفر لهما)[538]. ويقول الصادق (ع) للفضيل بن يسار: (أتجلسون وتتحدثون؟). قال: نعم. فقال (ع): (أما أني أحب تلك المجالس فأحيوا أمرنا فإنّ من جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب)[539].

مجالس الحسين (ع): الدليل العقلي

نحنُ البشر نعيش في عالم الصوت، فكلُّ من كان قادراً منّا على الكلام يتكلم. ونمضي في حياتنا نسمع أكثر مما نتكلم، أو نسمع أكثر مما نكتب، أو نسمع أكثر مما نقرأ. وسماع الصوت من إنسان آخر يتكلم يقتضي الإصغاء. وهكذا مجالس الحسين (ع)، فهي مدرسة للإصغاء والتعلم والفهم. حيث تُسرد قصة مقتل الإمام (ع) وتُذكر العبر المستفادة. وأغلب مجالس الحسين (ع) مجالس علمية يتعلم فيها المخاطَب أصول الدين وفروعه، ويتفهم فيها تأريخ أهل البيت (ع)، وتسرد الشبُهات فيها ثم يتمُّ ردُّها. وطالما كان الخطيب المحاضِر أكثر علماً في موضوعه من

---

537 أمالي الشيخ الطوسي ص 390.

538 المصدر السابق ص 224.

539 بحار الأنوار ج 44 ص 282.

المخاطَبين إنتقل ذلك العلم الفائض إليهم. وبذلك تعتبر تلك المجالس من أكثر وسائل العلم والمعرفة إنتشاراً بين عامة الناس من أتباع مدرسة أهل البيت (ع). وذلك أثرٌ من الآثار الجميلة التي تركها إستشهاد الإمام الحسين (ع). فقد تركت شهادته (ع) وحياته المليئة بالعلم والتقوى أبواباً مشرعة ينهمر منها فيض العلم والمعرفة.

وما مجالس الحسين (ع) إلا إحياءٌ للمعارف الإسلامية، فإذا كان الخطيب حاذقاً كانت محاضرته أو خطابه كمن يصبّ ماء المعرفة على تربةٍ عطشى، فتنمو البذرة في التربة العطشى المسقية بماء معرفة الحسين (ع)، وتصبح شجرة مخضرّة، ثم ثمرة يانعة. وثمرة مجالس الحسين (ع) هو تعلّم الإسلام بإصوله وفروعه، ثم ممارسة عباداته وشعائره بصورة شرعية صحيحة.

آليات مجالس الحسين (ع):

لمجالس الحسين (ع) آليات موضوعية تُسهِم في إثراء المستمع إثراءً فكرياً وعقائدياً، وتقربه من فهم الإسلام. فهي آليات متميزة:

1 - أن المخاطَب لا يُطلب منه أن يحضّر مادة الدرس، بل يكون ذهنه مهيّأً للإستفادة من مادة المحاضرة لأنه يعلم أن أصل الموضوع هو نعي الحسين (ع) عن طريق طرح موضوع التوحيد، والنبوة، والإمامة، ومعاني الأخلاق، والتضحية عند أهل البيت (ع).

2 – وطالما كان موضوع الحسين (ع) موضوعاً يتأثر به الإنسان عموماً، فهو لا يحتاج إلى وسيلة إيضاح، أو أداة تعين المحاضِر أو الخطيب في محاضرته. بل يكفي الخطيب ذكر سيرة الإمام (ع) وأخلاقه وعلمه وما أصابه يوم عاشوراء.

3 – أن هناك هدفاً واضحاً للإستماع، فهو بالإضافة إلى كونه معرفة وعلم، فهو واجب ديني يكسب المخاطَب من ورائه ثواباً وأجراً. فالذي يحضر المجالس الحسينية، إنما يحضر لما فيها من الثواب العظيم الذي ذكره أئمة أهل البيت (ع). وأئمة أهل البيت (ع) يذكّرون الناس بأن (من ذكّر بمصابنا فبكى وأبكى، لم تبكِ عينه يوم تعمى العيون)[540]، (... فأحيوا أمرنا فإنّ من جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب)[541].

4 – يَفهم المجلس الحسيني عادةً عامة الناس: المثقف وغير المثقف، العالِم والجاهل، الفقير والغني، لأنه سرد تأريخي لقصة أخلاقية مأساوية، ولأنه عرض إنساني لأسرة هاشمية لها مكانتها بين المسلمين، وهي أسرة النبي محمد (ص)، وأحفاد خاتم الأنبياء (ص). فهي أسرة جمعت العلم،

---

[540] أمالي الشيخ الصدوق ص 131.

[541] بحار الأنوار ج 44 ص 282.

والنسب، والدين، والأخلاق، والتضحية. فإذا طُرِحتْ تلك الفضائل في خطبة واحدة فإنها تجمع الناس على الإلتقاء لسماعها.

فالقصة ليست غريبة على مسمع العقل البشري الذي يفهم معاني التضحية والإيثار، ولا غريبة عن مشاعر الإنسانية التي تتحسس لمعاني الألم والمعاناة، ولا غريبة عن طبيعة الإنسان الذي يمتلك أسرة فيها القاصرين من أطفال ونساء وشيوخ.

5 – المخَاطبين في مجالس الحسين (ع) يفهمون المعاني التي تبثّ ضمن مجموع الكلمات، وهي معاني عدم قبول الظلم ورفض الإنحراف في مجتمع خاتم الرسل (ص).

فإن كان الحاكم الظالم باطشاً سطوته على الناس في زمنٍ ما، فإن مجلساً من مجالس الحسين (ع) يمكن أن يؤثر تأثيراً بالغاً عليهم. وإن كان الحاكم عادلاً وتوفرت حرية التعبير الديني، فإن تلك المجالس تبقى مدارس لتعليم الناس وتهذيبهم وتقريبهم إلى الله تعالى.

نحن بحاجة كمخاطَبين في قضية مجلس الإمام الحسين (ع)، إلى إدراك عقلي واضح لمجريات الواقعة وعللها وخاتمتها. وإذا تم ذلك فإن الذاكرة الجماعية للموالين لأهل البيت (ع) تبقى حية راسخة لا تزعزها رياح الظلم والطغيان على مدى الأجيال.

6 – قرّبت مجالس الحسين (ع) المسلمين من أتباع أهل البيت (ع) بعضهم البعض، فطالما كانت القصة واحدة وأبطالها هم نفس الأبطال،

فإن سردها بلغات مختلفة سوف لا يغير من أهدافها. وهنا أصبح المسلم الذي أحب الحسين (ع) وتضحيته يبكيه بلغته الخاصة به عربية كانت أو هندية أو فارسية. لقد هدمت واقعة الطف وتضحيات الإمام الحسين (ع) جدار القومية والوطنية والعرقية، وأصبح الجميع يفهمون معاني التضحية والإيثار من مصدر واحد يتعلمون منه ويبكونه ويبنون حياتهم على التقرب منه، وبالتالي التقرب من الله عزّوجل.

7 – قربّت مصطلحات واقعة الطف، والتي أستخدمت بكثرة في مجالس الحسين (ع) الإدراك الشيعي إلى أصول الإسلام وفروعه. ومن تلك المصطلحات: الإمامة الشرعية مقابل الخلافة الوراثية، الهداية مقابل الضلال، ذرية النبي (ص) مقابل ذرية أبي سفيان، طلب الإصلاح في أمة محمد (ص) مقابل الفساد فيها، التضحية والإيثار مقابل التسلط والإستئثار، السلم مقابل الحرب، الصبر مقابل الجزع، السلّة (الموت) مقابل الذلّة، الإستشهاد بكرامةٍ مقابل الحياة بذلٍ، الصلاة في وقتها تحت تطاير السهام مقابل عدم الصلاة، عدم الإستعانة إلا بالله مقابل الإستعانة بالظالمين، ونحوها. وفهم الإصطلاحات مهم في فهم أي علمٍ من العلوم. وبنفس الدرجة فإن فهم المصطلحات الدينية مهم في فهم الدين بأحكامه وأخلاقه ومبادئه.

8 – أن الفهم والإصغاء إلى مجلس الحسين (ع) يمثَّل بالحافز–الإستجابة في النظرية الشرطية. أي أن مجرد إقتراب أيام محرم من كل

سنة يبدأ الذهن الشيعي بالإستعداد لإستقبال قضية الحسين (ع). فأيام محرم متمثلةً بمجالس الحسين (ع) تمثل الحافز، وإستقبال الذهن يمثل الإستجابة. ولذلك تلمس أن بكاء الناس على مصيبة الحسين (ع) أكثر في محرم من بقية الأيام. وتَقَبُل الناس لمعاني التضحية والإيثار في محرم من كل عام أكثر من غيره من الشهور. ذلك لأن الخطابة لا تعني الكثير ما لم يتقبلها الذهن، والكلمات لا تدخل في الذهن ما لم يفهمها الإنسان ويربط معانيها بعضها ببعض.

9 – وحتى تصل رسالة الحسين (ع) بشكلها الصحيح إلى المخاطَبين على مدى القرون الماضية والآتية، كان لابدّ أن يُعرض نسيج الواقعة متكاملاً من خلال سرد حياة الإمام (ع) وأقواله، وربطها بوصية رسول الله (ص) بالحسنين (ع) وأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وشرح طبيعة رسائل أهل الكوفة له، ومقتل سفيره إلى الكوفة مسلم بن عقيل، وما جرى له في الغاضرية يوم العاشر من محرم الحرام سنة 61 هـ.

كل تلك الإحداث منسوجة نسجاً دقيقاً من حيث بلاغة الإمام (ع)، وكمال سيرته في قضايا التوحيد والنبوة والإمامة. وتلك الأحداث كانت منسوجة أيضاً من خلال ربط حياته (ع) مع النبي (ص) وهو صغير بحياته اللاحقة وهو يجود بنفسه (ع) في ساحة كربلاء. وهكذا فَهِمَ الناس فكره ونظرته إلى الحياة والوجود تحت ظل الدين، وفَهِمَ الناس أيضاً ثقته المطلقة بالله تعالى وحسن قضائه.

10 – تقام مجالس الحسين (ع) عبر خطيب أو محاضر يتكلم، فالمجلس الحسيني يختلف عن المكتبة العامة التي تقدم لك كتاباً تقرأه، ثم تغادر المكتبة.

ففي المجلس الحسيني هناك:

أ – الصوتُ الحيُّ: صوتُ شخصٍ يتكلم، وهذا يعني أن المتكلم يستطيع أن يغيّر لهجة الخطابة، وطريقة العرض، ولحن القول بما يناسب المقام من حزن أو حماسة أو أمل. وربما يقرأ أبياتاً من شعر عمودي فيه عبرة. والمتكلم غالباً ما يوضح العبارة إذا شعر بأن جمهوره وجد صعوبة في فهمها.

ب – الوقتُ المحدد: تأخذ المحاضرة وقتاً محدداً أي تبدأ بساعة معينة وتنتهي بوقتٍ محددٍ، وهذا وقتٌ حقيقي. بمعنى أن المحاضِر أو الخطيب المثالي يتكلم بوتيرة معينة، وهي غالباً أسرع من قراءة متقطعة لكتاب أو نحوه. وهنا يكون التركيز والإهتمام على أشدّه من قبل المخاطَبين، بشرط أن لا ينصرف إهتمامهم إلى شيء آخر، فيفقدوا فهم الموضوع. ولذلك يكون الوقت ضابطاً يضبط أذهان الحضور بجوهر الموضوع.

ج – إيصالُ الفكرة: إهتمامُ الخطيب بإيصال الفكرة، فالخطيب يهتّم بإيصال الفكرة، بأي أسلوب لغوي كان، فمرةً يتكلم بالفصحى، وتارةً ينعي الحسين (ع) بلهجة البلد، وثالثةً بالشعر. والأصل أن هدفه هو إيصال الفكرة الخاصة بمظلومية الحسين (ع) إلى مستمعيها.

2- زيارة الإمام الحسين (ع):

كان الحث على زيارة الحسين (ع) في كربلاء من الاساليب التي استثمرها أئمة أهل البيت (ع) في إذكاء رسالة الإمام (ع) في الإصلاح، وجعلها متوقدة دوماً.

ومنها دعاء الإمام الصادق (ع) في سجوده، رواه معاوية بن وهب: (اللهم يا من خصنا بالكرامة، ووعدنا بالشفاعة، وخصنا بالوصية، وأعطانا علم ما مضى وعلم ما بقي، وجعل أفئدة من الناس تهوي إلينا اغفر لي ولأخواني وزوار قبر جدي الحسين الذي أنفقوا أموالهم وأشخصوا أبدانهم رغبة في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيك، وإجابةً منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدونا، أرادوا بذلك رضاك. فكافئهم عنا بالرضوان، وأكلأهم بالليل والنهار، وأخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلّفوا بأحسن الخلف، وأصحبهم وأكفهم شرَّ كلِ جبارٍ عنيدٍ، وكل ضعيف من خلقك وشديد، وشر شياطين الأنس والجن.

وأعطهم أفضل ما أملوه في غربتهم عن أوطانهم. وما آثرونا به على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم. اللهم إنّ أعداءنا عابوا عليهم خروجهم إلينا فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنا.

اللهم ارحم تلك الوجوه التي غبّرتها الشمس. وارحم تلك الخدود التي تقلبت على حفرة أبي عبد الله الحسين. وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا. وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا. وارحم تلك

الصرخة التي كانت لنا. اللهم إني أستودعك تلك الأنفس والأبدان حتى توفيهم على الحوض يوم العطش الاكبر)[542].

ولما استكثر معاوية بن وهب هذا لزوار الحسين (ع)، قال له الإمام الصادق (ع): (إن من يدعو لزوار الحسين في السماء أكثر ممن يدعو لهم في الأرض)[543].

ولم يتوقف الإمام الصادق (ع) عند الدعاء لزوار الحسين (ع)، بل كان يسأل أصحابه عن زوار سيد الشهداء (ع). فيقول (ع) لحماد: (بلغني أن أناساً من أهل الكوفة وقوماً آخرين من نواحيها يأتون قبر أبي عبد الله في النصف من شعبان، فبين قارئ يقرأ القرآن، وقاصّ يقصّ، ومادح لنا، ونساء يندبنه).

فقال حماد: قد شهدت بعض ما تصف.

قال (ع): (الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا...)[544].

وقد ورد في الروايات ما يؤكد على زيارة الحسين (ع) والبكاء فيه:

منها: قال سيد الشهداء (ع): (أنا قتيل العبرة. قتلت مكروباً. وحقيق عليَّ أن لا يأتيني مكروب قط إلا ردَّهُ اللهُ وأقلبَه الى أهله مسروراً)[545].

---

542 كامل الزيارات ص 116.

543 ثواب الأعمال – الشيخ الصدوق ص 54.

544 كامل الزيارات ص 325.

545 المصدر السابق ص 109.

ومنها: ذَكَرَ العلوي الشجري (ت 445 هـ) في كتابه (فضل زيارة الحسين) حديثاً يرفعه الى الحسين (ع) وهو يسأل رسول الله (ص): يا ابتاه ما لمن زارنا؟ فقال (ص): (يا بني من زارني حياً وميتاً، ومن زار أباك حياً وميتاً، ومن زارك حياً وميتاً كان حقاً عليّ أن أزوره يوم القيامة فأخلصه من ذنوبه، وأدخله الجنة)[546].

زيارة الإمام (ع): الدليل العقلي

لاشك إن زيارة مرقد الإمام الحسين (ع) تخص الجماعة غالباً، فللمكان الشريف أهمية في قلوب المؤمنين. فهنا جملة نقاط مختصرة نعرضها بخصوص زيارة الإمام الحسين (ع):

1 – أن هدف زيارة الحسين (ع) هو ترسيخ الذاكرة الإجتماعية بواقعة الطف، وإلهاب عاطفة حب أهل البيت (ع) لدى الناس. وتعني الزيارة أن الزائر لا ينسى تلك الواقعة، ولا يجهل التضحيات التي قُدمت فيها من أجل الدين.

2 – تجلب الزيارة غالباً أفراداً من مناطق جغرافية مختلفة، فهي وسيلة من وسائل تجميع المحبين أو الموالين لأهل البيت (ع) في منطقة تذّكِرَهُم بالواقعة، وأحداثها، ورجالها.

3 – من شروط زيارة مرقد الإمام (ع) قراءة الزيارة، وهي تأكيدٌ على أصول الدين في التوحيد، والنبوة، والإمامة، والمعاد يوم القيامة، والعدل

---

[546] الكافي ج 4 ص 548.

الآلهي. وفيها أيضاً تذكيرٌ بحياة الإمام (ع) وما عاناه في سبيل نشر الدين والثبات على ذلك. ففي زيارة وارث[547] تذكيرٌ بصفات الحسين (ع)، الذي ورث العلم والمعرفة عن الأنبياء (ع)، والذي أطاع الله تعالى طاعة مطلقة، والذي جاهد في سبيل الله تعالى.

ثم يقوم الزائر بإشهاد الله عزّوجلّ وملائكته ورسله بأنه مؤمن بخط الحسين الشهيد (ع) الذي هو خط الإسلام ورسالته.

4 - إنّ روحية الإمام الحسين (ع) تهيمن على كربلاء اليوم، كما أن روحية رسول الله (ص) تهيمن على المدينة المنورة. ففي كل خطوة تخطوها في المدينتين تلمس وتستشعر بوجودهما، وكأنهما أحياء مصداقاً لمنطوق الآية الشريفة: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[548].

5 - أصبح مرقد الإمام الحسين (ع) مؤسسة فكرية ترفد المجتمع بالطاقات، بل أصبح رمزاً عالمياً للأحرار في كل زمان ومكان، لأن تضحيته كانت فريدة من نوعها، ولا يمكن أن تقاس بأية حرب أخرى في التاريخ الإنساني.

لو درستَ المجتمعات الإنسانية المختلفة لرأيتَ أنها تبحث عن شخصية تلهمها البطولة والإباء، وعدم الخضوع للظالم، وعدم الخنوع للذل،

---

[547] زيارة وراث من الزيارات الخاصة بالإمام الحسين (ع) ذكرها الإمام الصادق (ع) (مصباح المتهجد ص 717).

[548] سورة آل عمران: الآية 169.

وحب الموت من أجل إحياء الأجيال المتعطشة للبذل والتضحية. لقد حبانا الباري عزوجل بنعمة عظيمة أسمها نعمة الإمام الحسين (ع).

6 – لا تعني زيارة الإمام الحسين (ع) أننا نزور قبراً لميتٍ، بل نحن نزور شهيداً حياً بنص القرآن الكريم (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)[549]. ونحن البشر نحتاج في حياتنا إلى رمز ديني يجمع بين التقوى والعلم والتضحية. ولابد أن نقتدي بهذا الرمز العظيم الذي ضحى بنفسه وبأهله وأصحابه من أجل الدين.

وكل من زار الحسين (ع) في مرقده هو مسلمٌ موحّدٌ يؤمن بالله تعالى رباً خالقاً، وبمحمدٍ (ص) رسولاً خاتماً، وبالحسين (ع) إماماً. فتلك الزيارة تقرب الزائر من ربه وخالقه تعالى.

7 – يمثّل الإمام الحسين (ع) اليوم رسالة السلام إلى البشرية، لأنه لم يأت إلى الكوفة على أساس الحرب أو القتال، بل جاء إلى الكوفة من أجل إصلاح أمة جده المصطفى (ص)، إلا أنهم قتلوه (ع)، وسلبوه، وسبوا عياله. وقد أقتصّ الله من قتلته. ولكن المفترض أن نفهم رسالة الحسين (ع) على أساس أنها رسالة إصلاح للأمة، ورسالة سلام وهداية أكثر من كونها رسالة قتل وإنتقام.

8 – تحرِّك زيارة الإمام الحسين (ع) القيّم الأخلاقية عند الزائر، فهو يبذل ماله ووقته من أجل أن يذهب إلى مدينة نائية عن مدينته ليمضي فيها وقتاً

[549] سورة البقرة: الآية 154.

يستلهم فيه معاني التضحية والوفاء. فكربلاء التي تضم في أحشائها جسد الحسين (ع)، هي مدينة التاريخ والعبر والدين والعبادة.

9 – أن تأكيد أهل البيت (ع) على زيارة الحسين (ع) كان من أهدافه أن يكون الحسين (ع) جزءً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. فبمجرد التفكير في الزيارة والإعداد لها يصبح الإمام الحسين (ع) جزءً من حياتنا الدينية والدنيوية معاً.

ثالثاً: الإرث العقلي للطف: المكان

ما تركه الإمام الحسين (ع) لنا من إرث هو المكان. وتتبع أهمية المكان إلى حقيقة أن الزمن يتغير، لكن المكان يبقى ثابتاً. فقد لا نعيش في الزمن الماضي، إلا أن المكان يكون حاضراً في حياتنا. ونستطيع أن نستصحب المكان معنا إينما ذهبنا، وهو أخذ قطعة صغيرة منه، والسجود عليها في عبادتنا لله تعالى إينما كنّا. فهنا نبحث: السجود على تربة الحسين (ع)، وأهمية المكان وشرفه، ومرقد الحسين (ع).

1- السجود على تربة الحسين (ع):

ورد عن النبي (ص) قوله: (لقد جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)[550]، فالسجود في صلاةٍ واجبةٍ أو مستحبةٍ لا يتم إلا على أرض طاهرة. ومن الاساليب التي اتبعها أئمة أهل البيت (ع) للتعريف بمظلومية

---

[550] صحيح البخاري ج 1 ص 149، 190.

سيد الشهداء (ع) هو أمرهم بالسجود على تربة طاهرة من كربلاء. وتلك تربة طهرها الله عزّ وجلّ بأقدام سيد الشهداء (ع) وأهل بيته وأصحابه، فهم "سادة الشهداء لا يسبقهم سابق ولا يلحقهم لاحق"[551]. وهي شاهدٌ على سيرتهم الطاهرة، وعبادتهم لله تعالى، وسجودهم عليها، وذكرهم وتسبيحهم لخالقهم العظيم.

وكان صحابة رسول الله (ص) يسجدون على الحصى، وكانت حرارة الطقس تدفعهم أحياناً إلى الاحتفاظ بالحصى لحين موعد صلاتهم، ومنهم: جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر.

يقول جابر بن عبد الله: "كنت أصلي الظهر مع رسول الله (ص) فآخذ قبضة من الحصى ليبرد في كفي، أضعها لجبهتي أسجد عليها لشدة الحرّ"[552]. وعلّة السجود على الحصى هو أن الحصى جزء من الأرض وحكمه حكم التراب. وكانوا يحتفظون بالحصى، فإذا قدِمتْ الصلاة صلّوا عليه.

يقول أنس بن مالك: "كنا نصلي مع رسول الله (ص) في شدّة الحر فيأخذ أحدنا الحصباء[553] في يده، فإذا برد وضعه وسجد عليه"[554].

ويقول ابن عمر: "مُطرنا من الليل فخرجنا لصلاة الغداة[555]، فجعل الرجل يمرّ على البطحاء، فيجعل في ثوبه من الحصاء فيصلّي عليه"[556].

---

[551] كامل الزيارات ص 270.

[552] مسند أحمد ج 3 ص 327.

[553] الحصباءُ: صغارُ الحجارة.

[554] السنن الكبرى – البيهقي ج 2 ص 106.

اذن، كانت تعليمات أهل البيت (ع) باستحباب السجود على تربة طاهرة من كربلاء منسجم مع السنّة النبوية المطهرة، وتذكرة معنوية لما جرى لعترة النبي (ص) في كربلاء.

التربة: الدليل العقلي

للتربة أهمية خاصة عند الإنسان، فنحن نحب المكان الذي ولدنا فيه، ويسمى مسقط رأسنا؛ ونحترم المكان الذين يدفن فيه الإنسان ويسمى مرقدنا، فإن كان المدفون شهيداً، عطرّت شهادته ذلك المكان. والتراب مهم في الفكر الديني، كما قال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ)[557]، فالإنسان يرتبط بالتراب، منه خُلِق، وعلى ظهره عاش، وفي داخله دُفِن ورقد.

كربلاء في السنة الحادية والستين للهجرة، حيث استشهد الإمام الحسين (ع)، كانت أرضاً وزمناً؛ حيث كانت معركة الطف محددة بزمان ومكان. إنصرم الزمان وبقي المكان شاخصاً لما حصل. وعندما أخذ الإمام السجاد (ع) حفنة من تراب كربلاء ليصلي عليها لربه الواحد الأحد، إنما أخذ جزءً من المكان الذي وقعت فيه تلك الواقعة الكبرى. وطالما تصرّم

---

[555] صلاة الغَداة: صلاة الفجر. والغَداةُ: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

[556] السنن الكبرى ج 2 ص 440.

[557] سورة طه: الآية 55.

عنا زمن الطف، فلا يفوتنا أن يكون مكان الطف (وهو تربة كربلاء) معنا نصلي عليه، ونسجد لله الواحد الأحد القهار من خلاله.

إنّ السجود على تربة طاهرة نظيفة من تراب كربلاء هو إحترام وتقدير للتضحيات التي قُدمّتْ على تلك التربة من قبل أئمة أهل البيت (ع). وأنت تلمس تربة كربلاء وتصلي عليها لله تعالى، كمن تلمس كتاباً أخلاقياً وتحتفظ به تقديراً للفضائل الأخلاقية التي رواها الكتاب. ولو كان في كربلاء حصباً أو صخوراً أو حصىً لأحتفظتَ بواحدةٍ منها تقديراً لأبطال الطف، ولسجدتَ لله تعالى عليها كلما حان وقتُ صلاةٍ.

حُرِمَ الحسينُ (ع) من صلاة ظهر عاشوراء على تربة كربلاء، فصلّى قائماً صلاة الخوف والسهام تتطاير من حوله، وربما أصابه شيءٌ من تلك السهام في ادائه تلك الصلاة، فكانت صلاةً فريدةً في التاريخ. ولكن الله تعالى أكرمه بصلاة الملايين من المسلمين من بعده (ع) على نفس التربة التي وقف عليها ولم يستطع أن يمرّغ جبهته (ع) بالتراب سجوداً لله تعالى. تلك هي كرامة المكان التي أكرمها الله تعالى للحسين (ع).

وإذا أخذتَ كميةً من تربة الحسين (ع)، فإنك ستشعر أن الحسين (ع) معك بروحه وفكره أينما ذهبتَ. تسجد عليها وتتبرك بها كما كان يفعل الإمام زين العابدين (ع)، وتذكر قوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)[558].

---

[558] سورة البقرة: الآية 154.

التربة والمكان:

للمكان، من الناحية الفلسفية، أبعاد وفيه مادة. نعني بأبعاد المكان هي الأبعاد الثلاثية من طول وعرض وأرتفاع، ونعني بالمادة أن الأرض تحوي في أحشائها شيئاً. وظاهر المكان أنه قطعة من الأرض يتجمع الناس عليها. هذا هو الظاهر. لكن هناك أماكن لها خصوصية شريفة، ونسيم عطر، وتاريخ مشرق، خذ المسجد الحرام في مكة المكرمة مثلاً، ومسجد النبي (ص) في المدينة المنورة، ومرقد الإمام علي (ع) في النجف الأشرف، ومرقد الإمام الحسين (ع) في كربلاء، فإنك تستنشق ذلك العطر الزكي، وتستذكر ذلك التاريخ المشرق بين ثنايا المكان.

وإذا كانت كربلاء مكاناً أختبرتْ فيه تاريخاً متميزاً حيث وقعت الواقعة الدموية الشهيرة؛ فإنها تشرفتْ بضم جسد الحسين (ع) في أحشائها. فقد تطّهر ذلك المكان بطهارة دفن الحسين (ع) فيه لأنه سيد الشهداء (ع)، وابن سيدة نساء العالمين، وحفيد خاتم الأنبياء (ص).

شرفُ المكان:

ومع أن كربلاء منطقة جغرافية، إلا أن لها معانٍ فكرية ودينية. فالمكان – على الصعيد الديني – تكون له قدسية بأحد طريقين:

الأول: إما بالجعل الآلهي (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا...)[559] أي أن الله تعالى جعل البيت الحرام في مكة، وهي قطعة من الأرض المباركة، مكاناً يثيب إليه الناس كل عام.

الثاني: وإما بمكانة الراقد فيه، كمرقد رسول الله (ص) في المدينة المنورة، ومرقد أئمة أهل البيت (ع) في النجف وكربلاء والكاظمين وسامراء وطوس ونحوها. وإلى ذلك قال النبي (ص): (من زارني بعد مماتي كمن زارني في حياتي)[560].

ويبقى المكان شامخاً مع مرور الزمن وذهاب الناس ومجيء آخرين، فعلاقتنا بالمكان علاقة أبدية لا تزول. ذلك أن كربلاء أستقطبت على مر الدهور والعصور علماء الفكر والدين، وفطاحل الشعراء والمبدعين الذين جادت قريحتهم شعراً وفكراً تمجيداً لسيد الشهداء (ع) ودوره في تلك البقعة الطاهرة التي شرفها مجيئه لها وإستشهاده فيها.

ومع تطور المواصلات وأساليب الأتصال في الحياة الحديثة، إلا أن المكان بقي على أهميته، بل أزدادت أهميته، وبات الناس يؤمونه من كل حدبٍ وصوبٍ ليس لكونه قطعة من الأرض فحسب بل لأن له شأناً فكرياً، ودينياً متميزاً.

---

[559] سورة البقرة: الآية 125.

[560] سنن الدارقطني ج 2 ص 278.

المكان والقوة الروحية:

يرتبط المكانُ بالتاريخ والفكر والعقيدة، فسرعان ما تشعر بالمكان عندما يذُكر الأسم المرتبط به. تشعر بمكة عندما يُذكر أسمها وتستشعر حج بيت الله الحرام. وتشعر بالمدينة المنورة عندما يُذكر أسمها، وتقوم بزيارة رسول الله (ص)، وتتذكر سيرته (ص). وتشعر بكربلاء عندما يُذكر أسمها، وتتذكر الإمام الحسين (ع) ومقتله. وتربة كربلاء ورد ذكرها في روايات عديدة عن رسول الله (ص):

منها: عن أم سلمة أن رسول الله (ص) اضطجع ثم استيقظ ثم اضطجع وبيده تربة حمراء يقبلّها، فقلتُ: ما هذه التربة يا رسول الله؟ قال (ص): (أخبرني جبرئيل (ع) أن هذا [يعني الحسين] يقتل بأرض العراق، فقلت لجبرئيل أرني تربة الأرض التي يُقتل بها، فهذه تربتها)[561].

ومنها: أن جبرئيل أتى النبي (ص)، وأنبئه ضمن حديث: (...أن أمتك ستقتل هذا [يعني الحسين] بأرض يقال لها كربلاء ...)[562].

فللمكان إذن جذوراً تاريخيةً لا يمكن إقتلاعها. فقد تستطيع تزوير حقائق التاريخ بالتقادم، لكنك لا تستطيع تزوير حقيقة المكان. وقد حاول حكام بني أمية ومن بعدهم بنو العباس تزوير حقائق التاريخ حول واقعة الطف، إلا أنهم لم يستطيعوا تزوير حقائق المكان. فقد حاول الخليفة

---

[561] المستدرك على الصحيحين ج 4 ص 440. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على الشيخين ولم يخرجاه.

[562] مجمع الزوائد – الهيثمي ج 9 ص 189.

المتوكل (ت 247 هـ) إزالة قبر الحسين (ع) وتحويل مجرى نهر العلقمي لمحو أثره (ع)، لأنه أدرك أهمية المكان وقدسيته، إلا إنه لم يفلح في ذلك، ولن يفلح أبداً.

والمكان المشرَّف يمتلكُ قوةً روحيةً، فإنك عندما تدخل حرم مكة محرِماً تشعر بقدسية المكان وطهارته. وعندما تدخل مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة تشعر بعظمة المكان، وتحس بالوجود الغيبي بين حبات ترابه. وكذلك مراقد أئمة أهل البيت (ع)، وبالخصوص مرقد الإمام الحسين (ع)، فإنك تستشعر بقوة روحية من الله عزّوجل لا تستشعرها في مكانٍ آخرٍ.

إذن فالمكان المشرَّف يمثل رمزاً من الرموز الدينية. فقوة أحداث الطف سنة 61 هـ هي التي صنعت قوة كربلاء، وطهارة الإمام الحق (ع) هي التي صنعت طهارة كربلاء. ولولا تلك الأحداث وقوتها وطهارة الإمام (ع) وقربه من الله تعالى لما كان للمكان قيمةٌ تذكر.

وأصبح مرقد الحسين (ع) مكاناً يزوره الأحرار من مختلف الشعوب لا بتكليف شرعي فحسب، بل بتكليف عقلي أيضاً. لأنهم يرونه موطِن الأباء والشموخ الذي فضّل التضحية بحياته (ع) وحياة أهله على الخضوع للظلم والذل.

أصبح مرقد الإمام الحسين (ع) وبعد مئات من السنين، المكان الذي يرقد فيه المحارِب ليستريح من ظلم الدنيا وطواغيتها، ثم يستنهض الهمم ليقوم مرة أخرى مكملاً المشوار الطويل لمحاربة الظالمين والفاسقين

في الأرض. وأصبحت الفكرة التي حملها الحسين (ع) في حياته شرارةً تُلهِب النار تحت أقدام الظالمين.

وأصبح المكان، بفضل تضحية الإمام الحسين (ع)، لا مجرد قضية جغرافية بل فكرة عقلية لبناء الشعوب وتحقيق آمالها.

آداب المكان الشريف:

لدخول المكان الشريف آداب وسنن وضعتها لنا السنّة المطهرة، ينبغي مراعاتها، وهي:

1 - أن المكان المشرَّف في الفكر الديني هو المكان الذي وقعت فيه واقعة عظيمة متوازية مع تعاليم الدين وأسسه الأخلاقية. فالمسجد الحرام يضمّ الكعبة التي بناها نبي الله إبراهيم (ع) وإبنه إسماعيل (ع)، وهو المكان الذي صلى فيه إبراهيم (ع) لله تعالى، وأمتُحِنَ بنحرِ إبنه لكن الله تعالى فداه بذبح عظيم. وقد جعل الله تلك البقعة الطاهرة مثابةً للناس.

والمسجد النبوي في المدينة المنورة هو مسجد رسول الله (ص) وبيته ومرقده، وهو المكان الذي كان ينزل فيه جبرئيل بوحي السماء، وفيه نزل القرآن المجيد.

وكربلاء حيث وقعت واقعة الطف واستشهد فيها أهل بيت النبوة (ع) وأصحابهم، وفي تربتها رقدوا. فعطّرَ وجودُهم تربةَ ذلك المكان.

وواقعة الطف تمثل تلك الأخلاقية العظيمة للدين في التضحية والإيثار، والإمامة. وأفضل الأعمال لتجسيد تلك الطهارة وذلك الفكر:

أولاً: زيارة المكان بأسلوب ذكره أئمة أهل البيت (ع) من لبس الثياب النظيفة، والوضوء، وغسل الزيارة، وقراءة الزيارة، والصلاة عند الحسين (ع)، بل والصيام لله ثلاثة أيام متوالية إستحباباً قبل الزيارة. ومنه التواضع، والتذلل، والتخشع، والمشي مشي العبد الذليل إقتداءً بسيد الشهداء (ع) مع ربه.

ثانياً: أخذ تربة طاهرة من ذلك المكان معك لتصلي عليها لله عزوجل، فتُذكّركَ بمصاب سيد الشهداء (ع)، وتفانيه من أجل الإسلام.

2 - أن المكان المشرَّف يتضاعف فيه ثواب العمل الديني، كالصلاة والدعاء. فيُقاس المكان بمقياس عدد ذكر الله، وعدد مرات إقراره بالتوحيد والنبوة، من خلال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعدد الركعات التي تؤدى، وعدد مرات ذكر أسماء الأنبياء والرسل (ع)، وذكر الجنة والنار.

تصور وقد سبحتَ في فضاء خارجي فوق كربلاء، ووهبك الله سماع المصلّين في كربلاء لسمِعتَ كلمات التكبير، وشهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ومرات الإستعانة، والإستعاذة بالله تتصاعد لتكسر حجاب الفضاء وطوق الجاذبية. وكفى بذلك المكان شرفاً أن شرّفه الإمام سيد الشهداء (ع)، ابن بنت رسول الله (ص)، وحبيب المصطفى محمد (ص).

3 - أن المكان المشرَّف يعبّر في أغلب الأحيان عن الإنتماء الديني والأخلاقي عند الإنسان. فسيد الشهداء (ع) يشرّف جميع المسلمين الأحياء

على الأرض اليوم، ذلك أن سيرته في الحياة، وعلمه الجمّ، وتقواه، وإمامته الكبرى، يجعله شرفاً لكل مسلم ومسلمة.

2- مرقد الحسين (ع):

ومن الآثار الإجتماعية لواقعة الطف بقاء مرقد الإمام الحسين (ع) شامخاً يحكي قصة المأساة، وينقلها من أمسها التليد إلى يومها المثقل بالأمل. أقصد بها أمل الشفاعة لعشاق الحسين (ع) الذين لم تسنح لهم شروط التاريخ في المساهمة بنصرته (ع).

ومرقد الحسين (ع) نفس أرض المعركة في كربلاء. ولتلك الأرض اسماءٍ أخرى مثل: " الغاضرية، ونينوى، ومارية، وعموراء، ونواويس، وشاطىء الفرات، والطف، والحائر، ومشهد الحسين. واسم كربلاء أصبحت للبقعة المباركة، ولا تعرف إلا به. قال ياقوت: كربلاء بالمد، وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه في طرف البرية..." [563].

والمتواتر تاريخياً، ان الإمام علي بن الحسين السجاد (ع) دفن الاجساد الطاهرة مع الرؤوس في مواضعها المعروفة. فأصبح مرقد الحسين (ع) وأهل بيته وأصحابه موضع زيارة المحبين. خصوصاً وإنَّ أئمة أهل البيت (ع) حثوا أتباعهم على زيارة مرقده (ع) في كربلاء. فهي زيارةٌ للمبدأ، وتجديدٌ للعهد على البقاء في ولاية الله تعالى ونبيه (ص) وأهل بيته (ع).

---

[563] معجم البلدان ج4 ص 445.

ولما استفحل أمر الزيارة وكثرت الزوار، أمر المتوكل "بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث ويُبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فذُكِرَ أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق[564]، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه..." [565]. لكن لم يدم ذلك المنع طويلاً، فرجع الموالون إلى زيارة مرقد الحسين (ع).

روى الشيخ الطوسي بإسناده عن عبد الله الطوري، قال: "حججت سنة سبع وأربعين ومائتين، فلما صدرت من الحج صرت إلى العراق فزرت [قبر] أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) على حال خيفة من السلطان، ثم توجهت إلى زيارة الحسين (ع) فإذا هو قد حرث أرضه وأجرى فيها الماء وأرسلت الثيران والعوامل في الأرض، فبعيني وبصري كنت أرى الثيران تساق في الأرض فتنساق لهم حتى إذا حاذت مكان القبر حادت عنه يميناً وشمالاً فتضرب بالعصى الضرب الشديد فلا ينفع ذلك فيها ولا تطأ القبر بوجه ولا سبب ..." [566].

والملفت ان البقعة التي دفن فيها الحسين (ع) في كربلاء قد سميت بالحائر الحسيني. والحائر اسم فاعل من حارَ يحيرُ حيراً، من تحير الماء إذا اجتمع ودار. و" سُمي الموضع حائراً لأنه كلما هب النسيم على

---

[564] المطبقُ: السجن تحت الأرض.

[565] تاريخ الطبري ج 9 ص 185.

[566] أمالي الشيخ الطوسي ص 209.

سطحه تموجت المياه المحصورة فيه على شكل حلقات تتوسع الواحدة تلو الأخرى حتى تنتهي إلى أطراف الغدير فيتردد الماء ويتحير كأنه لا يدري كيف يجري أو أين يسير، وحيرة الماء بين الجوانب والأطراف ورجوعه بهذا النحو من أقصاه إلى أدناه في مجتمعه هي التي منحته اسم الحائر..." [567].

وإذا صدق هذا الرأي على الحائر الحسيني، فلا يمكننا إنكار العامل الغيبي في حفظ مرقد الحسين (ع) في الجزء اليابس الذي يحار فيه الماء فيشكل دائرة، بحيث لا يمس المرقد الطاهر لسيد الشهداء (ع). وتلك كرامة عظيمة تضاف إلى كرامات سيد شباب أهل الجنة.

الإستنتاج العام:

قدّمَ الإمام الحسين (ع) للأمة بتضحيته يوم عاشوراء إرثاً عقلياً لا يُقدّر بثمن. ذلك الإرث الثقافي كان على مستوى الإنسان فرداً وجماعةً، وكان على مستوى الأرض أيضاً. وفي ذلك ثلاثة أبعاد لما بعد الطف: الإنسان، والجماعة، والمكان.

1- الإنسان: يتأثر عقل الإنسان بتحريك مشاعره، ولذلك كان البكاء وسيلة من وسائل تنشيط العقل والفكر، أشار الإمام الحسين (ع) إلى

---

[567] تاريخ كربلاء وحائر الحسين (ع) – آل طعمة ص 26.

الإستعبار، فقال: (أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا استعبر)[568]. والإستعبار أو البكاء أثر من آثار التفكر في مصيبة كربلاء، ومن مقتضيات البكاء رقة القلب، وإذا رقّ قلب الإنسان الباكي خشعَ لله تعالى، وأذعن لأوامره ونواهيه.

والبكاء على مصيبة الحسين (ع) يعبّر عن حالة عقلية بتصور المصيبة، والإرتباط بها. ذلك البكاء يفصح عن رسالة الإحتجاج التي يبعثها العقل إستنكاراً لمصيبة الإمام (ع). ودمعة الباكي مهما كان حجمها تؤكد قضية الإرتباط به (ع)، وإلى ذلك أشار الإمام السجاد (ع) بأن المؤمن إذا (دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي (ع) دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفاً ...)[569].

والبكاء على الحسين (ع) إن كان إحتجاجاً على فعل بني أمية، أو حزناً عليه (ع)، أو ندماً على فقدانه (ع)، أو بكاءَ عملٍ فإنه يعني تحرراً من أجواء عالَم بني أمية الظالم المتوحش، وقدرةً على انتقاد حكام بني أمية أو أي حاكم ظالم يحكم المسلمين.

فأصبح العقل الشيعي، بفضل البكاء على الحسين (ع) يحملُ سلاحاً فعالاً ضد الظالمين، ويضمر قوةً عظيمة لا تهاب بطشهم، ولا تخشى إرعابهم.

---

[568] كامل الزيارات ص 108.

[569] بحار الأنوار ج 44 ص 281.

2- الجماعة: ومن وجوه ثقافة عاشوراء هو بكاء الجماعة، أي أن الموالين لأهل البيت (ع) يجتمعون ويتذاكرون المصيبة ويبكون عليها بكاءً جماعياً. ولذلك حثّ الإمام الباقر (ع) الجماعة على التلاقي (... بالبكاء عليه (ع) بعضهم بعضاً في البيوت، وليعزّي بعضهم بعضاً بمصاب الحسين)[570].

فكان الإرث الحسيني المقدّم إلى الجماعة هو مجالس الحسين (ع)، وزيارته. وتلك المجالس تستند على عالَم الصوت والخطابة والموعظة، فهي مدرسة للإصغاء والتعلم والفهم. وبكلمة أوضح فإن مجالس الحسين (ع) وسائل للمعرفة والعلم، وأثر من الآثار الجميلة التي تركها استشهاده (ع) لنا.

ففي مجالس الحسين (ع) أداةٌ ثقافيةٌ لتحريك العقل المسلم في إدراك واقعة الطف، وفهم مجرياتها، وعللها، وخاتمتها، وفي استيعاب الدروس المستفادة منها. فقد حقق استشهاده (ع) كل ما أراده من حيث حفظ الثقلين اللذين أوصى بهما رسول الله (ص)، وهما: القرآن الكريم والعترة الطاهرة، وفهم معنى الإمامة الشرعية مقابل الخلافة الوارثية الأموية، وفهم معنى التضحية والإيثار مقابل التسلط والإستئثار.

أما زيارته (ع) في مرقده، فهي تعبدٌ لله تعالى يُراد منه ترسيخ الذاكرة الإجتماعية للناس بواقعة الطف، وإلهاب عاطفتهم بحب أهل البيت (ع). وفي تلك الزيارة تأكيد على أصول الدين في التوحيد، والنبوة،

---

[570] كامل الزيارات ص 174.

والإمامـة، والمعـاد يـوم القيامـة، والعدل الآلهـي، وتذكيرٌ بحياة الإمـام (ع)، وسيرته الطيبة في وراثة العلم والمعرفة عن النبي (ص).

3- المكـان: تنبـع أهميـة المكـان مـن حقيقـة مفادهـا أن الـزمن يتغيـر، لكـن المكان يبقى ثابتاً لا يتغير. ومن الآثار الإجتماعية للطف بقاء مرقد الإمام الحسين (ع) شامخاً يحكي قصة كربلاء، وما حصل فيها سنة واحد وستين للهجرة.

ومكانٌ شريفٌ شرفه الله تعالى، كتراب كربلاء الذي طهّره وعطّره جسد الحسين (ع)، لابد أن تكون لـه قـوة روحيـة تستشـعر فيـه قـوة سـيد الشهداء (ع)، وثباته على مبدأه، رغم كل ما جرى عليه من آلام ومحن.

وطالمـا كـان للتربـة أهميـة خاصـة عنـد الإنسـان، فهـي تمثّلُ رمـزاً يحترمه الإنسان، ويجعله الدين مثابةً للناس للإستلهام من عبره ومعطياته. فنحن نحبُ المكان الذي ولدنا فيه، ونحترم المكان الذي نُدفن فيه، ونكرم المكان الذي دُفن فيه سيد الشهداء (ع).

وعندما أخذ الإمام السجاد (ع) بعد واقعة الطف بزمنٍ حفنـةً مـن تراب كربلاء ليصلي عليها لله تعالى، إنما أخذ جزءً من ذلك المكان. فكان السجاد (ع) قدوتنا فـي أن يكـون معنـا دائمـاً جزء مـن تلـك التربـة الطـاهرة نصلي عليها، ونسجد لله تعالى وحده على ذلك التراب الطاهر الذي يُشعرنا بـأن الإمـام الثالـث (ع) حبيـب رسـول الله (ص) معنـا بروحـه، وقوتـه أينمـا

ذهبنا. قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)[571].

والحمد لله رب العالمين.

[571] سورة البقرة: الآية 154.

مصادر التوثيق

إشارة مهمة:

أولاً: بسبب استخدام بعض المصادر بصورة متكررة مع اشتراكها بنفس العنوان، رمزنا لتلك الكتب بالرموز التالية:

1- مقتل الحسين (ع) للخوارزمي، برمز: (مقتل الحسين (ع) – ز).

2- مقتل الحسين (ع) لأبي مخنف، برمز: (مقتل الحسين (ع) – خ).

3- مقتل الإمام الحسين (ع) للمقرم، برمز: (مقتل الحسين (ع) – ق).

4- نهج البلاغة – شرح ابن أبي الحديد، برمز: (نهج البلاغة – ح).

5- نهج البلاغة – شرح محمد عبده، برمز: (نهج البلاغة – د).

6- نهج البلاغة – تعليق صبحي الصالح، برمز: (نهج البلاغة – ص).

ثانياً: تعني التاء بعد ذكر اسم المصنف، في فهرس المصادر: سنة وفاته. وإذا لم نتأكد من سنة وفاته، ذكرنا أنه من علماء القرن الهجري الذي عاش فيه.

ثالثاً: إذا كان تاريخ طباعة المصدر غير مثبت في المصدر المطبوع، فنكتب: بدون تاريخ.

المصادر:

1- القرآن الكريم.

2- الإحتجاج – أحمد بن علي الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري). قم المشرفة: مكتبة الشريف الرضي، 1380 هـ.

3- إحقاق الحق وإزهاق الباطل. القاضي نور الله التستري (ت 1019 هـ). قم المشرفة: مكتبة آية الله المرعشي، بدون تاريخ.

4- الأحكام السلطانية. علي بن محمد الماوردي (ت 450 هـ). القاهرة: دار الحديث، بدون تاريخ.
5- الإختيار لتعليل المختار. عبد الله بن مودود الموصلي (ت 683 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
6- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد. محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1399 هـ.
7- أسد الغابة في معرفة الصحابة. علي بن أحمد بن الأثير (ت 630 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1994م.
8- أعلام الدين في صفات المؤمنين. الحسن بن أبي الحسن الديلمي (من أعلام القرن السادس الهجري). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1436 هـ .
9- إعلام الورى بأعلام الهدى. الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ). النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، 1390 هـ .
10- إقبال الأعمال (أو الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة بالسنة). رضي الدين علي بن موسى بن طاووس (ت 664 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1996م.
11- الأمالي (أمالي الشيخ الصدوق). محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1400 هـ .

12- الأمالي (أمالي الشيخ الطوسي). محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت 460 هـ). طهران: دار الكتب الإسلامية، 1381 هـ .
13- أمالي الشيخ المفيد. محمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). بيروت: دار التيار الجديد – دار المرتضى، بدون تاريخ.
14- الإمامة والتبصرة من الخيرة. علي بن الحسين بن بابويه والد الشيخ الصدوق (ت 329 هـ). قم المشرفة: مدرسة الإمام المهدي (ع)، 1404 هـ.
15- أنساب الأشراف (جمل من أنساب الأشراف). أحمد بن يحيى البلاذُري (ت 279 هـ). تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي. بيروت: دار الفكر، 1996م.
16- إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد. فخر المحققين، محمد بن الحسن بن المطهر الحلي (ت 771 هـ). قم المشرفة: المطبعة العلمية، 1387 هـ .
17- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (ع). محمد باقر المجلسي (ت 1111 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2008م.
18- البداية والنهاية. إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774 هـ). بيروت: دار الفكر، 1986م.
19- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك). محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). بيروت: دار التراث، 1387 هـ .

20- تاريخ كربلاء وحائر الحسين (ع). عبد الجواد الكليدار آل طعمة. قم المشرفة: المكتبة الحيدرية، 1418 هـ .
21- تاريخ مدينة دمشق. علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت 571 هـ). تحقيق: عمرو بن غرامة. بيروت: دار الفكر، 1415 هـ .
22- تاريخ اليعقوبي. أحمد بن إسحاق بن جعفر (ت 292 هـ). تحقيق: عبد الأمير مهنا. بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2010 م.
23- تحف العقول عن آل الرسول (ص). الحسن بن علي بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع الهجري). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2002 م.
24- تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة (ع). سبط ابن الجوزي (ت 654 هـ). طهران: مكتبة نينوى الحديثة، بدون تاريخ.
25- ترجمة الإمام الحسين (ع) من تاريخ مدينة دمشق. علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت 571 هـ). تحقيق: محمد باقر المحمودي. قم المشرفة: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، 1414 هـ .
26- تفسير العياشي. محمد بن مسعود بن عياش (ت 320 هـ). تحقيق: هاشم رسولي. طهران: المكتبة العلمية الإسلامية، 1380 هـ .
27- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير). إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ). تحقيق: محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، 1419 هـ .

28- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب). محمد بن عمر الفخر الرازي (ت 606 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 2004 م.
29- تفسير المنار. محمد رشيد رضا (ت 1354 هـ). القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1990 م.
30- تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد. محمد بن الحسن الطوسي، شيخ الطائفة (ت 460 هـ). بيروت: دار التعارف، 1992م.
31- تهذيب التهذيب. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ). الهند: دائرة المعارف النظامية، 1326 هـ .
32- الثاقب في المناقب. عماد الدين بن حمزة الطوسي (من أعلام القرن السادس الهجري). تحقيق: نبيل علوان. قم المشرفة: أنصاريان، 1419 هـ.
33- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال. محمد بن علي بن بابويه القمي المعـروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: طليعة نور، 1431 هـ .
34- جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير). جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ). بيروت: دار الفكر، 1994م.
35- جامع الأخبار (معارج اليقين في أصول الدين). محمد بن محمد السبزواري (من أعلام القرن السابع الهجري). تحقيق: علاء آل جعفر. بيروت: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1993م.
36- جلاء العيون (حياة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام). محمد باقر المجلسي (ت 1111 هـ) كتبه باللغة الفارسية. ترجمه للعربية السيد عبد الله شبر بعنوان منتخب جلاء العيون. بيروت: دار المرتضى.

37- جواهر العقدين في فضل الشرفين. علي بن عبد الله الحسني السمهودي (ت 911 هـ). العراق: وزارة الأوقاف، 1984 م.
38- جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب (ع). شمس الدين بن الدمشقي الباعوني (ت 871 هـ). تحقيق: محمد باقر المحمودي. قم المشرفة: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، 1415 هـ .
39- الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة. الشيخ يوسف البحراني (ت 1186 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1363 هـ. ش.
40 – الخصال. محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1403 هـ .
41- الخلاف. محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1411 هـ .
42- دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام. القاضي النعمان المغربي (ت 363 هـ). تحقيق: آصف فيضي. مصر: دار المعارف، 1963م.
43- دلائل الإمامة. محمد بن جرير بن رستم الطبري (من أعلام القرن الرابع الهجري). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1988م.
44- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808 هـ). تحقيق: خليل شحادة. بيروت: دار الفكر، 1988م.

45- رجال الكشي (إختيار معرفة الرجال). شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). تحقيق: جواد قيومي. قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1426 هـ .
46- رسائل الشريف المرتضى. علي بن حسين المعروف بالشريف المرتضى (ت 436 هـ). قم المشرفة: دار القرآن الكريم، 1405 هـ .
47- روضة الواعظين. محمد بن الفتال النيشابوري (ت 508 هـ). تحقيق: غلام المجيدي ومجتبى الفرجي. قم المشرفة: دليل ما، 1423 هـ .
48- (كتابُ) سُليم بن قيس. التابعي سُليم بن قيس الهلالي (ت 76 هـ). تحقيق: محمد باقر الأنصاري. قم المشرفة: مطبعة الهادي، 1420 هـ.
49- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. عبد الملك بن حسين العصامي المكي (ت 1111 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م.
50- سنن ابن ماجة. محمد بن يزيد بن ماجة (ت 273 هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، بدون تاريخ.
51- سنن الدارقطني. علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (ت 385 هـ). تحقيق: الأرنوط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2004 م.
52- السنن الكبرى. أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت 458 هـ). تحقيق: محمد عبد القادر. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003 م.
53- سير أعلام النبلاء. محمد بن أحمد الذهبي (ت 748 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1985م.
54- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار (ع). القاضي النعمان المغربي (ت 363 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1431 هـ .

55- صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ). بيروت: دار ابن كثير، 2002 م.
56- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر). مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
57- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة. أحمد بن علي بن حجر الهيثمي (ت 974 هـ). تحقيق: عبد الرحمن تركي وكامل محمد. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997م.
58- صفوة الصفوة. جمال الدين عبد الرحمن الجوزي (ت 597 هـ). القاهرة: دار الحديث، 2000 م.
59- الطبقات الكبرى. محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد (ت 230 هـ). تحقيق: محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م.
60- عدة الداعي ونجاح الساعي. أحمد بن فهد الحلي (ت 841 هـ). تحقيق: أحمد الموحدي. إيران: دار الكتاب الإسلامي، 1407 هـ .
61- علل الشرائع. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: دار المرتضى، 2006 م.
62- (الإمام) علي بن الحسين (ع). الدكتور زهير طالب الأعرجي (معاصر). قم المشرفة: مطبعة ستارة، 1425 هـ .
63- العواصم من القواصم. محمد بن عبد الله بن العربي المالكي (ت 543 هـ). تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمود مهدي. بيروت: دار الجيل، 1987م.

64- عيون الأخبار. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ). مصر: دار الكتب المصرية، 1925 م.
65- عيون الأخبار وفنون الآثار (في تاريخ الإسماعيلية). إدريس عماد الدين القرشي (ت 872 هـ). مخطوطة مصورة من مكتبة الكونغرس في واشنطن.
66- عيون المعجزات. حسين بن عبد الوهاب (من أعلام القرن الخامس الهجري). النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، 1950 م.
67- غوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية. ابن أبي جمهور محمد بن علي الإحسائي (ت 909 هـ). تحقيق: مجتبى العراقي. قم المشرفة: سيد الشهداء (ع)، 1401 هـ.
68- فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ). مصر: دار الريان للتراث، 1986م.
69- الفتوح. أحمد بن أعثم الكوفي (ت 314 هـ). بيروت: دار الأضواء، 1991م.
70- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت 709 هـ). بيروت: دار القلم العربي، 1997م.
71- فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم (ع). إبراهيم الجويني (من أعلام القرن السابع والثامن الهجري). تحقيق: محمد باقر المحمودي. إيران: دار الحبيب، 1428 هـ .

72- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت 728 هـ). تحقيق: عبد القادر الارناوط. دمشق: دار البيان، 1985م.
73- الفصول المهمة في معرفة الأئمة. علي بن محمد بن الصباغ (ت 855 هـ). تحقيق: سامي الغريري. قم المشرفة: دار الحديث، 1422 هـ .
74- الفقه المنسوب للإمام الرضا (ع). سلسلة مصادر بحار الأنوار (1). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 2010 م.
75- الكافي (الأصول، والفروع، والروضة). محمد بن يعقوب الكليني (ت 329 هـ). تصحيح: علي أكبر غفاري. طهران: دار الكتب الإسلامية، 1365هـ.
76- كامل الزيارات. جعفر بن محمد بن قولويه القمي (ت 386 هـ). قم المشرفة: نشر الفقاهة، بدون تاريخ.
77- الكامل في التاريخ. علي بن محمد بن الأثير (ت 630 هـ). تحقيق: عبد الله القاضي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987 م.
78- الكامل في اللغة والأدب. محمد بن يزيد المبّرد (ت 285 هـ). القاهرة: دار الفكر العربي، 1997 م.
79- كشف الغمة في معرفة الأئمة (ع). علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت 692 هـ). بيروت: دار التعارف، 2012 م.
80- كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الإثني عشر (ع). علي بن محمد الخزاز القمي (من أعلام القرن الرابع الهجري). قم المشرفة: دليل ما، 1430 هـ .

81- كفاية الفقه (كفاية الأحكام). محمد باقر السبزواري (ت 1090 هـ). قم المشرفة: جامعة المدرسين، 1423 هـ .

82- كمال الدين وتمام النعمة. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1991 م.

83- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين علي المتقي الهندي (ت 975 هـ). بيروت: مؤسسة الرسالة، بدون تاريخ.

84- المبسوط. محمد بن أحمد السرخسي (ت 483 هـ). بيروت: دار المعرفة، 1993 م.

85- مثير الأحزان. ابن نما الحلي (ت 645 هـ). طبعة حجرية قديمة.

86- مجمع البحرين. فخر الدين الطريحي (ت 1085 هـ). بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 2007 م.

87- مجمع البيان في تفسير القرآن. الفضل بن الحسن الطبرسي (ت 548 هـ). بيروت: دار العلوم، 2005 م.

88- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807 هـ). القاهرة: مكتبة القدسي، 1994 م.

89- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (ت 571 هـ). محمد بن مكرم بن منظور (ت 711 هـ). دمشق: دار الفكر، 1984م.

90- المدوَّنة. مالك بن أنس (ت 179 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1994م.

91- المراسم العلوية في الفقه الإمامي. أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز الديلمي الملقب بـ (سلار) (ت 448 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1410 هـ.
92- مروج الذهب ومعادن الجوهر. علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 346 هـ). قم المشرفة: دار الهجرة، 1409 هـ .
93- المستدرَك على الصحيحين. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 2002 م.
94- مستدرَك الوسائل ومستنبَط المسائل. الميرزا حسين النوري (ت 1320 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1991م.
95- مسند أحمد. أحمد بن حنبل (ت 241 هـ). تحقيق: شعيب الأرنوط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001 م.
96- مصباح المتهجد وسلاح المتعبد. محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). طبعة إيران سنة 1896 م.
97- مطالب السؤول في مناقب آل الرسول (ص). كمال الدين بن طلحة (ت 652 هـ). بيروت: مؤسسة البلاغ.
98- معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة (ع). علم الهدى محمد بن المحسن الكاشاني (ت 1115 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1431هـ.
99- معجم البلدان. ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626 هـ). بيروت: دار صادر، 1995 م.
100- مقاتِل الطالبيين. علي بن الحسين بن محمد أبو الفرج الأصبهاني (ت 356 هـ). تحقيق: أحمد صقر. بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1998 م.

101- مقتل الحسين (ع) ومصرع أهل بيته (ع) وأصحابه في كربلاء. أبو مخنف (ت 158 هـ). الكويت: مكتبة الألفين، 1987 م.
102- مقتل الإمام الحسين (ع). عبد الرزاق المقرم (ت 1391 هـ). قم المشرفة: مكتبة الشريف الرضي، بدون تاريخ.
103- مقتل الحسين (ع). موفق بن أحمد المكي الخوارزمي (ت 568 هـ). تحقيق: محمد السماوي. قم المشرفة: أنوار الهدى، 1418 هـ .
104- الملل والنحل. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1992 م.
105- الملهوف على قتلى الطفوف. رضي الدين علي بن موسى بن طاووس (ت 664 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1993 م.
106- المناقب. ابن شهرآشوب المازندراني (ت 588 هـ). قم المشرفة: المطبعة العلمية، بدون تاريخ.
107- المنتَخب في جمع المراثي والخطب المشتهر بالفخري. فخر الدين الطريحي (ت 1085 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2003 م.
108- من لا يحضره الفقيه. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1986 م.
109- مهج الدعوات ومنهج العبادات. علي بن موسى بن طاووس (ت 664). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1994 م.
110- الميزان في تفسير القرآن. السيد محمد حسين الطباطبائي (ت 1402 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1997 م.

111- النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير، مجد الدين بن محمد (ت 606 هـ). بيروت: المكتبة العلمية، 1979 م.
112- النهاية في مجرد الفقه والفتاوى. محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (ت 460 هـ). قم المشرفة: مكتبة القدس، بدون تاريخ.
113- نهج البلاغة، من كلام الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). شرح ابن أبي الحديد المعتزلي (ت 656 هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: مكتبة البابي الحلبي، 1965 م.
114- نهج البلاغة، من كلام الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). تعليق: صبحي الصالح. قم المشرفة: دار الهجرة، 1419 هـ.
115- نهج البلاغة، من كلام الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). شرح محمد عبده (ت 1323 هـ). بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
116- نور الثقلين. الشيخ عبد علي بن جمعة الحويزي (من أعلام القرن الحادي عشر الهجري). قم المشرفة: إسماعيليان، بدون تاريخ.
117- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104 هـ). بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1403 هـ.
118- ينابيع المودة لذوي القربى. سليمان إبراهيم الحنفي المعروف بالقندوزي (ت 1294 هـ). تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني. طهران: دار الأسوة، 1416 هـ.

المصطلحات الواردة في الكتاب

(رُتبت حسب ورودها في الكتاب)

السؤدد: المجد والسيادة والشرف.

المكثور: من كثرة القتلى في أهله (ع) وأصحابه، أُطلق ذلك الوصف على الإمام الحسين (ع) لكثرة من قُتلَ من أهل بيته (ع) وأصحابه. وفي اللغة يُقال: رجلٌ مكثورٌ أي مغلوبٌ في الكثرة.

الجَنانُ: القلبُ.

تسنّمَ الخلافةَ: يُقال عن الإمام علي (ع) أنه تسنّمَ الخلافة: من سنَّمَ الشيء أي رفعه وأعلاه. وتسنَّمَ الخلافة أي رفعها (ع) إلى مستوى الفضيلة، ولم ترفعه بشيء.

مُجلّلاً سَحّاً: مطراً منصبّاً غير منقطع.

سُفُوحاً فُجاجاً: الماءُ المنصبُّ صباً، الذي يشقُّ الأرضَ شقّاً.

الهدنةُ والصلحُ: الهدنةُ هو السكون أو وقف الحرب إلى حينٍ بشروط، وربما يكون هناك أملٌ بأن يتبعها سلمٌ. أما الصلحُ فهو إنهاء حالة الحرب بصورة دائمية، وإلغاء الخصومة. هادنَ الإمامُ الحسن (ع) معاوية بشروط، ولم تكن صلحاً، ولو كانت صلحاً دائماً لما خرج الإمام الحسين (ع) على يزيد. ولكن بعض الروايات التاريخية تخلط بين الهدنة والصلح فتضعها في غير موضعها الصحيح. وهذا ينطبق على جميع الموارد التاريخية، وبضمنها هدنة الحديبية زمن النبي (ص).

الإحتراس من الأظَّماء: الأظَّماء: جمع الظَّمِء، وهو حبس الأبل عن الماء إلى غاية الورِد. ومن المجاز: أنا ظمآنٌ إلى لقائِك. والمعنى: الإحتراس عن التردد إليه (ع) ما دام معاوية حياً. وفي ذلك قوله (ع): (فالصِقُوا بالأرضِ، وأخفُوا الشخصَ، واكتموا الهوى، واحترِسُوا من الأظماءِ ما دامَ ابنُ هندٍ حيّاً).

حِلساً من أحلاسِ بيته: أي لا يبرحه. وفي ذلك قول الإمام الحسين (ع) بعد الهدنة مع معاوية: (ليكُنْ كُلُ امرئٍ منكم حِلْساً مِنْ أحلاسِ بيته ما دامَ هذا الرجلُ حيّاً).

الكلاب المهارشَة: هي الكلاب التي تتواثب على بعضها البعض. يُقال: الإهتراشُ: هو تقاتلُ الكلابِ. والتهريش بين الكلاب: التحريشُ بينها. وهي من مقتنيات يزيد ووسائل لهوه بها!

الحمام السبَّق لأترابهن: الحمامُ جنسٌ من الطير، والسبَّق لأترابهن: هو الحمام الذي يدربه صاحبه للتسابق واللهو. وهي أيضاً من مقتنيات يزيد ووسائل لهوه بها!

القينات ذواتِ المعازفِ: المغنيّات مع أدوات طربهنَّ. وهنَّ من وسائل لهو يزيد بن معاوية!

مخطّ القلادة على جَيد الفتاة: جَيد الفتاة أي عنقها، والجَيد هو موضع القلادة. والمعنى أن الموت خُطَّ على الإنسان كما أن القلادة خَطّت أثرها على عنق المرأة. وهذا من قوله (ع) في الموت: (خُطَّ الموتُ على وُلْدِ آدمَ مخَطَّ القلادةِ على جَيدِ الفتاةِ).

أولهني إلى أسلافي: الوَلَه هو الحب الشديد، والسلف: كل من تقدَّمَ الإنسان من آباء وذوي قرابة في السن والفضل. وهو قوله (ع) في الموت أيضاً: (وما أوْلَهَني إلى أسلافي إشتياقُ يعقوبَ إلى يُوسُفَ، وخيّرَ لي مَصْرَعاً أنا لاقيهِ).

عُسلان الفلوات: العاسِلُ هو الذئب، والجمع: عُسلان. والفلوات: جمع فلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة. وهو إشارته (ع) في تنبئه بمقتله (ع): (كأني بأوصالي تقَطِّعُها عُسْلانُ الفَلَواتِ بين النواويسِ وكربلاءَ فيملأنَ مني أكراشاً جَوْفاً، وأجرِبةً سُغْباً).

طوامير أهل الكوفة: جمع طومار أو طامور وهي الصحف، وهي كتب أهل الكوفة التي حملها معه (ع) في مسيره إليها، وفيها دعوتهم إليه (ع) للإمامة.

وَلِع نفسٍ بتَفْتين: وَلِع النفس هو التعلق الشديد. وتَفْتين: مصدر فَتَّنَ. وفَتَّنَ الناسَ بأعماله: أوقعهم في الفتنة. والمعنى أنه (ع) يدعو الله سبحانه بعظمته التي لا يشوبها وقوعٌ في الفتنة. ورد هذا في دعائه (ع): (اللهم من آوى إلى مأوى فأنت مأواي، ومن لجأ إلى ملجأ فأنت ملجأي... وأحرسني في بلواي من إفتنان الإمتحان، ولمة الشيطان، بعظمتك التي لا يشوبها وَلِع نفسٍ بتَفْتين...).

وارد طيف بتظنين: الطَّيفُ هو الغضبُ. التظنّي من الظنّ، وأصله التظنُّنُ. وتظنَّن بالأمر: ظنّه، أو علمه بغير يقين. والمعنى أنه (ع) يدعو الله سبحانه بعظمته التي لا يشوبها غضبٌ بغير يقين. وهو تكملة لدعائه (ع) السابق: (...ولا وارد طيف بتظنين).

الظنينُ: المتهم باقتراف جناية. والمظنون: على وزن مفعول هو المظنون ظناً على غير حق. وهو تكملة لدعائه (ع) السابق: (... ولا يلمّ بها فرح حتى تقلبني إليك بإرادتك غير ظنين ولا مظنون).

الشريعة: مورد الماء الذي يُستقى منه بدون دلو (أو رِشاء).

الطوارق: جمع طارقة، والطارقة هي المصيبة أو الداهية. وهو في قوله (ع): (أوصيكم بتقوى اللهِ، وأحذّرُكُم أيامهُ ... فبادروا بصحةِ الأجسامِ في مدَّةِ الأعمارِ، كأنكم ببغتاتِ طوارقهِ فتنقلكُم من ظهرِ الأرضِ إلى بطنِها).

حمالة مفظعة: أي دية أو غرامة كبيرة، كما في قوله (ع): (إنّ المسألة لا تصلح إلا في غرم فادح، أو فقر مدقع، أو حمالة مفظعة).

جفنَ السيف: غَمَد السيف. قرر (مصعب) أن لا يُرجِعَ السيفَ إلى غمده. فلا رجعة عن القتال والموت. وذلك لما فرّ أصحابُ مصعب عنه، وتخلّف في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، كسر جَفنَ سيفه وأنشد:

فإنّ الألى بالطفِ من آل هاشم　　　تأسوا فسنّوا للكرامِ التأسيا

فعلم أصحابه أنه قد استقتل.

السلِّة (بالكسر): إستلال السيف. وقوله: السلّة أو الذلّة أي الحرب أو الذلّ. وهو من قوله (ع): (ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ، قد خيّرنا بين اثنتين: السِّلة أو الذلّة، وهيهات منّا الذلة! يأبى الله لنا ذلك، ورسوله والمؤمنون).

تَفَيَّلَ: ضعف واخطأ، تفيّل رأيه: ضعف رأيه واخطأ. ومنه قوله (ع) في وعظهم: (... إلاّ الحَرامَ من الدُّنيا أنالُوكُمْ، وخَسيسُ عَيْشٍ طَمَعْتُمْ فيهِ، مِنْ غَيْرِ حَدَثٍ كانَ مِنَّا، ولا رأيٍ تَفَيَّلَ لنا).

خفرنا: أي حمانا، وأصل الكلمة من خَفَرهُ أي أجارهُ وحَماهُ. وهو قول الإمام الباقر (ع): (فمن وفى بذمتنا فقد وفى بذمة الله، ومن وفى بعهدنا فقد وفى بعهد الله، ومن خفرنا فقد خفر ذمّة الله).

الغُلُول: مصدر غلَّ، يغلُّ، وهو خيانة الرجل في مغنمٍ ونحوه. وقد حرّم الإسلام الغلول.

جدّاء: يابسة. تقول شاة جدّاء قليلةُ اللبن يابسة الضرع. وهو قوله (ع): (إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإنَ الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفُها واستمرت جدّاء، فلم يبقَ منها إلا صّبابةً كصُبابةِ الإناء).

بَرَماً: من البَرم وهو الضجر والسأم، وهو قوله (ع): (فإني لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا بَرَماً).

الهَبَل: فقدُ العقل، والحماقة. هَبِلت الأمُ ولدها أي ثكلته. وفي ذلك قول الحر بن يزيد الرياحي عندما خاطب أهل الكوفة: "يا أهل الكوفة، لأمّكم الهَبَل والعُبْر إذْ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه".

العُبْر: سخنة العين، وهو ما ورد في قول الحر بن يزيد الرياحي الآنف الذكر.

حلأتموه عن الماء: صددتموه عنه ومنعتموه إياه، وهو قول الحر بن يزيد في خطابه لأهل الكوفة: " وحلأتموه ونساءه وأصَبْيتَهَ وأصحابه عن ماء الفرات الجاري".

المفازةُ: الصحراء أو الأرض المقفرة.

الحوض: الماء المتجمع من المطر.

رملةٌ دعصةٌ: تلٌ من الرمل مجتمعٌ ومستدير.

الأتوار: جمع تور، وهو إناء من صفر أو حجارة.

الفرس المُطَّهم: الفرس التام، المُتناهِ في الرشاقة.

الساعة في اللغة العربية: جزءٌ من أجزاء الوقت وإن قلَّ.

الحصباءُ: صغارُ الحجارةِ التي كان يصلّي عليها المسلمون زمن رسول الله (ص)، حتى زمن عبد الملك بن مروان الذي غطى المسجد الأموي بالسجاد، فأصبحت أمراً جديداً مخالفاً لسنّة رسول الله (ص).

صلاة الغَداة: صلاة الفجر. والغَداةُ: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

المطبقُ: السجن تحت الأرض.

الفهرست

مقدمة الكتاب 7
محتويات الكتاب 9

الفصل الأول: الإمام الحسين (ع): حياةٌ حافلةٌ بالعطاء 11
مقدمة 13
في مسجد المدينة مع رسول الله (ص) 15
ما بعد رحيل: رسول الله (ص) وفاطمة الزهراء (ع) 24
في عهد والده الإمام أمير المؤمنين (ع) 26
في ظل أخيه الإمام الحسن (ع) 30
إمامة الحسين بن علي (ع) (49 – 61 هـ): 34
الأول: احترام العهد المبرم 35
الثاني: تهيئة الأرض لقيامه (ع) 37
وضع معالم الطريق (طريق الخروج على الحاكم الفاسق): 43
أولاً: تثبيت دور أئمة أهل البيت (ع) في الأمة 44
ثانياً: محاربة الحكم الوراثي الأموي 50
ثالثاً: تربية النفوس على المبدأ 52
رابعاً: رفض المساومة على الدين 54
الرحلة الأخيرة للحسين (ع): 60
أولاً: الإمام الحسين (ع) وأهل الكوفة: وجود الناصر 62

ثانياً: تنبؤه (ع) باستشهاده 69
ثالثاً: الرحلة المضنية إلى الكوفة 72
رابعاً: ثقل الهواء بعبادة الحسين (ع) في كربلاء 78

الفصل الثاني: الإمامة ولياقات الإمام (ع) 83
مقدمة 85
(1) اللياقة العقلية: 89
أ- العلم الإلهي 89
ب- البلاغة والفصاحة 98
ج- القدرة العقلية في المهمات 99
(2) اللياقة العملية 103
أ- العبادة 105
ب- الكرم العظيم 109
ج- الشجاعة الفاضلة 111
لياقته العملية في الساعات الأخيرة 114
(3) اللياقة الروحية 117

الفصل الثالث: صبيان معركة الطف ونساؤها 123
مقدمة 125
صبيان الطف ومرضاها 128
آثار الحرب على الصبيان والنساء 129

من معاجز الطف: التأثير العكسي على العيال 131
أمثلة من معجزات الطف 132
آل البيت (ع) وحدهم في الميدان 135
بنو أمية وصبيان الطف: 137
1- محاولات حرق خيم الحسين (ع) 137
2- تعطيش الأطفال 138
3- قتل القاصرين 139
نساء الطف 142
معاناة نساء الطف: 142
1- إرعاب النساء 143
2- قتل النساء (أم وهب الكلبي مثلاً) 143
3- خشية النساء من أسرهنَّ 144
شواهد من التأثر العاطفي للحسين (ع) 145
تأثير وجود العيال على تفكير الإمام (ع) 146
دلالات إجمالية 150

الفصل الرابع: المعركة العقلية في الطف 155
مقدمة 157
كلفة الحرب 157
المباني الفكرية للصراع: 159
1- محاولة قتل فكرة الإمامة الشرعية 160

2- تغيير أخلاقية الحرب 164
الحرب وشروطها: 165
أولهما: عدم الإعتداء 165
ثانيهما: المعاملة بالمثل 165
استهداف عقل المسلم 167
وجوب دفع المعتدي 168
مبادئ الحرب: 170
أ- الضرورة القتالية 171
ب- التمييز بين المقاتِل وغير المقاتِل 171
ج – التناسب أو التكافؤ 172
المنهج العقلي في الدفاع 175
3- العقول المتباينة في الطف: 179
تباين العقول في الطف 179
4- مباني العقلاء والسلوك السلمي قبل الطف 182
المنطق العقلائي للإمام (ع) 184
إن لم تكن مع الحق فلا تكن مع الباطل 186
محاولات أخيرة للسلام 187
5- معركة الطف: المعركة الفكرية 191
الإمام الحسين (ع) والمعركة 192
أهمية خوض المعركة: 192
أولاً: ضرورة تصحيح الوضع الديني 193

ثانياً: فشل المحاولات السلمية 194
ثالثاً: معركة الطف معركة دفاعية 194
رابعاً: المعركة الفكرية: 197
أ- تشخيص المشكلة 197
ب- تقديم البديل 198
ج- التمسك بالإمامة الحقة 200
خامساً: سلوك الإمام (ع) في المعركة: 200
أ- التمسك بالله تعالى 200
ب- قبول توبة المخطئين بحقه (ع) 201
ج- الصلاة وسط تطاير السهام وتصلية السيوف 202
د- المحاولة الأخيرة لتحريك قلوبهم القاسية 203
هـ - ترتيب نظام الحرب 204
و- القوة والبأس 204
التسلسل المنطقي لأحداث الطف 205
جنود الإمام (ع): 206
أ- الشجاعة 206
ب- الإخلاص غير المسبوق 207
ج- الصفات الفاضلة 208
سلوك معسكر الإمام الحسين (ع) 211

الفصل الخامس: الطف وقوة الإدراك لدى الإمام المكثور (ع).. 215
القوة العقلية والدعاء الأخير 217
تحليل دعاء: (اللهم متعالِ المكان) 220
الألم الإنساني وطبيعة تحمله: 221
الألم عند الإنسان 221
الألم الجسدي بين العقل والجسد: 224
أ- الألم بمعناه العام في القرآن الكريم 225
ب- بين الألم المادي والألم الروحي في القرآن الكريم 228
قضية العقل والجسد 230
آليات عقل الإمام المكثور (ع): 230
1- الضمير الناطق 231
2- كمالية الوعي العقلي 232
3- التعامل بخطٍ متوازٍ مع الأعداء 234
4- نية التقرب إلى الله تعالى 235
5- التضافر بين العقيدة السماوية والرغبة الشخصية 237
6- المزاج العقلي 239
7- الألم الجسدي والعقل 241
8- العقل وتفسير الأحداث 242
الإستنتاج العام.. 244

الفصل السادس: قضية الماء في السياسة الأموية ضد الحسين (ع)..247
الماء في القرآن الكريم والسنّة النبوية 249
الماء في الإمتحانات السماوية: 252
1- معجزة خاتم الأنبياء محمد (ص) 252
2- معجزة النبي موسى (ع) 252
3- إمتحان جيش طالوت (ع) 254
4- إمتحان الإمام الحسين (ع) بالماء 255
الماء في فكر بني أمية: 256
الماء في معركة بدر 257
مناقشة الزعم بحرمان المشركين من مياه بدر 259
حرمة منع الماء في المذاهب الأربعة 267
الإمام الحسين (ع) وتحمل أعباء العطش 270
عوامل زيادة شدة العطش في عاشوراء: 272
1- حرارة الجو 272
2- النشاط الجسدي 273
3- طبيعة الطعام 274
4- حمل الحديد 275
الإستنتاج العام 276

الفصل السابع: الإرث العقلي والعاطفي لواقعة الطف
(الإنسان، الجماعة، الأرض) 281
مقدمة 283
أولاً: الإرث العقلي للطف: الإنسان 284
البكاء: الدليل الروائي 285
البكاء: الدليل العقلي 286
البكاء على الحسين (ع) 287
تبعات التوقف عن بكاء الحسين (ع) 289
أقسام البكاء على الحسين (ع): 291
1- بكاء الإحتجاج 291
2- بكاء الحزن 292
3- بكاء الندم 293
4- بكاء العمل 294
لغة الدموع 296
لغة الدموع مقابل سياسة السيوف 297
ثانياً: الإرث العقلي للطف: الجماعة: 299
1- مجالس الحسين (ع): 300
الدليل العقلي 302
آليات مجالس الحسين (ع) 303
2- زيارة الإمام الحسين (ع): 308
الدليل العقلي 310

ثالثاً: الإرث العقلي للطف: المكان: 313
1- السجود على تربة الحسين (ع): 314
الدليل العقلي 315
التربة والمكان 317
شرفُ المكان 318
المكان والقوة الروحية 319
آداب المكان الشريف 321
2- مرقد الإمام الحسين (ع) 323
الإستنتاج العام.. 325

مصادر التوثيق 331
المصطلحات الواردة في الكتاب 349
الفهرست 355